أنور الجندي

مفاهيم العلوم الاجتماعية
والنفس والأخلاق
فى ضوء الإسلام

(الرد على فرويد وماركس ودوركايم)

دار الاعتصام

مفاهيم العلوم الاجتماعية

والنفس والأخلاق
في ضوء الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

أنور الجندي

مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام

(الرد على فرويد وماركس ودوركايم)

الطبعة الأولى
١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

دار الاعتصام

محاولة بناء إطار متكامل للفكر الاسلامي

أولا : مقدمات المناهج

ثانيا : الاسلامية (السياسة والاقتصاد)

ثالثا : العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق

رابعا : التربية وبناء الأجيال

خامسا : الفصحى لغة القرآن

سادسا : أصول الثقافة العربية ومصادرها الاسلامية

سابعا : خصائص الأدب العربى

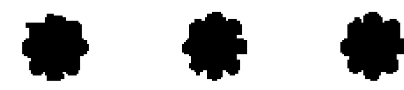
ثامنا : الاسلام والتكنولوجيا

تاسعا : الاسلام والحضارة

عاشرا : الاسلام وحركة التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

وان تطع اكثر من فى الأرض يضلوك عن سـبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصـون •



قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة•



وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون•

قرآن كريم

منهـــج البحـــث

أولا : الانسان مع نفسه

(١) المسئولية الفردية

(٢) الالتزام الأخلاقى

ثانيا : الانسان مع الآخر

(١) فطرية الأسرة

(٢) حقيقة دور المرأة فى المجتمع

(٣) الاعتراف بالرغبات

ثالثا : الانسان مع الحياة

(١) الانسان مع الجماعة

(٢) الانسان مع الحضارة

(٣) الانسان والزينة

(٤) الانسان والموت

(٥) الانسان والعالم المواجه

(٦) الانسان والمسرح

(٧) الانسان والسينما

(٨) الانسان والفن

رابعا : الانسان وعلم الانسان

(١) بناء الانسان

(٢) الى أى مدى تصدق النظريات المطروحة

مدخل

تتمثل المحاولات التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث لاخراجه من اصالته وقيمه فى عدة تحديات أهمها :

اولا : الحيلولة دون استئناف المسلمين حياتهم على أساس الاسلام •

ثانيا : اثارة الالتباس بين القيم المتكاملة لردها الى « منهج فكر » يقوم على الانشطارية •

ثالثا : طرح مناهج استحدثتها تحديات مجتمعات أخرى وجاءت نتيجة لتطور واسع طويل المدى ، تم على مراحل ولم يتحقق دفعة واحدة •

رابعا : محاولة تصوير المجتمع الاسلامى الحديث ، والفكر الاسلامى الحديث وكأنهما مستقلين عن روابطهما التاريخية والثقافية •

خامسا : محاولة اسقاط قيم جذرية ودعائم قائمة وفرائض اساسية كالجهاد والالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية •

سادسا : محاولة تصوير الاسلام على أنه نظرية : بينما هو منهج متكامل اما النظرية فهى عمل بشرى يخضع للتغيير والاضافة والحذف ، بينما يقوم المنهج الربانى على أساس الثبات فى دعائمه مع اتساع آفاقه واطره لتطور المجتمعات وتغير البيئات •

سابعا : محاولة ايجاد تفسيرات جديدة للمقومات الاسلامية الأساسية عن طريق التأويل أو التزييف أو اخضاع النصوص •

ثامنا : محاولة ادخال مفهـــوم الترف والاباحية والتحلل والرفاهيــة المنحرفة على طابع الاسلام الذى يتميز بالاصالة والتماسك والأخلاقية ٠

واذا قيل أن على الفكر الاسلامى المعـــاصر ان يكون مستقلا فعن ماذا يستقل ، هـــل استطاع الفكر الغربى أن يســـتقل عن الوثنية اليـونانية والمسيحية الغربية ، واذا كان الفكر الغربى على القطع قد استمد مقوماته من الفكر الهلينى اليونانى فهل من عجب أن يستمد الفكر الاســلامى الحـــديث دعائمه وأسسه من الاسلام ٠

(٢)

ان النظريات التى طرحهـــا الغرب فى أفق المجتمع الاســلامى سرعان ما تصدعت وانكشف فسادها وبمرور الزمن تبين أنها لا تحقق الاســتجابة الحقيقية للنفس العربيـــة الاسلامية وانها فى حاجة الى ادخال تعـــديلات وتحويرات جوهرية عليها ٠

ولا ريب أن المذاهب التى يصيبها العطب والاضطراب فى سنوات قليلة لا تصلح لمعايشة المجتمعات ولا تصلح أساسا لبناء الأمم ، ومن هنا انكشفت الفوارق البعيدة والعميقة بين منهج القرآن الثابت ثبوت الفطرة القائم عــلى أساس بناء النفس الانسانية ، القابل للممارسة والحركة من خلال اطاره المرن الواسع وبين المذاهب البشرية التى وضعت فى مواجهة تحد معين أو ظروف متغيرة ٠

(٣)

هناك خطأ أساسى فى مجال المذاهب والنظريات من حيث أنها تصاغ فى أسلوب علمى براق : هو محاولة اخضـــاعها للمنهج العلمى الذى خضعت له المادة ٠ ولكن هل يمكن أن تخضع الدراسات الاجتمـــاعية للأسلوب العلمى الذى خضع له العلم التجريبى ، ان هناك اختلاف واضح بين المفاهيم الانسانية والعلوم التجريبية : هذا الاختلاف مرده الى أن هذه المفاهيم ترتبط بالانسان

فى مشاعره وعواطفه وهى حالات يصعب اخضاعها للقوانين التى أخضعت لها الظواهر الطبيعية ، ان التجربة فى مجال العلوم الطبيعية والرياضية تصدق لأنها تقوم على أسس ثابتة ، أما المفاهيم الانسانية فانهـــا تتعرض لظروف مختلفة تتصل بأعماق النفس وتستحيل عـلى مقاييس التجريب ، كذلك من العسير تحرير المفاهيم الانسانية من الأهواء والميول والمصالح : كل هذا جعل المفاهيم الانسانية متعذرة على الخضوع لما تخضع له العلوم الطبيعية ٠

* * *

وهل فى الامكان لهذه المذاهب التى نشأت فى بيئات خاصة ومن خلال تحديات معينة بعضها يتعلق بالدين (فى بيئاتها) وبعضها يتصـل بالعصر والحضارة ، أن تصلح للتطبيق فى بيئات أخرى تختلف من حيث العقـــائد والفكر والعصر والبيئة والتحديات ٠ لقد ظهرت هذه الدعوات حين عجز الدين عن العطاء أو حين عزل المجتمع الغربى الدين عن التفاعل ٠ فجاءت كمحاولات لدراسة النفس والمجتمع والأخلاق من خلال العمل العقلى الخالص ، ولمـا كان العلم الغربى قائم على أساس المحسوس والتجربة وحدهما فقد جاءت هـــذه المحاولات مادية خالصة لأنها تجاهلت عنصر الوحى والايمـــان بالله ومناهج الدين ٠

وقد يقال أن (المسيحية الغربية) من شأنها أن تقبـــل الايدلوجيات والمذاهب والنظريات لأنها دين عبادة أما الاسلام فانه دين له شريعته ومنهج الحياة الخاص به ، فهو ليس فى حاجة الى مفاهيم وافدة ، ولا تستطيع هـــذه المناهج أن تطابق ظروفه ومفاهيمه أو تتناسب مع ذاتيته وطابعه المفرد ٠

(٤)

ان أخطر التحديات التى يواجهها المجتمع الاسلامى اليوم هى « تحديات التبعية وفقدان الذاتية » ولذلك فان تحرير الذاتية من القيود هـــو منطلق أساسى ، وعلى المسلمين والعرب أن يتجاوزوا هـــذه المناهج الوافدة التى عاشوا اسارى لها خلال فترة السيطرة الاستعمارية الأجنبية ، ووجـدوا من

خلال تجربتهم لها انها لم تحقق « الاستجابة الحقيقية » لمفاهيمهم أو ذاتيتهم وعلى المسلمين والعرب أن يفكروا بلغتهم وأن يتحركوا من داخل فكرهم وان يستردوا اصالتهم •

(٥)

في مواجهة بناء الانسان المسلم واقامة المجتمع النافذ ، أقام الاسلام ضوابط غاية في الاحكام تحول دون وقوع الفساد والاضطراب في حالة اتصال المجتمع الاسلامي بغيره من المجتمعات أو التقاء ثقافته الذاتية بالثقافات الوافدة •

وهي في مجموعها قواعد صلبة وأسس ثابتة تحول دون التداخل وفرض السيطرة فقد أقام الاسلام أساسا قاعدة الثبات والقيم المركزة ثم جعل ارادة الحركة والتغيير تجرى من داخلها •

هذه القواعد هي :

(أولا) تقوم دعوة الاسلام على قبول التغيير في اطار الثبات وعلى التنوع في اطار الوحدة ولا تتخلى مطلقا عن أساس الثبات والوحدة ، ثم تجرى الحركة في داخلهما حسبما يقتضى اختلاف العصور والبيئات بحيث تظل « القيم الأساسية » قائمة من حيث الحلال والحرام والحق والباطل والخير والشر •

ومن حيث ترتيب « سلم القيم » نفسه ، دون تقديم قيم على قيم اخرى بمعنى أن تظل قيم الجهاد والعبادة والانفاق والأخلاق في مقدمة القيم ولا تسبقها مفاهيم الرفاهية أو الترف أو التحلل أو الاباحيات ولا ريب أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « قيمة أساسية » في الاسلام وقوة ضخمة من قوى تحريك المجتمع ودفعه الى الطريق الصحيح « والحركة » قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وانما هي حركة في أفق وحول مدار •

ويقوم عنصر الثبات في الاسلام على قواعد أساسية منها :

١ ـ ثبات الاسلام ازاء الاخوة البشرية والعدل الاجتماعى •
٢ ـ ثبات الاسلام ازاء فريضة الجهاد •
٣ ـ ثبات الاسلام ازاء تحريم الربا •
٤ ـ ثبات الاسلام ازاء الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية •
٥ ـ ثبات الاسلام ازاء تحريم القتل والميسر والزنا •

ومن هنا امتنع الاسلام عن أن يكون مبررا الأوضــاع المجتمعات أو أن تكون شريعته موضع تأويل لتساير ظروف الأمم والحضارات على أن يظل عنصر الثبات قائما دائما وخاصة فى مسائل المرأة والزنا والخمر •

والاسلام يؤمن بما هو ثابت راسخ وبما يمكن أن يتبدل ويتغير حسب البيئات والعصور ولكنه لا يقر التطور فى مجال الأخلاق والعقائد والأصـول الثابتة للشريعة لأن ذلك يجعل من الدين مجموعة من المبادىء النسبية تتطور ويتطور الى غير ما نهاية بينما الدين حقائق مطلقة وأصول ثابتة راسخة •

(ثانيا) أكد الاسلام الارادة الحرة للفرد واعتبرها منــاط المسئولية • فالاسلام من حيث هو منهج حياة ونظام مجتمع يصدر عن مفهوم أساسى : هو التوحيد ، وان الانسان مستخلف فى الأرض لتحقيق رســالة ثابتة هى تعمير الكون وأن له ارادته الحرة التى هى مناط مسئوليته والمرتبطة أساسا بالبعث والجزاء ، ومن هنــا فان الاسلام يرفض « الجبرية » التى تحــاول أن تسيطر اليوم على العلوم الاجتماعية من خــلال مذاهب النفس والأخــلاق والاجتماع والتى تستمد مفهومها من فرضية زائفة هى أن الحياة الدنيا هى غاية الوجود الانسانى وأن سلوك الانسان وتصرفه محكوم بقوانين اجتماعية تجعله خاضعا لها وليس له ارادة حرة •

(ثالثا) اقام الاسلام مفهوم التكامل الجامع بين القيم والمقومات عــلى اساس ترابط العقيدة والشريعة والأخلاق بالفرد والمجتمع •

فالاسلام منهج متكامل جامع بين العبادة ونظام المجتمع • ومن هنا فانه

لا يقر الانشطارية او التجزئة بين القيم أو الفصل بين وحدات الحياة المختلفة : الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو التربوية فهى جميعهـا تتحرك من خلال الانسان وأساس الاسلام التكامل المـادى والمعنوى ، ومن هنا فان الفرد والمجتمع يتعانقان ولا يتصارعان ، وكذلك الفكر والمادة فانهما يتكاملان ولا يتقدم أحدهما الآخر •

(رابعا) طبع الاسلام الحياة الاجتماعية بطابع الأخـلاق الذى لا تتغير بتغير البيئات والعصور (مع التفرقة الواضحة بين الأخلاق والتقاليد) •

فالأخلاق ثابتة أما التقاليد فمتغيرة ويجب ان تتغير لأن ثباتهـــا يعنى الجمود وعدم القدرة على الاستجابة للتقدم والنهضة •

وهناك فرق عميق بين الأخلاق والتقاليد فالأخلاق تقوم على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل •

ولقد كان من أخطر آثار الاســـتعمار (سعيه الدائب) الى خلط قيم الأخلاق بالعادات الموروثة ، فهو يبعد الناس عن مبادىء الاسلام بالمغالاة فى تمجيد العادات التى ورثها المسلمون عن أجدادهم ، وقد أدخل فى روعهم أن لها قداسة من حيث أنها تمثل تراث أسلافهم ، وكأن مبادىء الاسلام دخيلة أجنبية • وقد نتج عن ذلك التحدى أن ارتفع شأن العادات والتقاليد الى مقام القيم الاسلامية فنافستها وصرعتها فى بعض البيئات •

(خامسا) قرر الاسلام وحدة النفس البشرية : حيث لا انفصـال بين الدين والحياة ، أو بين الدنيا والآخرة ، أو بـين الروح والجسم ، وذلك فى محاولة الحفاظ على تلاقى مختلف الأهداف فى اتجاه واحد مما يحول دون قيام ظواهر التمزق والضياع والفصام •

وقد أقام الاسلام من الايمان بالله قوة دافعة تعطى الأمل وتحـــول دون اليأس وتبعث الثقة وتحرص على المعاودة فى حالة الاخفاق •

وليس الايمان مضادا للمعرفة ، ولا يقف الاســـلام عند مفهوم المعرفة

القائم على الحس والتجربة بل يضيف اليه علما آخر جاء به الوحى وسجله القرآن وفيه تفصيل كامل لما وراء الطبيعة (عالم الغيب) ولما بعد الطبيعة من بعث وآخرة وجزاء • وقد جعل الاسلام الايمان بالغيب شرطا أساسيا من شروط الايمان والمعرفة •

ويقرر المفهوم العلمى الاسلامى أن لكل قيمه وجهين متكاملين : مادى ومعنوى لا انفصال بينهما • بينما يقرر المفهوم الغربى أن لكل قيمه وجها واحدا ، فهى اما مادى فيعترف به واما معنوى فيوضع فى حساب الغيبيات •

وأن المفهوم الانشطارى لا يجد مثولا فى العقل العربى الاسلامى ، الذى يعجز عن استيعابه ويراه ناقصا عن مفهوم الإسلام ذى الأبعاد الواسعة ، الشاملة لعالمى الغيب والشهادة •

(سادسا) حذر الاسلام المسلمين من التشبه بغيرهم وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة ولذلك أعلن حربا لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية ودعا الى اعلان التمييز بين الأمم فى العادات والأخلاق ، وقرر أن التقليد فقدان للشخصية ، وأن التبعية عبودية للفكر والعقل • وأن الأمم فى فترة الضعف لا تقلد الا جوانب الضعف والهدم والانحلال (فهى التى يقدمها لها العدو) وهى تعجز عن تقليد جوانب القوة (التى يحجبها العدو عنها) ولذلك فهى تنحصر دائما فى مجال اللذات والانحراف والتحلل وتتخلى عن قيم القوة والتماسك والصمود •

(سابعا) لا يقر الاسلام النظرية القائلة بأن هناك صراعا بين الجسم والروح ، وقد أعلن أن الروح والجسم متكاملان وبذلك أسقط مفهوم الرهبانية القائمة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحى ، أعلن الاسلام تكامل الروح والجسد معا ونظر الى الانسان نظرة متكاملة وكرمهما معا ودعا الى الاهتمام بالجسد من حيث الطهارة والنظافة وجمع الى ذلك طهارة القلب والزينة •

وقد نظر الاسلام الى الانسان من خـــلال طبيعته الأصيلة الجامعة بين الروح والجسم والعقل والقلب •

وبالجملة فانه لا سبيل الى تفريغ كيان الانسان من مضمونه الاجتماعى والنفسى والروحى أو النظر اليه عـــلى أنه ذلك الهيكل البشرى (المـــادى) (أو الحيوانى بتعبير فلاسفة علم النفس) خاليا من الروح والوجدان •

(ثامنا) قرر الاسلام أن نشر العلوم والثقافات ليس بديلا للتربيـــة والتهذيب الخلقى • وانه لا قيمة لهذه العلوم اذا نقلت الى المجتمع الاسلامى ما لم تتحرك فى اطاره ومن خلال قيمه ومفاهيمه • وان العلم سلاح يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والانشاء ، ولا يمكن استعماله اســـتعمالا صحيحا الا من خلال اطار العقيدة والأخلاق •

(تاسعا) يقرر الاسلام « قانون البعث » كقـــاعدة أساسية ودعـامة أصيلة فى حياة الانســـان وأن ترتيب البعث على الحيـــاة والموت ليس أمرا مستحيلا ولا متناقضا عقليا ولا فطريا بل أن الحياة الدنيا بغير البعث هى صورة غير مكتملة اذ كيف يمكن أن تنتهى الحياة دون أن يقدم للناس تفسيرا كاملا لها وجزاء كاملا عن أعمالها ، وفصلا واضحا فى عشرات من القضايا والمعضلات التى آثارها أصحاب المنهج البشرى فى معارضة المنهج الربانى •

ولا ريب أن مفهوم المســـئولية الفردية يترتب عليـه الحساب والجزاء ، فاقرار البعث مطابق للفطرة ولا يشكل تناقضا عقليا وانما الذى يشكـل التناقض العقلى هو انكار البعث اذ يجعل الحياة الدنيا التى هى جزء من حياة أخرى ومعبرا اليها بمثابة صدفة عارضة بينما هى « مجاز » لامتحان ومقر لاختبار يمر به الانسان ليصل الى الجزاء فى مكانه وموعـــده ولقد وصف القرآن الصدفة بأنها العبث (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينـــا لا ترجعون) •

وليس فهم الحياة بوصفها معبرا الى الآخرة بمنقص من هدف تحسينها وأداء الدور الحقيقى فى عمرانها وبنائها ولكنه على العكس من ذلك ، اذ يجعل العمل فيها أكثر أصالة وأعمق أثرا فى انتظار جزاء الله وأجره •

إطار البحث وآفاقه

خطران يقفان اليوم فى وجه البشرية فى محاولة جسورة لتدميرهـــا وصرفها عن منهج الله : أولهما خطر عقائدى يتمثل فى الالحاد ، والثانى خطر اجتماعى يتمثل فى مفاهيم (العلوم الاجتماعية) التى تعمل على دفع البشرية الى متاهات القلق والتمزق حتى تضل طريقها الصحيح فلا تصل الى طريق الله •

وقد بدأ هذا الخطر يتحكم ويفرض نفوذه منذ سيطرت اليهودية التلمودية على الفكر البشرى ممثلا فى الفكر الغربى الذى حاول قيادة الأمم خلال مرحلة الاستعمار الواسعة التى شملت آسيا وأفريقيا وركزت تركيزا شديدا عـلى العالم الاسلامى •

ولقد اتجهت الايدلوجية التلمودية منذ سنوات سبقت الثورة الفرنسية للسيطرة على الفكر الغربى والمجتمع الغربى واستطاعت فى خلال هذه العقود المتوالية من القرن الماضى والقرن العشرين احكام قبضتها حلقة بعد حلقـة حتى وصلت اليوم الى ما يشبه السيطرة الكاملة : (ماركس فى الاقتصاد • فرويد فى النفس • ديوى فى التربية دوركايم وليفى بريل فى الاجتماع والاخلاق) وهى ما يطلق عليها مدرسة العلوم الاجتماعية تجاوزا[١] •

ولقد نشأت هذه الدعوات فى بيئة خاصة ومن خلال تحديات مختلفة ظهرت حين عجز الدين عن العطاء وحين انفصــلت الاخـــلاق عن الدين ، واستهدفت السيطرة التلمودية من وراء بناء ايدلوجيات فكرية بشرية ــ من حيث أن المسيحية دين لاهوتى وليس له منهج حياة أو نظام مجتمع ــ هدفا

---

(١) تطلق (العلوم الاجتماعية) أصلا على ما قدمه : (دوركايم وليفى بريل) •

أخر هو تحطيم المجتمعات المسيحية واسقاط الاسرة على حساب اعلاء المجتمع والقول بأن القيم كلها للمجتمع وأن المجتمع هو الذى يخلق الأديان والعقائد والآداب وحتى القيم الروحية •

« وقد تعرضت المجتمعات الغربية لهزات عقائدية فادحة مهد لهـــا التطور الحضارى بانجازه المادى وبروز عمالقة الملحدين » ثم انتشرت الدعوة الى التحلل والاباحة والحرية الدينية والاخلاقية •

وغاية القول فى العلوم الاجتماعية هو أنها عمل ماكر دقيق ، موضوع فى أسلوب علمى براق ، يرمى الى تحويل الأهداف الصهيونية المدمرة الى نظريات فلسفية مطروحة فى مجال التعليم والصحافة والثقافة العصرية •

ثم يجيء الخطر حين تنتقل هذه المفاهيم لتطرح نفسها فى أفق الفكـــر الاسلامى وهى المرحلة الأخيرة فى مؤامرة احتواء الفكر البشرى بعد أن سقط الفكر الغربى تماما فى براثن المخططات التلمودية •

واليوم يصطخب المجتمع الاسلامى بموجات من مفاهيم العلوم الاجتماعية جاءته من كل مكان : عن طريق الترجمة وعن طريق اتباع الدعوات والمذاهب ، وعن طريق مناهج التربية والتعليم التى قدمتها الارساليات أساسا للجامعات والمعاهد المختلفة فى العالم الاسلامى ، بالاضافة الى مجال الأزياء والزينة •

تقول بنجمين فيلبى فى محاضرة لها بالجامعة الامريكية فى بيروت ــ (١٩٥٧/١٠/٢٠) « لقد لعبت المؤسسات (نقصد الارساليات فى بيروت والقاهرة والقسطنطنية) : الدور الرئيسى فى تنمية الفكر الشخصى عنـــد طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ومن المهم أيضا أن نعرف أن النفوذ التربوى الوحيد الذى تعرض له الطلاب العرب فى القرن الماضى كان النفوذ الغربى » •

ومن هنا تأتى الخطورة : خطورة حصر تفكير المثقفين داخل دائرة الفكر الغربى المطعم بالتلمودية ولذلك فان من أعظم المحـــاذير : دخول العـــرب والمسلمين فى مواجهة مع العدو بمفاهيم وافدة هو صانعها فى الاغلب •

ولا ريب يستهدف طرح هذه المفاهيم فى أفق المجتمـــع الاسلامى عملا أساسيا : هو تحطيم قدرة الأمم على المقاومة • ذلك لأن هذه المذاهب الفلسفية الحديثة فى الأخلاق والنفس والاجتمـــاع والتربية انما تحاول أن تصـــور للانسان المسلم والعربى أنه مقيد فى جبرية ولا سبيل له الا الارادة الفردية للخلاص منها ، وهذا هو الطـــابع الذى ينتظم مختلف نظريات العـــلوم الاجتماعية •

فضلا عن الحملة الشديدة على الدين ومحاولة ازدراءه والسخرية بـه وكذلك الحملة على الاخلاق وترويج الدعوى الباطلة بنسبية الاخلاق وانتهاء زمن الاديان •

ولعل أخطر ما ترمى اليه نظريات العلوم الاجتماعية : ليس هو فى اعتناقها أو رفضها بقدر ما هو فى بلبلة العقـــل واثارة الفكر ، وخلق روح المقارنة والمعارضة ، ثم الاحتقار لكل القيم المتضاربة •

ذلك أن هذه المدارس لا تقدم وجهة نظر واحدة ولكنها تقدم عديدا من وجهات النظر وليس هناك مدرسة واحدة لعلم النفس أو الاجتماع أو الاخلاق أو التربية ولكنها مدارس مختلفة تقدم عشرات المذاهب والمناهج ، تتعدد معها وجهات النظر وتختلف مسلماتها وطرق تأويلها للوقائع •

فهناك مدارس فرنسية وألمانية وانجليزية وأمريكية •• وكلما ظهرت نظرية فى اتجاه ظهرت نظرية أخرى فى الاتجاه المضاد وحين ظهرت الماركسية أو الفردية أو الوجودية أو مدرسة العلوم الاجتماعية ظهرت نظريات معارضة لدارون وماركس وفرويد وسارتر •

وجرت فى أفق الفكر معارضات ومساجلات لا يقصد بها أكثر من الهدم : هدم كل القيم واثارة روح الاحتقار والكراهية لكل المفاهيم وخلق روح من اللامبالاه واللاانتماء لشىء ما •

وهذا هو ما أثمر أخيرا تلك الموجة العارمة من الرفض الذى حمل لواءه الشباب باسم الهبية وغيرها من دعوات ٠

ولقد تظهر نظريات لتدحض زيفا ولكن تظل الدعوات الزائفة باقيـــة محمولة على كل طائر الى الآفاق ولا تجد محاولات النقض مجالا لرأى أو مكانا لبيان بفعل نفوذ أصحاب الاهواء ٠ ولقد جرت المحاولات منذ وقت بعيـــد لسيطرة الفكر الغربى باسم العالمية على الفكر الاسلامى كما جرت محاولات احتواءه وصهره ٠ ذلك أن الغرب حاول فى غطرسة واستعلاء فرض وجهة نظره على العالم كله ، بحسبان أنه هو صاحب الحضارة وسيد الأمم وتــاج الخليقة ولقد دافع الفكر الاسلامى عن نفسه هذه المحاولات وجاهد فى مقاومتها جهادا بالغا ، وكشف فى معركة المقاومة عن جوهره الأصـــيل الصلب الذى لا يخضع ولا ينطوى ٠

وهذه موجة أخرى جديدة من موجات الاحتواء تحاول أن تسيطر عــلى الفكر الاســلامى وتجتاحه بقوة وهى ذات طابع آخر ، فهى شــطر من دعوة تجتاح العالم كله وموجة عارمة من التحلل فى العقائد والقيم والاخلاق تدعو الى حرية الغريزة وانطلاق الشهوات والاهواء ٠

وقد عمدت التلمودية حين سيطرت على الفكر الغربى « الى نقله مــن توجيه السلوك الانسانى على أساس العقل كما عرفته الفلسفة المادية الى توجيهه على أساس الغريزة والانطلاق النفسى كما صوره فرويد ٠ وكتاب القصة وهوليود ٠ وذلك فى سبيل دفع السلوك الانسانى الى فلسفة بدائية فى جوهرها ، وفى مضمونها تمجد الغريزة وتناقض العقل ٠

وتتركز الدعوة التلمودية فى مجال العلوم الاجتماعية الى اسقاط قيم الدين وتحطيم الثوابت من القيم فى مجالات المجتمع وفى مجال الأخلاق على الخصوص وهى دعوة : « الى أن يصبح الناس أحرارا لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون فى نوادى العراة » فلما وقفت المدنية المسيحية من

ذلك موقف عدائيا ، أخلاقيا ، رأوه يحول دون نجاح هدفهم فى تليين الشباب منذ طفولتهم بتلقينهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتلقينهم مبادىء قداسة أعضائهم التناسلية ، لما رأو معارضة رجال الدين المسيحى صنعوا بهم الاعاجيب من قتل وتخويف(١) وعندما حملت التلمودية لواء الدعوة الى تحرير الانسان فى الثورة الفرنسية (حرية - اخاء - مساواة) لم يكن الهدف الا تحرير الانسان من الدين ودفعه الى اباحية الالحاد ، وعندما دعت التلمودية الى تحرير الفرد من ظلم المجتمع كان الهدف هو فرض عبودية الجبرية عليه واسقاط ارادته وجعله ترسا فى آلة كبرى وحين يحاول علم النفس الفرويدى طرح فكرته انما يعمد الى دعوة الانسان لفصل العلم عن التطبيق ، ومن أخطر مفاهيم الفكر اليهودى التلمودى التى سيطرت على الفلسفات مذهب الشك فى الحياة بعد الموت وانكار البعث •

ويرى المراجع للفكر اليهودى انه « لا يوجد فى تعاليمه وشريعته ذكر للروح ، ولا اعتراف بحياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد فى دينهم شىء من الخلود • وهم يؤمنون بالاله يهوه وهو اله خاص بهم وحدهم دون الآخرين ، وهكذا تطغى المادة على عقيدتهم طغيانا عجيبا يقول يهوه : لا بعث فى حياة أخرى وما الموت الا نوم عميق » •

ومن هنا جاءت تلك الدعوة الحارة الى المتعة واللذة فى حياة ليس بعدها جزاء وتلك العبارات المثيرة التى تدعو الانسان أن يقتنص حظه قبل أن يذهب•

وقد استعلت هذه النغمة بعد الحرب العالمية وارتبطت بخطر الذرة وما اليها والتلمودية هى التى تذيع كراهية الأب وتحاول أن ترسم له صورة الغطرسة والاستبداد وتدعو الى حرية الصداقة والى التقليل من شأن البراءة والبكارة والطهارة • وتدعو الى تحطيم كل الصداقات والقيم والتحرر من كل القيود •

---

(١) عن بحث للأستاذ محمد خليفة التونسى •

والتلمودية هي التي تقول : انه ليس في الكون شيء ثابت لا يتغير وليست هناك اخلاق مثل دائمة وهي التي تسوق العالم الآن تحت لواء الجنس : قصة وثقافة وتربية وصحافة وهي التي تذيع عن طريق أوليائها أن الدنيا مسرحية ساخرة ٠

ولا ريب ان أعظم أهداف التلمودية هو هدم الاسرة : واعلاء العلاقات غير الشرعية ، ودفع المرأة الى أن تكون اداة طيعة للأهواء واللذات ٠

وهي التي تعلن انه لا علاقة بين اللباس والاخلاق وان الشهوات لا تستثار بالتبرج وانه لا وصاية على الشباب ٠

ولا ريب ان طرح هذه المفاهيم الوافدة الزائفة في افق المجتمع الاسلامي انما هي محاولة خطيرة للتأثير على النفسية والمزاج والجانب الروحي الاسلامي واخراجها جميعا من مفاهيمها وموازينها وفرض أعراف جديدة على المسلمين تختلف في الأصل ٠

وهي محاولة لصياغة عقلية المجتمع الاسلامي وتبديل اسلوب تفكيرها وتغيير نظرتها الى طبائع الأشياء وصبها في قالب التلمودية المادية الربوية الاباحية ٠

ومن الحق ان يقال ان لنا مفاهيم في النفس والاجتماع والاخلاق ـ لا نقول تفوق ـ ولكن تختلف عن مفاهيم مدارس العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي ووجه اختلافها انما يتركز في صلاحيتها لمجتمعنا وافقنا لأنها نابعة من فكرنا وقيمنا ، ومن هنا فهي صالحة لنا بينما لا يصلح غيرها لنا مهما كان صالحا لمجتمعه ولما كانت مفاهيم العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي قد عراها اضطراب كبير وكشفت التجارب عن أخطاء واسعة فيها كما كشفت التحاليل عن فروض فاسدة ، ونتائج مضللة ، فالأولى وقد تجاوزها قومها أن نتجاوزها وأن لا نسرف في الثقة بها ٠

* * *

الباب الأول

الإنسان

مع نفسه

أولا : المسئولية الفردية فى مواجهة نظرية الجبرية الاجتماعية .

ثانيا : الالتزام الأخلاقى فى مواجهة نظرية نسبية الأخلاق .

الفصـــل الأول

المســئولية الفردية فى مواجهة نظرية الجبرية الاجتماعية

(١)

اختلف الباحثون فى فهم الإنسان وتعددت النظريات واختلفت مع اختلاف المراحل (خلال العصر الحديث) بين مؤلهة للإنسان وواضعة له فى إطار الحيوان والمادة . وهى فى كلا نظريتها مسبوقة بنظريات مختلفة تداولها الفكر اليونانى والفكر الغنوصى على السواء ، وهما جناحا الفكر البشرى فى الشرق والغرب وهما أيضاً يختلفان فى هذا عن نظرة الدين الحق على عمومه والإسلام بصفة خاصة .

ولا ريب ترجع أزمة الانسان الحديث إلى سيطرة النظريات التى شكلتها مدرسة العلوم الاجتماعية (وهى علوم الاجتماع والنفس والأخلاق) والتفسير المادى للتاريخ ، وكلها ظهرت فى خلال المائة سنة الأخيرة وقادها كثيرون على رأسهم سبنسر وماركس وفرويد ودوركايم وليفى بريل وسارتر .

وقد استقطبت هذه النظريات دعويان: هى[الليبرالية الغربية] المعروفة باسم الرأسمالية[والماركسية] التى تفرعت عنها دعوات البلشفية والاشتراكية والشيوعية ودارت هذه النظريات بين فلسكين أحدهما يحمل لواء الفردية والآخر يحمل لواء الجماعية ، ثم طرحت هذه المذاهب نفسها فى أفق الفـكر الاسلامى عن طريق مدارس الارساليات ومناهج الجامعات والصحافة وأبحاث الأدباء والمفكرين .

ولقد حفل العصر الحديث على أثر سيطرةمفهوم التطور (المطلق) بعـد الانفصال عن المسيحية الغربية بتغيرات متوالية ، تراوحت بين الفلسفة اللاهوتية، والفلسفة المثالية والفلسفة المادية التى سيطرت فى السنوات الأربعين الأخـــيرة

وأصبحت قاعدة المفكرين الليبرالى والماركسى جميعاً ولم تعد نظريات الفلسفة اللاهوتية أو المثالية تبدو من بعد وإلى اليوم إلا فى موقف الدفاع وتقديم التنازلات

ولا ريب أن المرحلة الأخيرة التى سيطرت فيها مدرسة العلوم الاجتماعية التى قامت اساساً على مفهوم الجبرية الاجتماعية والحتمية التاريخية قد شكلت ذلك التحدى الخطير الذى أصبح يطلق عليه فى عالم الغرب: [أزمة الانسان الحديث].

وقد كتب الكثيرون تحت هذا العنوان بحوثاً هامة تناولت هذه الأزمة ، وفى مقدمة هؤلاء تشارلز فريكل فى كتابه (أزمة الانسان الحديث) وكارل ياسبرز فى كتابه (مستقبل الانسانية) كما أطلق عليها أدرتين كوخ (أزمة العصر) وكلها تدور حول الانسان وتبحثه من خلال مفاهيم العلوم الاجتماعية له (حتى نظرية الوجودية التى تمثل الدفاع عن فردية الانسان فى وجه النظرية الجماعية) ولكن ما يلفت النظر حقاً ويستدعى العجب أن هذه النظريات كلها على اختلافها بين التيارات والمذاهب والمجتمعات إنما تصدر عن قاعدة واحدة : فهى تقوم الانسان على أساس واحد : هو الأساس المادى .

وبدات تنكر عليه أعظم معطياته وهى الروح والنفس والعاطفة والوجدان ولقد دار الخلاف حول الانسان وهل هو حيوان اجتماعى أم أن له جانب آخر هو الفردية . ولكن البحث لم يجرؤ مطلقاً على أن يقول إن الانسان ليس ماديا فحسب ولكنه مادى وروحى، وأنه ليس خاضعاً للعلوم البيولوجية ولكنه قسم بين البيولوجية والنفسية وأن له نفساً هى بمثابة الروح، فكما أن الانسان مزيج من الفردية والجماعية فهو مزيج أيضاً بين المادية والروحية .

ولقد استثيرت فى السنوات الأخيرة ظاهرة البحث عن الإنسان وتصدت لذلك هذه العلوم الاجتماعية التى تصدر عن المذهب المادى والتى ترد كل تصرفات الانسان أما إلى الطعام أو الجنس ، والتى تقيس الانسان بتجارب الحيوان ، أو تطبق عليه مناهج العلوم الطبيعية والتى تفسر تاريخه كله بالحتمية (ماركس) أو تضعه فى قالب الجبرية الاجتماعية (دوركايم) .

ولا ريب أن حتمية الانسان تنفى عنه المسئولية الفردية التى هى عماد شخصيته ورسالته ووجوده فى هذا الكون :

ويعنى هذا تماما أن الانسان الغربى بقيادة مدرسة العلوم الاجتماعية قد قطع آخر خيط بينه وبين مفهوم الدين ولذلك فقد انفصل تماماً وأصبح معلقا فى الهواء تتقاذفه التيارات تحت اسم التطور المطلق والحركة الدائمة

(٢)

كيف يتصور المفكرون الغربيون أزمة الانسان الغربى المعاصر .

١ — فى محاولة تشارلز فرانكل لدراسة أزمة الانسان يقول :

« بالرغم مما حققه العصر الحديث من معجزات العلم والتكنولوجيا إلا أن الثورة على الانسان المعاصر الذى سيطر بعقله وعمله على الكون بدأت تشتد وتقوى ، إذ أنه رغم كل ذلك لم يحصل الانسان الحديث على السعادة ولا الطمأنينة وما زالت قيمه فى تخبط ووجوده مهدد بالقلق » .

« لقد اشتدت صيحة فلاسفة الغرب ينذرون الانسان الغربى صاحب الحضارة وسيد العالم بأن أخطاراً جسيمة تهدده وانه يسير إلى حتفه ما لم يخفف كبرياءه ويعيد النظر إلى قيمه التى يلتزم بها وجوده . وما كانت هذه الدعوة لتعلو وتشتد ما لم تكن الحضارة الغربية مهددة اليوم باشياء كثيرة منها صحوة المارد الشرقى آسيا وإفريقيا ، وقد بدأت تظهر أن حضارته ليست وحدها هى الحضارة المثلى وأن قيمه رغم التقدم العلمى فى حاجة إلى كثير من التغيير والتعديل .

ويرد (جاك مارتيان) هذا الخطر إلى مفهوم الاتجاه التجريبى فى الأخلاق المعاصرة [1] . ويقول : ان أى مجتمع بشرى يحتاج إلى مجموعة من القيم ذات المصدر الإلهى الذى يعلو على الإنسان ، أى أن مصدر القيم لا يجوز أن يرجع إلى الإنسان نفسه وإلا فإنه سيكون طرفاً وقاضياً فى نفس الوقت : إذن لابد لكى يحتفظ المجتمع البشرى باستقراره وخضوعه للسلطة السياسية من وجود حقائق مطلقة يسلم بها الأفراد جميعاً .

(١) راجع الفصل الثانى من هذا الباب .



ويرد (راينهولد نيبور) الأزمة إلى فكرة الخطيئة الأصلية ، وتعنى عنده مذهب الخطيئة : ان وجود الشر فى العالم ليس مجرد نتيجة لنظم اجتماعية غير صالحة أو نتيجة الجهل البشرى ولكنه نتيجة انحراف أساسى فى طبيعة النفس البشرية ذاتها ومن ثم تتدخل الخطيئة الأصلية فى سير التاريخ البشرى ، حتى فى خير العوالم الممكن وجودها . لابد للحياة البشرية من أن تنطوى على تناقض ثابت ، ذلك أن الإنسان مخلوق محدود ، وهو من ناحية أخرى غير محدود برغباته ، « والنتيجة أن يظل هناك احساس أساسى واضح فى حياة الناس (يقصد فى الغرب) هو الشعور بالقلق ، وليس هذا القلق خوفاً من شىء محدود ، كما أنه ليس ناجما عن أشياء معينة يمكن أن تعالج بأساليب عملية معينة ، انه شعور جميع الناس بانهم لا يدركون المطلق ، ويقول : لقد كان الظن أنه حين يتقدم الانسان فى المعرفة يتقدم فى الفضيلة ولكن ذلك لم يتحقق ، ويقول : وكذلك اتخذ الانسان الحديث من العلم نبيا كاذبا .

ويرى المؤرخ توينبى : ان أمل الانسان مركز فيما يمكن التمسك به من المثل الروحية التى جاءت بها الأديان جميعا وإعادة تنظيم النظم السياسية والاجتماعية بما يتفق والقيم الخلقية ، وبهذا وحده يمكن إنقاذ الحضارة الغربية .

ويدعو توينبى الغرب لالتزام المثل الأخلاقية ويشير إلى ما كان للغرب من حضارة زاهرة بفضل تمسكهم بالقيم الروحية الخالدة[1] ، ويشير إلى قضية تقدم العقل البشرى فى العلم والتكنولوجيا وخطرها على مستقبل الانسان .

(٣)

ويرى كثير من الباحثين أن النفس[2] الانسانية أهملت أشد الاهمال وازدريت أشد الازدراء بتاثير الكنيسة فى العصور الوسطى ، التى ذهبت إلى تضليل العقول مذهبا بعيداً ، فزعمت الانسان شريراً خاطئا بالطبع ، وعلمت الانسان أن فيه

---

(١) الواقع أن القيم التى تمسك بها المسلمون والعرب ليست روحية خالصة ولكنها قيم جامعة بين الدين والدنيا والعقل والقلب وتعترف بالانسان كيانا متكاملا : روحيا وماديا معا .
(٢) الرســالة م ١٩٣٧ .

نزعة من الشيطان وقد عكست (بمعنى غايرت) الكنيسة غاية الدين الذى لم تأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين إعتقاده بحاضره ومستقبله » .

ثم كيف انتقل من النقيض إلى النقيض ، فأخذ الانسان يتصور نفسه قوة قادرة ، مسيطرة ، وبدأ يتحدث عن ما أسماه تلاعب الأقدار به أو صراعه مع الأقدار ، ودعوته المريضة فى قدرته على السيطرة على الطبيعة والطموح إلى القوة وقهر الموت ، ثم تبين له من بعد مدى غروره بهذه الدعاوى الباطلة ، فقد ظل الموت علامة ضخمة على عجز الانسان عن فهم رسالته الصحيحة ومكانه الطبيعى من الكون والحياة .

لقد تحولت النظرة إلى الانسان ثلاث مرات بعد أن انسلخ الفكر الغربى من مفهوم المسيحية اللاهوتية :

المرحلة الأولى : تقديس فرديته ووصفه بأنه مركز الكون .

المرحلة الثانية : إلغاء شخصيته وتطبيق مقاييس الحيوان عليه ووصفه بأنه يصدر عن غريزته وعن الجنس أو الطعام .

المرحلة الثالثة : اعتباره مجرد فرد فى القطيع وإعلاء مفهوم الجماعية .

وهكذا بقى الانسان فى نظر المذاهب يتأرجح بين تيارين من الشك كلاهما فيه تجاوز كبير كبير وكل منهما أشد خطراً من الآخر :

هل الانسان هو سيد الكون غير منازع كما تقول الوجودية ؟

أم ان الانسان حيوان مقيد بالغرائز كما يقول فرويد أو مقيد بالطعام كما يقول ماركس .

الحقيقة أن الانسان ليس سيداً للكون إلا بمعنى الاستخلاف فى الأرض لله ، وليس حيوانا مقيداً بالجنس أو الطعام ولكنه جامع بين الرغبات المادية والأشواق الروحية وقادر على الموازنة بينهما .

ولقد حاولت بعض الدراسات أن تثير الشكوك حول عناية الأديان السماوية والكتب السماوية بالانسان وهى قضية تثار من خلال بعض النصوص المنسوبة

إلى المسيحية أو التي يجرى تفسيرها لاهوتيا على النحو الذى ذكره (ماجد فخرى) فى كتابه (دراسات فى الفكر العربى) وما ردده (جورج حنا) فى كتابه (اكتشاف الانسان العربى) حتى يصل القول إلى أن اليونان هم الذين كان لهم فضل اكتشاف هذه الحقيقة . ثم يقول ان النظرة الانسانية غلبت على الفكر الحديث منذ القرن الخامس عشر(١) .

والواقع أن القرآن الذى أهدى إلى البشرية منذ أربعة عشر قرنا قد قام على محور واضح الدلالة فى التركيز على بناء الانسان على نحو شامل جامع ، ومن خلال منهج يربط بين المادة والروح فيه .

ولا ريب أن هذه الحقيقة تجعلنا نعتقد أن الكتب السماوية السابقة له والتى جاء مصدقا لها وكذلك رسالات السماء كلها التى جاء الاسلام متمماً لها قد أولت عناية كبرى بالانسان وأن كل المعانى التى كانت تذخر بها الحياة البشرية قبل الاسلام من قيم الأخلاق والعلم والحضارة إنما تعود إلى تراث الأديان أساساً وإلى الفكر الربانى الأصل الانسانى الطابع . بينما تعود كل مفاهيم الوثنية والإلحاد والظلم والجحود إلى تراث الفكر البشرى الهلينى والغنوصى على السواء .

ولا ريب أن هذا الصراع الحاد بين العقل والروح من ناحية وبين النفس والجسد من ناحية أخرى هو ثمرة الفكر البشرى الذى تخطى القيم والضوابط والحدود التى رسمتها الأديان للإنسان وانطلق نحو الغابة الموحشة .

(٤)

يقول المتابعون لتطور الفكر الغربى فى آخر مراحله أن همومه اليوم تدور حول قضية أزمة الانسان المعاصر ، وأن كل المذاهب الجديدة تدور حول الأزمة الراهنة للانسان المعاصر ، ذلك أن الانسان المعاصر قد أصاب العلوم وفى كل مكان بأزمة حادة وخطيرة تهدد بغروب شمس الانسان على الأرض ،

(١) ص ٢٦٦ من كتاب اكتشاف الإنسان العربى .

واختفاء الانسان من الوجود ، وترجع هـذه الأزمة إلى تخلخل مكانة الأيدلوجيات المختلفه وعـدم حلول مناهج ومفهومات جديدة محل المناهج والمفهومات التى تخطتها الوقائع والأحداث » .

ويقول جول رومان فى كتابه (المسألة رقم واحد) : « ان الغرب فى دمار وهو ينهار نظراً لفقدان أيدلوجية ثابته لأن الأيدلوجيات القائمة لاتحمل عناصر الثبات وهى لذلك تنطلق وتتمدى » .

ويقول أحد الباحثين فى أزمه القيم الانسانيه : «ان الانسان منذ وجـد على الأرض يناضل فى سبيل الوصول إلى عالم أفضل أو مجتمع أمثل ولكن الانسان لم يستطع بعد تحقيق هذا العالم . ويرجع ذلك إلى الانغماس فى اللذات والمتع الرخيصة وحالة الميوعه والفوضى وفقدان الشخصيه الانسانيه ، فقد فقد الانسان الحاسة الانسانية المهمه وأصبح لا يهتم إلا بحياته الفردية والمضى دون أن يقيم وزنا لما فى العالم من قيم فكأنه كفرد أصبح المقيم الوحيد (١) . »

ويرى الدوكس هكسلى : « إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان وتعيش فى ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة التى تجرد الانسان من كل مشاعر الانسان بلا حب ولا تعاطف ، وتقوم على تبادلات الاتصال الجنسى على نحو ما تفعل السائمة » .

ويقول : «ان العالم يمارس الحياة بطريقةغريزية لاتقوم على منطق أو تفكير والمجتمع الجديد لا يعترف بعقود الزواج ولا يعترف بالأمومة وكل شىء تصنعه الآلات ، والانسان يستهلك مائة سنة فى خمسين سنة بالعقاقير والاجهاد العصبى والخروج عن الطبيعة وكبت الانفعالات والتظاهر بالكذب والنفاق » .

---

(١) عن بحث لـــ : لبيب زويا .

يؤكد الباحثون والمؤرخون ان ازمة الانسان الحديث وأزمة الحضارة المدنية لا يمكن إنقاذها إلا بالدين : الدين الحق ، وأن مصدر الأزمة الحقيقى هو انفصال الانسان بجانبه المادى عن جانبه الروحى ، وافتقاده عناصر الرحمة والأخلاق والعدل وصفة عزم الأمور .

فضلا عن انهيار جانب المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى وقد أكدت جميع الدراسات على أن الترف والنعمة والرفاهية تهدم رجولة الرجل وتحطم المجتمعات .

وقد وقعت البشرية اليوم فى الأزمة المضادة : كانت الأزمة فيما تصوره الغربيون هى أزمة الفقر المادى ، وقد حلت هذه الأزمة تقريبا وحل محلها ما يسمى بالفقر الروحى أو الخواء الروحى وهو التعبير الذى يستعمله المؤرخ توينبى فى صيحته فى وجه الفكر الغربى « ان الخلاص من أزمة الانسان الحديث هو الدين » يقول : إن الأوربيين يعجبون لأن ما عندهم لم يعطهم شيئا وأن العطاء من مصدر واحد هو الدين » ونحن نقول : العطاء يصدر عن الدين الحق .

فان بعض الأديان التى عرفتها البشرية عليها تبعة ما انتهت بها إلى هذه الأزمة وأن الاسلام وحده هو الدين القادر على إعطاء البشرية حاجتها فى نفس الوقت الذى يقتدر فيه على استيعاب هذا التقدم العلمى والتكنولوجى ويوجهه وجهة إنسانية أخلاقية تضمن استمراره ونموه مع فطرة الانسان وفى إطار (الربانية) ويؤكد الباحثون على أن فصل الدين عن الفكر والمجتمع هو فناء محتوم للحضارة ، التى تندفع الآن إلى طريق الإسراف والبذخ .

(٦)

إن أخطر مايواجه النفس البشريه والإنسان هو ذلك النزاع الحادبين العقل والروح ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية خاضعه لقانون التوازن ، تقول مدرسة وليم جيمس « إن الخوف والبلبلة النفسية ومشكلة السلوك السيكوباتى ليست الا وليدة إنكار الفرد على غريزته الدينية حقها ووطيفتها وتجاهله لأهميتها والدور الذى تلعبه فى السلوك الإنسانى ونفوره من انماطها ورعايتها .

ولاريب أن محاولة إخضاع الإنسان إلى المناهج المادية والتجريبية هو الذى حمل البعض على القول بأن الإنسان ماهو إلاظاهرة من الظواهر العامة وأنه لابد خاضع فى حياته الفردية وفى حياته الإجتماعية إلى قوانين جبرية لامفر من سلطانها .

ويجىء فى مواجهة هذا منهج الإسلام القائم على حرية إرادة الإنسان التى هى موضع مسئوليته وجزائه ومن هنا يتكشف خطر المذاهب الماديه التى تقوم على الجبرية لأنها تحاول أن تقنع الانسان بأنه لايخضع للجزاء المترتب على البعث والنشور بعد الموت .

ومن هنا تجىء دعوة الإسلام إلى بناء (الإرادة) ذلك أن تربية قوة الارادة هى المبدأ الاساسى فى التربية الاخلاقيه ولا يستطيع الإنسان تطبيق الإلتزام الاخلاقى دون أن يملك قوة الارادة التى تتمثل فى أمرين (١) الشجاعة فى مواجهة الحياة وألوانها المختلفة من عسر ويسر (٢) الثبات على المبادىء التى يؤمن بها الإنسان والاستمرار فى تطبيقها مهما كلفه من العناء والمشقة .

وقد شاء الله أن يكون الانسان قوة مريدة فعالة فى هذا الكون فلا يؤمن الاسلام بالجبرية اللاهوتيه التى تقول أن الانسان ليست له إرادة وأنه مسير غير مخير ولايؤمن الاسلام بالجبرية المادية التى تقول أن الانسان ليست له إرادة وإنما الوسيلة المادية هى التى ترسم الطور الاقتصادى ثم الواقع الاجتماعى .

والمسئولية الفرديه تجعل المجرم مسئولا عن جريمته وذلك بخلاف ما تحاول

المذاهب المادية والعلوم الاجتماعيه أن تقول أن المجرم ضحية الأوضاع الفاسدة فهى تسقط من حسابها قدرة الفرد الفطرية على التمييز وقدرته الفطريه على ضبط تصرفاته وهى بذلك تعتبره مخلوقا سلبيا خالصا . والاسلام يرى وجود مسئولية المجتمع والبيئة ولكنه لا يلغى المسئولية الفردية على فاعل الجريمة .

والحرية الفردية فى الاسلام هى حرية مسئولة ومقيدة باستعمالها على الوجه الذى قامت الشريعة من أجله وهذا ينفى مشروعية استعمالها إذا ترتب عليها ضرر بالغير أو بمصلحة صاحبها بقطع النظر عن الغير من الفرد أو الجماعه .

(٧)

وهناك الخطأ فى فهم الانسان فهما مجزءاً : يقول الكسى كاريل فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) : « أننا فى الغرب لا نفهم الانسان ككل ، أننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتى هذه الأجزاء ابتدعت وسائلنا فصل واحد منا فيكون كموكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهوله . ذلك أن هناك مناطق محددة فى دنيانا الباطنيه مازالت غير معروفه »

وقول ذلك الطبيب حق ، وأن جهلنا بحقيقة الانسان شبيه بجهلنا بحقيقة الكون والحقيقتان لم يكشف عنهما غير الوحى ، وأصدق المعلومات فيهما هى ما أعطتنا إياها الأديان عنهما لأن وسائلنا الخاصة قاصره عن فهمها .

واليوم والعلوم الحديثه تذهب شرقا وغربا فى البحث عن كنه الانسان فانها عاجزة وقاصرة ومحدودة لأنها جعلت وسائلها مادية خالصة ، وقفت عند حدود العقل والتجربة ، فقصرت عن استكناه أعماق الانسان وهى نتاج علوم أخرى قدمها لنا الدين الحق .

لقد أثبت الانسان عجزه عن معرفة حقيقة ذاته ، ولقد أعفته رسالة السماء من هذا البحث المضنى الذى يعجز عنه بادواته القاصرة : عقله وتجربته فضلا عن هواه وتعصبه لجنسه واستعلائه بعنصره ، ولذلك فقد قدم الإسلام هذا

المفهوم متكاملا وواضحا (فى شان عالم الغيب والانسان والنشاة وما بعد الموت من حياة أخرى) .

وإذا كانت جميع التجارب التى أجراها الانسان فى سبيل وضع منهج حياة لنفسه قد أكدت فشلها بعد سنوات وسنوات تداخلت فيها الايدلوجيات بين الفردية والجماعية والمادية والوجودية ، فان ذلك من شأنه أن يؤكد لنا نحن المسلمين تلك الحقيقة الدامغة ، أن الانسان عاجز عن وضع منهج حياته الذاتيه بنفسه وأن الله تبارك وتعالى قد أغناه عن هذا الجهد الضائع لوضع له المنهج الملائم لفطرته وحياته وفق رسالته ووظيفته ودوره فى العمل فى الأرض .

ومن الحق أن يقال أن الانسان فى العصر الحديث بعد أن أزاح عنصر الدين من حياته واعتمد على نفسه فى البحث عن نفسه وتشامخ بالقول بانه لم يعد قاصراً وانه يستطع أن يعرف كل شىء عن الانسان ، فقد تدافعته المذاهب ولم يحقق له العلم مطامحه ، لأنه كلفه بما لايسطيع ، ولم يجد العقل نفسه قادراً لأن المطلوب أكبر منه .

لقد حاولت المذاهب التى دارت حول الإنسان أن تجعله مقطوع الصلة بكل الأجيال قبله ، وجرت بعضها على تفسيره عن طريق الجنس وجرى بعضها الاخر على تفسيره عن طريق الاقتصاد والانتاج وقالت مذاهب أخرى أنه لايوجد كيان ثابت للانسان لأنه حصيلة الظروف المتغيره وأن التغيير يشمل أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه .

ومعنى هذا كله فى مجموعه : إخضاع الانسان للجبرية الاجتماعية أو الحتمية التاريخية وكلها محاولات تعمد إلى إذلال الانسان وتشويه مكانته وإفساد حقيقته وإبطال دوره الأصيل .

فليس الانسان فى حقيقته خاضعا للقهر أو الجبريه أو الحتمية وإنما هو صاحب إرادة فاعلة هى جزء من إرادة الله ، تميز بها عن الحيوان ، ذلك أن للانسان كيان ثابت مرن قابل للتشكل وليس كما يحاولون تصويره دائم التشكل والتغير ففيه عناصر الثبات وفيه عناصر التغير ، وليس الانسان كيانا بيولوجيا ، أو كيانا

سيكولوجيا ولكنه صاحب روح ونفس مشبعه بكيانه المادى، أنه الانسان المزدوج الطبيعه المكون من (قبضة الطين ونفخه الروح) متحدين ممتزجين فيه سلبية وإيجابية وحب وكره، وواقع وخيال، حسى ومعنوى، وفردية وجماعية يجرى كله فى إطار (التوازن)

ولقد تتغير صورة الانسان على اختلاف البيئات والعصور ولكن جوهره لايتغير تتغير صورة الطعام والمسكن واللباس ولكن تظل نزعات الطعام والمسكن واللباس قائمة، إنما تتغير المظاهر والأساليب أما النزعات التى احتواها الانسان فهى ثابتة.

(٨)

وليس الانسان فى مفهوم الاسلام واحداً من المفاهيم الثلاثة التى عرفه بها الفكر البشرى:

(١) ليس حيوانا كما تقول العلوم الاجتماعية.

(٢) وليس آثما بحكم ولادته كما تقول بعض الأديان.

(٣) وليس مجبور التناسخ كما يقول البوذية والهندوكية.

بل هو مستخلف فى الأرض، ممتاز عن كل ماخلق الله فى الأرض، كرمه الله وفتح له آفاق الحياة وكنوز البحار والجبال والأنهار وحمله الأمانة والمسئولية أمانة استخلافه فى الأرض، ومسئوليته الحرة عن تصرفاته، وكشف له المنهج الذى يهديه والضوء الذى يسير فيه، متحررا عن الاهواء، عزوفا عن الدنيا، قادراً على إمتلاك إرادته، ساهراً على حراسة ثغوره مرابطا فيها فى مواجهه عدوه، قادراً على فطام نفسه عن الشهوات، صامداً محشوشنا إيمانا منه بان النعمة لاتدوم.

وقد أمده الاسلام بالايمان بحريته ذات المسئولية وارادته ذات الجزاء وامده

فى نفس الوقت بالايمان بالله بقوة دافعه للنضال والعمل فلا يخشى أحداً سواه فيثور على التواكل وينكر الجبر ويعتقد أنه مسئول وحر كما يعتقد أن الله سخر له ما فى السموات والأرض إذا قام بدوره قياما صحيحا .

(٩)

إن نظرية الجبر التى دعا إليها فلاسفة الغرب وأقاموا عليها مفاهيم العلوم الاجتماعية ثم نقلها إلى أفق الفكر الاسلامى بعض الذين يكتبون بالعربية من ذوى العقليات التابعه والفكر الوافد لاتجد عند المسلمين قبولا ولا تلقى من أصول فكرهم تقبلا .

الإسلام يرفض الجبر المطلق ويعتقد فى الحرية البشرية ، ولقد شاد مفكرو الإسلام مناراً عالياً من الايمان بالاختيار والحريه وتأكيد حرية الانسان فى أداء عمله ومسئولية آرائه .

والاسلام حين يؤمن بارادة الله العليا القادره التى وضعت نواميس الكون وسنن الطبيعه وقوانين الأمم والحضارات يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو صانع هذه القوانين والسنن وهو قادر على أن يخرقها ، وأن الأمر كله إليه وأن إرادته لاتتوقف على أن كل شىء فى هذه الحياة نتيجة لشىء قبله ، فهو الذى صنع ماقبل القبل وأنشأ هذا الكون من العدم ، وله الأمر كله .

وأما الانسان فقد أعطاه الله حرية عمله وجعلها مناط مسئوليته ، بما يترتب على هذه الحياة من بعث وجزاء فى الآخرة .

وإذا كان للزمن أو البيئة أو العادات أثر فى أعماله فانما يبقى هناك جانب الارادة الحرة .

هذا ويقرر الاسلام إن إرادة الله قائمة ودائمة على الانسان والكون جميعاً .

وكما يقرر الاسلام أن الفرد ليس من صنع المناخ أو البيئة أو العادات كذلك

يقرر أنه ليس ظاهرة اجتماعية فى وجوده المادى بل له كيانه الخاص الذاتى وله رابطته مع الجماعة فى نفس الوقت بحيث لاتقضى الجماعية على الذاتية ولا تسيطر الذاتيه وتستعلى دون أن ترتبط بالجماعة .

ولاريب أن نظرية الجبر المطلق تنطلق من مفهوم المادية الخالص .

(١٠)

يقرر الاسلام أن الفرد له فرديته المتصلة بارادته الحرة والتزامه الأخلاقى ومسئوليته الخاصة ثم له دوره كفرد فى إطار المجتمع وأن كلا الوظيفتين لاتقضى إحداهما على الأخرى .

ولذلك فان الاسلام يعنى ببناء الانسان الفرد أساسا ثم يبنى معه الأسره أولا قبل أن يبنى الجماعة التى لايمكن أن تقوم الا على أساس الحصن المنيع : حصن الأسره .

ومن هنا يبرز خطا دعوة هـدم الفردية فى سبيل الدعوة إلى الجماعة مع تخطى الاسرة التى هى الأساس الأول وسوء قصدها من هذه المحاولة فى اعلاء الجماعة وطحن الفرد ولاريب هدم الاسرة له هدف خطير هو هدم الفرد وهدم الاسرة دون أن تكون هناك جماعة ما فى النهاية والبناء الاسلامى إنما يقوم على لبنات قوية فى تكوينها الداخلى من خلال بناء الانسان الفرد ثم بناء الاسره وصولا إلى بنـاء الجماعة التى لايكون فيها الفرد نتاجا ولاظاهرة ولا ترسا فى الآلة .

فقد حرص الاسلام على بناء الانسان الممتاز بتربيته وتـكوينه من خلال الصلاة والصوم والزكاة وطاعة الله ورسم القرآن أروع صورة لهذا النموذج ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة الأسوه الحسنة والقدرة العليا فى مجال بناء الفرد المسلم .

غير أن الاسلام لم يذهب مذهب الفردية المنرقة ، كما أنه لم يذهب مذهب

الجماعية التي يفنى فيها الفرد في المجتمع ، بل وازن بين الفردية والجماعية وربط بينهما برباط وثيق ودفعهما إلى هـدف واضح في ضوء كلمة الله وعلى طريقه وإلى الهدف الذي رسمه تبارك وتعالى للإنسان في هذه الحياة .

(١١)

وأقام الإسلام «منهج التكامل» : تكامل العقل والروح بين الدنيا والآخرة ، فالإنسان روح وجسد ولا يمكن تفسيره من جانب واحد ، كما لا يفسر تفسيراً أساسه الطعام والجنس ، وإذا كانت المناهج الوافدة قد نقلت لنا نظريات دوركايم في الجبر المطلق وطحن الفرد في نطاق الجماعة ، ونقلت لنا نظريات فرويد في اعتبار الجنس أساس تصرف الفرد ، فلماذا لم تعن بأن تنقل لنا الوجه الآخر ، هـذا مفهوم الفيلسوف في الإنسان وهو مفهوم يقوم على أساس الافتراض والتجارب التي أجريت على المرضى لا على الأصحاء .

فلماذا لم ينقل لنا مفهوم الطبيب في الإنسان : في مثل رأى الكسى كاريل الذي يقول : « الإنسان كل لا يتجزأ وهو في غاية التعقيد ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له . وليس هناك طريقة لفهمه في مجموعه ، أو في أجزائه في وقت واحد ، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي ، وانه لكي نحلل أنفسنا نحن في حاجة إلى الاستعانة بفنون مختلفة وإلى استخدام علوم عديدة ومن الطبيعي أن تصل كل هـذه العلوم إلى رأى مختلف في غايتها المشتركة فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط وبعد أن تضاف هـذه المستخلصات بعضها إلى بعض فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة » .

وإذا كان هذا القول صحيحاً وهو صحيح ، فكيف يستطيع دوركايم وماركس ورينان وأوجست كونت وفرويد وغـيرهم أن يقرروا مصير الإنسان وهم لا يملكون أي أداة من أدوات هذا البحث غـير (منطق الفلسفة المادية) الذي ينكر جوانب الإنسان الروحية والنفسية ويرده جميعاً إلى التفسير البيولوجي أو المادي أو الجنسي .

ويحاول أن يقدم لنا اليكسى كاريل بعض مواصفات هذا الإنسان الذى تحاول أن تحكمه الفلسفة وتسيطر عليه الأيدلوجية التلمودية بجبريتها وماديتها فيقول :

إن الإنسان هو أشياء كثيرة :

(أولا) : هو الجثة التى شرحها البيولوجيون علماء الحياة .

(ثانياً) : هو الشعور الذى لاحظه علماء النفس وكبار معلمى الحياة الروحية.

(ثالثاً) : هو الشخصية التى أظهر التأمل الباطنى لكل إنسان انها كامنة فى أعماق ذاته .

(رابعاً) : هو المواد الكيماوية التى تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا .

(خامساً) : تلك الجمهرة المدهشة من الخلايا والعصارات المغذية .

(سادساً) : ذلك المركب من الأنسجة والشعور .

ثم يقول : ان التشريح والكيماء والفسيولوجيا وعلم النفس والبيداجوجيا (علم التربية) والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسى : كلها لا تلم بجوانب موضوع الإنسان » .

فإذا كان الإنسان على هذا النحو فى مفهوم العلم ، فلماذا تحاول الفلسفة أن تزيف الحقائق وان تصور الإنسان على أنه مادة فقط وعلى انه حيوان وتحاول أن تحاكمه على انه رغبة جنس أو لقمة عيش بينما هو كل هذا الكيان الضخم المتكامل الجامع الذى لا يستطيع العلم أن يلم به .

وهذه الحقائق التى تجمع بين الناحية المادية والناحية الروحية فى الإنسان والتى لم يصل العلم إليها بعد، قد قررها الإسلام وكشف عنها منذ أربعة عشر قرناً حتى لقد لفتت أنظار كل الذين دخلوا فى الإسلام من أصحاب الأديان الأخرى .

* * *

ومن هنا فإن النظرة التى تقدمها (العلوم الاجتماعية) للإنسان على انه جسد ومادة ، ومحاولة تطبيق مناهج العلوم المادية أو النظريات التى طبقت على الحيوان عليه تجعل الباحث عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة .

فالعقل البشرى ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شىء : وقدرته محدودة بعالم المحسوس ، ولذلك فإنه لابد من علم آخر لمعرفة عالم الغيب ، هذا العلم هو الوحى الذى جاء برسالات السماء ، ونظرة الإسلام وهو خاتم الأديان ، هى النظرة المتكاملة الجامعة وقد قطع الاسلام بالرأى فى كل الشبهات التى اثارها الفكرى البشرى من خلال رسالات الأديان ليدحض بها الحق ويدفع البشرية إلى أهوائها .

قطع الإسلام بالقول بخطأ التعارض بين الروح والجسد وأبان عن تكاملهما وعن التوازن القائم بينهما ، وأنكر النظريتين اللتين ذهبت إحداهما : إلى احتقار الجسد وإهمال الحياة المادية ، والثانية : التى ذهبت إلى تقديس الجسد وإهمال الحياة الروحية .

وفى مفهوم الإسلام أن الجسد ليس سجناً للروح وليس إطلاق الجسد هو مفهوم حريته ، بل ان الروح والجسد كلاهما مرتبط فى الإنسان فى إتجاه واحد ، ولا ريب ان الهدف من الإلحاح على هذه النظرية الباطلة هو تدمير الإنسان بإقامة التضارب فى داخله وخلق الصراع فى أعماقه وان يكون هذا المفهوم سائغاً إلا عند الماديين الذين أنكروا الروح إنكاراً تاماً .

لقد أعطى الإسلام أهمية كبرى للقوة المادية التى أهملتها بعض الأديان وقللت من شأنها وأنكر على النحل التى تحرم على أتباعها اقتناء المال وتحثهم على اعتزال الناس وأبان كيف أنها بذلك قد سلبتهم واقع الحياة ووسيلة القوة وعوقتهم عن مكارم الأخلاق .

وفى نفس الوقت أعطى أهمية لجانب الروح وترقيتها وكشف عن جوهر

مفهومه الواضح (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا) وبذلك اعلن ان القوة ماديه وروحيه ليست شراً أو خيراً فى ذاتها بل فى طريقة استعمال الإنسان لها ويتحدد أثرها بالهدف الذى تستخدمه وهو هدف وحيد يرمى إلى إسعاد الناس وتقدمهم وليس استعباد الناس واشقائهم .

وأعلن الإسلام أن التكاليف هدفها تقوية الإرادة وتربية العزيمة وكبح جماح الغريزة .

وقد أوجز الإسلام ذلك كله فى كلمات قليلة : هى أن للإنسان رسالة فى هذه الحياة وإدارته العمل وهدف العمل عمارة الأرض وحدود العمل : التقوى بحيث يكون العمل عمل المستخلف لا المالك وأن يكون العمل كله لحساب الله تعالى .

(١٣)

ولما كان الانسان واقعاً تحت خطر إطلاق العنان لنزواته ورغباته فقد جاءت الشريعة لتضع الضوابط التى تحول بينه وبين تحطيم نفسه وتحول وبينه وبين الاعتداء على حقوق الآخرين .

ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى ضبط الرغبات وردها إلى الاعتدال وإدارتها داخل إطار مشروع .

وقد وصل إلى هذا المعنى كثير ممن فهموا الاسلام وبحثوه من غير العرب ، يقول ليوبولد فايس الذى أسلم بعد أن كان يهودياً وتسمى باسم (محمد أسد) :

« نجد الاسلام وحده من بين الأديان يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحى دقيقة واحدة ، ذلك انه ليس فى الاسلام خطيئة أصلية موروثة وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية . إن كل مسلم رهين بما يكسب ، والاسلام ينظر إلى الحياة فى هدوء واحترام ولكنه لا يعبدها ، ان النجاح المادى مرغوب فيه ولكن ليس غاية فى نفسه ،

بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية فى كل ما يعمل والغاية من جميع نشاطنا العملى أن يكون خلقياً »

(١٤)

إن محاولة القول بان الانسان اصبح راشداً وليس فى حاجة إلى توجيه الهى هومن الآراء الزائفةوالشبهات الباطلة، ذلك أنه إذا كان الانسان فىحاجةإلى هذا التوجيه فى القديم فما الذى جد عليه من معطيات جعلته مستغنياً عن ذلك التوجيه فى الحاضر . هل هى معطيات العلم المادى والتكنولوجيا وهى فى مجموعها لاتتصل بالنفس الانسانية بل لعلها قد أقامت حجابا إزداد كثافة حول مفاهيم الإيمان والروح .

إن الحقيقة التى لا شبهة فيهاهى: ان الانسان فى حاجة دائمة إلى توجيه الهى ، وأن طبيعته قائمة على هذا الأساس ، وهى طبيعة لا تتخلف ، فالانسان خلق هلوعا إذا مسه ضر لجأ إلى الله فاذا خوله نعمة نسى وقال إنما أوتيته على علم وهذه الطبيعة ثابتة على هذا النحو لا تختلف فالطبيعة البشرية فى حاجة دائمة إلى موقظ وهو القرآن ، وان علاج الطبيعة الانسانية وتقويمها لا يتحقق إلا بالإيمان بالله ودوام الاتصال به .

ان اعتماد الانسان على العقل البشرى ليس كاف وحده لا فى تقديم المعرفة الحقة ولا فى بناء اليقين والطمانينة النفسية ، ان هناك أداة أخرى إلى جوار العقل هى جماع الايمان بالله وعالم الغيب واليوم الآخر والمسئولية الفردية والجزاء ، ولما كانت العين وهى جهاز الابصار لا تعطينا كل المعلومات ، كذلك فإن العقل لا يستطيع أن يعطينا الصورة الكاملة إلا إذا دعم بالوحى .

والإنسان فى حاجة إلى أن يعرف مهمته فى هذه الحياة ورسالته وأمانته ، وانه خلق لمسئولية كبرى خلال فترة من الزمن من بين برزخين : برزخ العدم وبرزخ الموت ، وأن هذه الحياة لا يمكن أن تكون نهاية الأشياء لأنها لم تستكمل بعد عملية المحاكمة والمواجهة والتصحيح ولم يتم بعد تقديم الحلول النهائية للقضايا

المتشابكة التى اثارها الطواغيت حين حاولوا أن يخدعوا الناس بتفسيرات وإجابات ومناهج تتعارض مع مفهوم الدين الحق . ولابد لصاحب هـذا الدين أن يبين للناس حقيقة ما فسروا وما عملوا وما أخطأوا وذلك كله يقتضى بالضرورة ، إعادة الناس إلى الحياة ، وكشف الحقائق أمامهم كاملة وتقرير جزائهم وثوابهم وعقابهم فى يوم الفصل الذى تشيب لهوله الولدان .

(١٥)

إن بنـاء الإنسان هو من اعظم معطيات الإسلام : من حيث تـكريمه وترقيته ودفعه إلى تحقيق الرسالة المنوطة به وتذليل العقبات فى طريقه ، والنظرة الاسلامية إلى الإنسان نظرة شاملة جامعة ، لا يغيرها إختلاف دينه أو لونه أو جنسه أو وضعه فى المجتمع .

وقد أقر الإسلام للإنسان حق الحياة فالله هو الذى وهب الحياة للانسان فمن حق كل فرد أن يعيش ويستمتع بحياته بغير خطر يهدده . وليس من حق الإنسان إنهاء حياته فانهاء الحياة يجب الا يكون إلا لله وحرم الإسلام فى هـذا قتل النفس وقتل الأبناء خشية الفقر ووأد البنات خوفاً من العار (حسب مفاهيم الجاهلية) وأكد انه تبارك وتعالى يرزق الأبناء والآباء وكذلك كرم المرأة ووضعها فى صف الرجل وأنـكر الاهتمام البالغ بالأولاد دون البنات .

وأعطى الإسلام الإنسان حق الحرية وجعله مرتبطاً بحق الحياة .

وجعل للانسان حقـه فى إرادته وتصرفاته حيث لا تناقض بين القول بحرية الانسان فى الاختيار والفعل وبين القدرة الالهية وإرادة الله ، كما حرم المثلة بالانسان عند قتله . ولم يأذن بعقوبة الاعدام للانسان إلا فى جريمة واحدة هى جريمة القتل العمد ومع ذلك فقد جعل القرآن لولى المقتول سلطاناً فلا يسرف فى القتل بينما كانت عقوبة الاعدام فى حكم البشرية ان نزول الاسلام تنزل لجملة أسباب منها السرقة والزنا والكذب .

وأنكر الاسلام المثلة ولو بالكلب العقور .

وأعطى الاسلام للانسان حق الاعتقاد والحرية بأنواعها العلمية والسياسية والمدنية والاجتماعية . وقرر حق المساواة على نحو ما تعرفه الحضارات السابقة له .

تقول ماسينيون: « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة فللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها « وليس فى مجتمع آخر مثل ما للاسلام من ماض كله النجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة والحقوق والواجبات » . والمساواة فى الاسلام مبدأ اساسى وحق طبيعى للانسان لا نزاع فيه وهو مردود فى الاسلام إلى فكرة الخلق .

فالله هو الذى خلق الناس جميعاً ومن ثم فهم جميعاً سواء بالنسبة لله لا فرق بين أحد منهم إلا بالعمل الصالح والتقوى .

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وهذا المعنى الذى أوضحه الرسول فى قوله : «ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى أو لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر من فضل إلا بالتقوى » .

يقول إقبال : ان الاسلام حطم أصنام الدم واللون والجنس .

ويقول (دين انج) . استطاع الاسلام التغلب على التعصب الجنسى بدرجة لم يبلغها أى دين آخر أو عقيدة أخرى .

ويقول توينبى : إن إخماد جذوة التعصب الجنسى والنعرة العنصرية بين المسلمين هى من أهم منجزات الاسلام الحضارية .

ولا ريب ان مقررات لوك ورسو وميل وكندرسيه وجيفرسون والاعلام

العالمى لحقوق الانسان كلها استمدت مضامينها من معطيات الأسلام ، غير ان مفهوم الاسلام لحرية الانسان قد صيغ فى إطار محكم ، ولم تستطع الفلسفات السياسية والاجتماعية أن تصل إليه أو أن تحققه ، ذاك ان هذه الفلسفات لايمكنها أن ترتفع إلى معنى المساواة فى الحقوق فيما أعطى الاسلام من حق العدالة: وهو مفهوم التسوية بين الناس جميعاً أمام الله والقانون لا فرق بين حاكم ومحكوم وغنى وفقير

(فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وفى هذا يقول الرسول الكريم : « إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وهذا ما عجزت عنه المجتمعات الغربية وما تزال عنه عاجزة .

وإلى جانب ذاك أعطى الاسلام حق الإخاء وحق العلم وحق الملكية وحق العمل . وقد أقام الاسلام إلى ذلك معطيات الرحمة والعفو والتسامح والبر والعفو والاحسان وجعل «الصبر» من أهم الفضائل الايجابية التى تشدعزم الانسان أمام الشدائد والمصائب (وقد ذكر فى القرآن أكثر من مائة مرة) ودعا الاسلام إلى تزكية النفس : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ، وجعل أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتصفح عمن ظلمك .

وجعل البر بالوالدين ملاك الأمر كله ، وكذلك البر بالأهل وحرص على تأكيد حق الأم فى حسن الصحبة .

ودعا إلى الوفاء ، وإلى رد التحية بأحسن منها ودعا إلى الاستئذان فى الدخول إلى البيوت ويسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير وأكد حق الجار وحق الرحم .

وملاك الأمر كله : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

يقول دكتور أحمد فؤاد الأهوانى : لقـد كان الاسلام حريصاً على تحقيق المصلحة العامة للمجتمع مع الاحتفاظ بفردية كل فرد فى الوقت نفسه ، والمحافظة على هذا التوازن .

ويضرب المثل بالعلاقة بين المجتمع والفرد بالجماعة الذين ركبوا سفينة فى عرض البحر ثم هم واحد منهم بخرقها فإن تركوه يعبث بالسفينة غرقوا وان وقفوا فى سبيله انقذوا .

ومعنى هذا أن الفرد ليس حراً فى أن يفعل ما يشاء ولـكنه مقيد فليست الفردية فى الاسلام ملازمة للفوضى وإنما مقيدة بقيود شديدة .

وتتأكد فردية الانسان فى ولادته وفى كسبه وعمله وفى موته وفى حسابه فالعبادات مفروضة على كل فرد على حدة ، وكل فرد فى شأن علاقته بالله له مسئوليته وحريته وجزاؤه وكيانه الخاص ، ويحاول الاسلام ألا يعزل الفرد عن غيره ، بل يسعى إلى تاكيد الصلة بين الأفراد بحيث تتلاشى الفردية وتسود النزعة الاجتماعية .

وتتجلى الفردية فى المحراب والجماعية فى الشارع ، كما تتأكـد فى الزواج والأسرة والأهل ، والاسلام يطالب الفرد بان يؤثر غيره على نفسه فالايثار نزعة إسلامية أصيلة . والاسلام دين إيثار لا أثره .

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وقد أقام الاسلام علاقة الرحمة بين الأباء والأبناء وقيد تعـدد الزوجات بالعدل بينهن .

وأقام الاسلام التوازن : بين الفرد والجماعة فجعل الفرد فى خدمة الجماعة والجماعة فى خدمة الفرد .

(١٧)

يقول الأستاذ محمد قطب : ان الطبيعة الانسانية ليست خيراً محضاً ولا شراً محضاً بل هى شىء خال من هذا وذاك وهى قابلة لأن تكون شريرة وأن تكون خيرة فقد خلق الله فى الانسان الاستعداد للخير والشر معا .

(وهديناه النجدين) و (ونفس وما سواها. فالهمها فجورها وتقواها) .

وكل مولود يولد على الفطرة : أى ان الانسان يولد خاليا من أى اعتقاد أو أى مسلك ، فابواه هما اللذان يجعلانه يعتقد هذا أو ذاك ويسلك هذا المسلك الخير أو ذاك المسلك الشرير (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) والتزكية هى التربية التى تطبع الانسان بطابع الخير .

والطبيعة الانسانية مرنة قابلة للتشكيل باشكال مختلفة وتكوين عادات جديدة وإزالة عادات قديمة وسهولة ذلك وصعوبته يختلف حسب عمر الانسان وحسب قابليته وحسب نوع وأساليب التغيير والتبديل .

ومن حقائق الطبيعة الإنسانية الفروق الفردية بين الذكور والإناث من جهة وبين أفراد الجنس الآخر من جهة أخرى : وهى فروق فى الإحساس والقدرات العقلية والميول .

والطبيعة الإنسانية جامعة (بيولوجية وسيكولوجية معا) أى مركبة من العنصرين المادى والنفسى والصلة بينهما وثيقة للغاية ، فهى ليست شيئا واحداً ولكنها شيئان متلائمان ملتقيان يتبادلان التاثير والتاثر .

(١٨)

تقول الدكتورة بنت الشاطىء : ان اقسى مايواجه البشريه اليوم ومايازمها هو خروجها على الفطرة واندفاعها فى التيار المضاد المعاكس لاتجاهها وهداها فكل ما نراه من غربة ومن تمزق ومن اضطراب فانما يرجع مصدره إلى هذا :

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) . والقضية هى قضية الانسان والأمانة وهى تبعة التكليف وحرية الإرادة ومسئولية الاختيار التى حملها الانسان تحقيقا لذاته وممارسة لخلافته فى الأرض .

وقد أقر الإسلام حرية الإنسان فى الاعتقاد والتدين إلزاما له بمسئولية اختياره . ترك الله للانسان أن يتحمل هذه المسئولية وتبعاتها وقد تهيأت له وسائل التحضير والهدى : مادية ومعنوية .

وحرية الإرادة هى عنصر جوهرى من كل لايجزا : هو الحرية الكاملة للانسان وشرط التكليف الاختيار إذ كيف يتحمل الانسان الرشيد تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذى هو شرطه .

ومفهوم الارادة حين تكون من الله الخالق: حكما وقضاءاً .

ومفهوم الارادة حين تكون من المخلوقين : رغبة واختياراً وعزما .

الرغبة من الإنسان والعزم من الله .

ومفهوم إرادة المخلوق غير مفهوم إرادة الخالق .

إرادتنا كسبية مصحوبة بعزم مسبوق برغبة وتفكير ، وإنما نفهم إرادة الله فى القرآن كله على أنها حكم نافذ وقضاء مبرم وليست كارادتنا عزما على أمر أو سعيا وراء مراد فالعزم لنا وحدنا ما بقينا فى الدنيا والارادة الكسبية إرادتنا وبهذه الإرادة الكسبية نختار لأنفسنا مانختارمتحملين مسئولية هذا الاختيار الحر . أما الارادة الالهية فحكم نافذ ومصير محتوم وإذا كان الله سبحانه يحكم علينا بما نريد لأنفسنا فليس ذلك إلا تقريرا حاسما للتبعة وتأكيداً الهيا لحرية إرادتنا وإلزاما لنا بمسئوليتها .

* * *

(١٩)

يقول الدكتور محمد البهى :

أن الحرية الفردية المكتسبة التى يدعو إليها الاسلام ، هى الحرية التى تجعل الانسان إنسانا لا يسقط إلى محل الحيوان، وليست الحرية هى أن يترك الانسان لغريزته يمارس شهواته . بل هى أن يتحرر من هواه فاذا تحرر من هواه كان قوله صدقا وكان رأيه حرآ، فالحرية هى أن يرتفع بعقله عن هواه وعن شهواته .

(٢٠)

إن الهدف الذى تقصد إليه مدرسة العلوم الاجتماعية هى حل عقدة الفكر الجامع الأمة بهدم الأسرة ومسخ الفردية وإقامة علاقة غير فطرية هى علاقة المجتمع من غير طريقه الطبيعى الذى قرره الاسلام وهو بناء الانسان وحماية الفردية وبناء الأسرة وتعزيز قاعدتها الصلبة وصولا إلى بناء المجتمع نفسه .

هذا الهدف هو أن يتحرر كل فرد عن روابط الجماعة والعقيدة والأسرة جميعا ويذهب منطلقا بغير حدود ، له مثله ، وفكره ، وطريقته ، وفهمه ، وبذلك تتحطم الفكرة الجامعة التى أقامتها وحدة العقيدة والأخلاق والثقافة من خلال الأسرة .

ومن هنا يصبح كل إنسان وله مذهب ودعوة ونحلة ومنهج وطريق ، وبذلك يتحطم بناء الجماعة أساساً وينفصل عن قاعدته الأصلية. ان الهدف هو حل رابطة وحدة الفكر الجامعة ووحدة الجماعة القائمة على بناء الأسرة .

وفى هذا يقول أريك فروم فى كتابه أزمة الانسان الحديث . أن الأزمة هى الانفصال داخل الذات ، وأن الانسان لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا إذا بقى متصلا بحقائق وجوده الأساسية .

ذلك أن الفصل بين المرء وعمله ونفسه ، يوجد الملل مما يؤدى إلى الانتحار أحيانا حتى يتخفف المنتحر من أعباء الحياة .

(٢١)

إن سؤال الانسان وقد وصل العلم إلى قمة معطياته :

ماذا أمكن أن يقدم العلم للسلام النفسى للانسان ، الطمأنينة ، اليقين ، للثقة ؟ فلا يجد شيئا إنما يجد كل ماأمامه وكأنه عوامل لهدم عقدة المادية والمعنوية الأصيلة فى كيانه .

إن الاستعلاء المادى فكرا وحضارة قد صدع النفس الانسانية وفرق كيان الانسان وأنشأ عقدة إنفصام فى الشخصية :

ولقد عجز العلم عن حل هذه المشكلة وعجزت الفلسفة التى تسوق البشرية تحت اسم « العلوم الاجتماعية » إلى التدمير الكامل .

إن الدين والدين الحق وحده هو الضوء الكاشف للنفس الانسانية وهذا لن تجده البشرية إلا فى الاسلام ، أما كل هذه المحاولات التى ترمى إلى احلال بديل للدين من أيدلوجيات وفلسفات فسوف تعجز ، وسوف تحطم النفس البشرية وتمزقها .

لقد وصل الانسان بعد التجربة المريرة وبعد أن اكتشف من أسرار الكون ما اكتشف إلى حقيقة خطيرة وأليمة ومرة : هو أنه لا يستطيع أن يعيش فى فراغ من العقيدة وكل النظم مهددة بالخطر إذا ظلت تتجاهل الحقيقة : أن الخطر كله فى كلمة واحدة زائفة شديدة الزيف هى المادية وأن الحقيقة كلها هى كلمة واحدة صادقة مضيئة أن الانسان ليس مادة فحسب .

ولقد جاء الاسلام ليحمى النفس الانسانية من التمزق وتحفظ شخصية الانسان من الخروج عن الفطرة .

إن حاجة الإنسان الروحية لم تشبع بعد أن أشبعت حاجته المادية على نحو طغى على كل شيء . ليست حاجة الإنسان هي الطعام والجنس وحدها ، إن للنفس الانسانية بفطرتها وبطبيعة تركيبها أشواق روحية حطمتها الفلسفة ومفاهيم العلوم الاجتماعية وسحقتها ودمرتها تدميرا .

إن الانسان في كل زمان ومكان في حاجة إلى ذلك الضوء الكاشف الذي يحميه ويحول بينه وبين تدمير نفسه والتردي في مهاوي الشقاء ، ذلك هو نور الله الذي جاء عن طريق الدين الحق : الذي يوائم له بين جسمه ونفسه ، بين ماديته وروحه ، والذي يضع له الضوابط في الأساس والاطار في الحركة والشريعة المثلى بما يدفعه إلى الامام ثم يقوم حارساً له حتى لا يطغى ولا يستبد ولا يظلم ولا يفسد طبيعته .

وذلك كله هو عطاء الدين ، الدين الحق ، عطاء الاسلام .



الفصل الثانى

الالتزام الأخلاقى فى مواجهة نظرية نسبية الأخلاق *

(١)

نحن المسلمون نؤمن أساساً بأن الدين فطرة وأن الأخلاق شريحة من شرائح الدين وشرعه من شرائعه تقوم به وتستمد منه ولا تنفصل عنه وهى من الأصول الثابتة التى لاتتغير بتغير الزمان أو المكان .

والأخلاق على هذا النحو تختلف عن العادات والتقاليد التى هى من صنع المجتمع نفسه . فالأخلاق ثابتة مرتبطة بالانسان نفسه وبفطرته التى فطره الله عليها والتى لاتتبدل ولا تتغير ، والعادات والتقاليد متغيرة لأنها من صنع المجتمع نفسه والتى قد تكون مضادة لمفهوم الدين نفسه أو معارضة له ،فضلا عن جمودها بمرور الأزمان وفسادها وتخلفها عن روح العصر .

ولما كان الاسلام وهو الدين الحق الذى قام على دعائم العقيدة والشريعة والأخلاق دون فصل بينها قد أقام منهجا أخلاقيا لبناء الانسان فإنه قد عمد الى أحكام هذا المنهج على النحو الذى جعله مرناً واسع الأفق قابلا لضرورات التغيير والتحول والتطور التى تتأثر بها المجتمعات ولم يجعله جامداً ولا مناهضا للطبيعة البشرية أو معارضا للفطرة الانسانية ، غير أنه فى كل الأحوال ربط هذا المنهج بالانسان فجعل له طابع الثبات ولم يربطه بالعصور أو البيئات حتى لايتحول مع الأهواء وتتصدع قوائمه إزاء الأحداث .

ومن هنا فإن الفرق بين مفهوم الأخلاق فى الاسلام ، ومفهومها فى الفكر الغربى يرجع الى نقطة واحدة : هى وجود أو إنكار الدين المنزل من عند الله

على البشرية بالتزاماته وضوابطه ومفاهيمه. ومن هذه النقطة بالذات يقع الخلاف بين المنهجين: المنهج الاسلامى والمنهج الغربى. أما المنهج الاسلامى فهو قائم أساسا على عناصر الثبات الواسعة المرنة القادرة على استيعاب تغيرات المجتمعات والعصور والتجاوب معها دون أن تتعارض إلا فى الأصول العامة التى هى مرتبطة بالانسان نفسه وبالحدود والضوابط الأساسية التى لاسبيل إلى تجاوزها. وفى مقدمتها قاعدة «الالزام الأساسية» أما المنهج الغربى الذى يطرح نفسه بقوة فى أفق الفكر الاسلامى من خلال مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية والنفسية وغيرها فإنه يقوم على أساس المشيئة الخاصة بالقبول أو الرفض للالتزام الخلقى. أما الاسلام فإنه يلزم بهذه المسئولية ويقيم قاعدته الأخلاقية عليها أساسا ولايقبل أى محاولة للتفسير أو التاويل فيها:

١ - ترابط كامل بين الأخلاق وأصول الدين، فالدين أصل والأخلاق فرع.

٢ - ثبات القيم الاخلاقية الأساسية مرتبطة أساساً بالانسان والفطرة البشرية.

٣ - الالزام.

وفى ضوء هذه الأصول يواجه الفكر الاسلامى مفاهيم الأخلاق التى يطرحها الفكر الغربى، وخاصة آخر تطوراتها المتمثلة فى مدرسة العلوم الاجتماعية التى تختلف أساساً فى النقاط التالية:

(أولا) المفهوم المادى القائم على إنكار الوحى والنبوة وربانية القيم الأخلاقية.

(ثانيا) نسبية الأخلاق وتغيرها من زمن إلى زمن.

(ثالثاً) اختيارية العمل بالقيم الأخلاقية دون الالتزام الكامل بها فالخلاف هنا واضح وظاهر: ثبات فى مواجهة نسبية، والتزام فى مواجهة اختيار، وترابط بين الأخلاق والدين فى مواجهة انفصال بين الدين والأخلاق.

* * *

(٢)

عندما انفصل الفكر الأوربي عن (المسيحية) بمفهومها الغربي أقام منهجاً أخلاقيا مستقلا عن الدين وقد اعتبر في أول أمره فرع من الفلسفة يبحث في المقاييس التي يميز بها بين الخير والشر في سلوك الإنسان .

واصطلح على أن مفهوم الأخلاق هو دراسة الخير الأقصى والأسمى للإنسان باعتباره غاية لذاته . وسمي القانون الخلقي بالواجب وتضمن هذا العلم البحث في مقومات الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

ولما ظهر مذهب التطور تأثرت به جميع الدراسات والأبحاث الاجتماعية والأخلاقية والنفسيه . ولما كان التطوير هو مجرد نظرية بيلوجية فان بعض الفلاسفة افترض انسحابها على الأبحاث الإنسانية وسيطر على الفكر الغربي منذ ذلك الوقت القول بأن كل شيء يتطور ولا يوجد شيء ثابت .

ثم كانت تلك الحملة على الأخلاق المسيحية ووصفها بانها أخلاق الضعف أو أخلاق العبيد . وكان من رأى نيتشه أن الفلسفة المسيحية متضافرة إلى اقتلاع الحياة من جذورها واحلال إرادة (إماتة الحياة) محل إرادة الحياة . ومن هنا كانت مقاومة نيتشة للمبادىء الأخلاقية الزاهدة الداعية إلى الهرب من الحياة ، والدعوة إلى أخلاق الأقوياء التي هي أخلاق السيادة ، هذه الأخلاق التي لا تعرف الرحمة بالضعفاء والتي تقضي باستئصالهم من المجتمع وبقاء الأقوياء . ومن خلال كل هذه التيارات جرت الدعوة إلى تحرير الأخلاق من تبعيتها الدين أو على الأقل أبعادها عما يتصل بتعاليم الكنيسة [1] ويرى بعض الباحثين أن الدعاة الجدد لم يفعلوا أكثر من استبدال تبعية بتبعية أخرى فقد حطموا اللاهوت كأساس للاخلاق وأقاموا بدلا منه أساسا جديداً هو علم الحياة (أي التطور البيولوجي)

ولا ريب أن هذا المفهوم كله متصل أساساً بالفكر الغربي وبالتحديات التي فرضتها عليه أرضيته الفكرية الأغريقية الوثنية في تقابلها مع تفسيرات المسيحية

---

(١) كتاب التطــور ــ السـيد محمد بدوى .

على النحو الذى وصل إليها والذى بدت فيه الصورة الدينية أو الأخلاقية قائمة على أساس الانسحاب من الحياة وإلى استثمراه الزهادة الرهبانية ونفض اليد من العمل ومن تحقيق إرادة الله فى الأرض بالعمارة والبناء.

ولعل هذا يرجع إلى خطأ تفسيرات الشراح المسيحية بالإضافة إلى العجز عن تقدير مكان الرسالة التى أنزلت على السيد المسيح وهى رسالة مكملة لرسالة سيدنا موسى وليست منفصلة عنها ولذلك فانها كانت فى مجموعها جملة من الوصايا التى استهدفت تصحيح خطأ وتحرير الدين الموسوى فيما يتعلق باستعلاء الجانب المادى والعمل على إعادة الطابع الروحى المتكامل مع الجانب المادى أساساً إلى مكانه الصحيح.

فلما انفصلت المسيحية واستقلت ووصفها رجالها الذين بشروا بها وعبروا بها إلى أوربا بانها ديانة عامة وعالمية وكاملة، ولم تستطع وهى ليست بذات شريعة أن تحقق ارضاء النفس البشرية فضلا عن تحول مفاهيمها إلى لون من الجبرية الانسحابية من الحياة.

كل ذلك كان مصدر الصراع القوى بين الدين والعلم، أو بين رجال الدين ورجال العلم مما دفع العلم وهو المسيطر أن يقضى الدين نهائيا عن مجال التوجيه وأن يستحدث مفاهيم جديدة كالديانة البشرية التى دعا إليها أوجست كونت، ومن هنا كانت هناك الدعوة الملحة إلى بناء فلسفة أخلاقية تقوم على أساس الواجب ولا تستمد مفاهيمها من الدين - أى الدين الغربى.

ومن هنا فقد قامت أزمة ضخمة فى الفكر الغربى فى هذا المجال فصلت بين الدين والأخلاق وأقامت للاخلاق منهجاً خاصا خضع فيه لمفاهيم التطور والمفاهيم الأخلاقية المليئية.

ولا ريب أن هذه القضية بجملتها غير واردة ولا مطروحة فى أفق الفكر الإسلامى الذى استمد كيانه من الإسلام، الدين المتكامل الجامع للشريعة والعقيدة والأخلاق والقائم فى ذلك كله على أرضية واسعة وإطار مرن وأفق مفتوح وحيث لم يقع التصادم ولن يقع مطلقاً بين العلم والدين أو الأخلاق والعقيدة.

ومن هنا فإن طرح القضية فى أفق فكرنا لا يمثل إلا مجرد دراسة تاريخية لحركة الأديان فى العالم والفكر البشرى .

وفى ظل هـذا الاتجاه كانت فلسفة المنفعة تسيطر بشكل واضح على أفق الفكر الغربى وتصبغ كل شىء بلونها فلا تترك مجالا لمفاهيم الرحمة أو الانفاق أو التضحية بالنفس أو العطاء غير المقيد ، ولم تلبث المنفعة أن أصبحت الغاية القصوى للاخلاق الغربية .

ومن هنا بدأت المعارك حول العلاقة بين الأخلاق فى ظل التطور والأخلاق فى ظل الدين وارتفعت الأصوات بان القانون الأخلاقى فى المسيحية يتعارض تماماً مع القانون الأخلاقى الذى يفرضه التطور .

وعارض عدد من علماء التاريخ الطبيعى أن يكون التطور مصدراً للاخلاق وفى مقدمتهم : الدكتور ماتيوز الذى قال : انه لخطأ يفضى إلى كارثة أن ندعى أن العلم الطبيعى يستطيع أن يحل مشكلة الأخلاق ، وقال مثل ذلك الدكتور (ارثر كيث) .

ولا ريب أن فكرة التطور عندما خرجت عن مفهومها البيولوجى إلى المعنى الاجتماعى كانت فى قبضة المفكرين اليهود ومن هنا قال أنصار المسيحية : ان هدف الإنسان فى الحياة أن يمجد الله ويتامل حكمته ، وقال التطوريون اليهود : إذا كان هـذا هو حقيقة الهدف النهائى أو الغاية القصوى فلماذا منح الإنسان طبيعة لا تستطيع تحقيق هذا الغرض فما من جماعة إنسانية انصرفت إلى هذا الغرض وحده إلا وتلاشت من على ظهر الأرض (١) .

وعندنا أن عرض القضية على هذا النحو فيه مغالطة واضحة .

فليس مفهوم توجيه الحياة على النحو الذى رسمه الله بقاض على الجماعة الإنسانية بل هو مصدر بقائها أما تلاشى الجماعة فانما يرجع إلى إسرافها فى الترف والانحلال والإباحة وخروجها على منهج الله أما فهم تحقيق إرادة الله فى الحياة

(١) كتاب التطور ــ السيد محمد بدوى .

على أنه هو الإنسحاب من الحياة واعتزالها بالرهبانية فليس هو المفهوم الصحيح إن فناء الأمم مرتبط بالإفساد فى الأرض سواء بالانسحاب منها أو الاغراق فى متاعهـا وهما جنـاحى الانحـراف الذى حمت الأديان منـه البشرية حتى لا تسقط وتنهار .

* * *

وإذا كانت مفاهيم الأخلاق المسيحية لم تحقق إقامة المجتمع الإنسانى ، فإن المفاهيم التى استحدثها التطوريون ستعجز عن تحقيق هذا المجتمع أيضاً ، وإذا كانت الرهبانية والانسحاب من المجتمع قد عجزت لأنها معارضة للفطرة، فان هدم عنصر الثبات وقيام الأخلاق على مفهوم المنفعة وحده هو أيضاً ممـا لا يتلاءم مع الطبيعة البشرية ، وسوف يحول مرة أخرى دون قيام المجتمع الإنسانى .

أما الوسيلة الحقيقية فهى فى التماس منهج الأخلاق القائم على الثبات والمرتبط بالعقيدة والمتمثل فى الالتزام الأخلاقى واقرار مبدأ المسئولية الفردية والجزاء .

(٣)

غير أن الأخلاق الغربية بعـد أن انفصلت عن الدين لم تتوقف عند مفهوم الواجب أو المنفعة ولـكنها خضعت للتطور مرحلة بعـد مرحلة وضاع منها نهائياً عنصر الثبات فذهبت بعيداً وانفصلت تماماً عن كل القيم التى تتصل ببناء الإنسان وإقامة قاعدة الالتزام .

ذلك أن هذه المرحلة التى أقامت علم الأخلاق على أنه علم معيارى يبحث فيما يجب أن يـكون السلوك الإنسانى ويحث مقومات الخير والشر وتحديد مبادىء الواجب ، هـذه المرحلة لم تلبث أن انتهت حين دخل علم الأخلاق فى مضمون جديد وتفسير جديد بفضل مدرسة العلوم الاجتماعية وعلى رأسها دوركايم وليفى بريل . لقد رفضت هـذه المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى سيطرت من بعد الفكر الغربى كله ، رفضت القواعد التى ينبغى أن يستعملها الإنسان فى سلوكه

وقالت ان علم الأخلاق هو مجرد دراسة تقريرية للعادات والطباع والأخلاق السائدة فى المجتمع .

وبذلك قضى نهائياً فى محيط الفكر الغربى على فكرة التوجيه الخلقى أو وضع المثل الأعلى الأخلاقى أو إقامة تشريع القانون الخلقى .

ومن خلال هذه المدرسة جرى القول فى تعميق معانى نسبية الأخلاق بالقول أن لكل شعب أخلاقه الخاصة ، وأن هذه الأخلاق تحددها الظروف المعيشية ، وأن هذه الأخلاق تتغير مع اختلاف الأزمان والبيئات .

ولما كانت مدرسة العلوم الاجتماعية مادية الأساس من حيث أنها لا تؤمن بالدين أو الوحى أو النبوات أو الكتب المنزلة فانها قد حاكمت التراث البشرى كله على أنه من عمل الأفراد ، ومن هنا فانها لم تستطع أن تفرق بين الأخلاق والعادات ونظرت إلى كل مقومات المجتمع على أنها عادات وعرف وتقاليد وآداب عامة خاضعة للعصر ولظروف المجتمع وأنها قابلة للتغير والتحول والتطور بحيث لا يثبت منها شىء .

ويرد الباحثون مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية إلى النظرية الماركسية والتفسير المادى للتاريخ استمداداً من مفهوم التطور الاجتماعى كما رسم سبنسر ، فالأخلاق فى الفكر الغربى كله منذ انفصل عن مفهوم المسيحية مثل السياسة والقانون تتوقف على الظروف والأحوال وتتشكل فى إطار المنفعة وتجرى حسب عوامل التوسع الحضارى ومن هنا كان مفهوم الأخلاق مرتبطاً دائماً بنفوذ السياسة ، وكان له معنى الإذلال والقهر والسيطرة فى المستعمرات وله مفهوم العدل فى أوروبا وكان ذلك استمداداً من مفهوم الإمبراطورية الرومانية القديم (روما سادة وما حولها عبيد) ثم جاء التفسير الماركسى فجعل الأخلاق مرتبطة بالاقتصاد وظروف المعيشة ووسائل الإنتاج .

ومعنى هذا عندهم أن الأخلاق من نتاج المجتمع نفسه .

وجاء (ليفى بريل) فانهى مهمة علم الأخلاق الغربى الذى تشكل خارجاً عن

نطاق الدين فقال . إن مفهوم الأخلاق إنما يعني دراسة ما هو كائن بينما كانت مهمة الأخلاق التقليدية هي ما ينبغي أن يكون .

وهكذا قطع علم الأخلاق صلته بالتوجيه والعمل في داخل كيان المجتمع واكتفى برصد الوقائع ودراسة الظواهر من خلال الواقع .

ويرد ليفي بريل في كتابه (الأخلاق وعلم العادات) القيم الأخلاقية كلها إلى علم العادات مع الفارق البعيد بين العادات والأخلاق من حيث أن الأخلاق جاءت بها الأديان المنزلة لضبط معايير المجتمعات وعلاقات الأفراد ، أما العادات فهي من نتاج الشعوب . ولذلك فنحن في الفكر الإسلامي نفرق بين الأخلاق والعادات تفريقاً واضحاً عميقاً، ونحرص على ألا تطغى العادات على الأخلاق ومعنى هذا الاتجاه الجديد لمدرسة العلوم الاجتماعية هو إلغاء القانون الأخلاقي كلية وإطلاق المجتمعات من كل قيود الضبط والتوجيه بينما يقوم الفكر الإسلامي على أساس واضح هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوة كل إنسان للإنسان الآخر على أساس المكاشفة والتناصح وإهداء العيوب ، كما يحرص الإسلام دائماً على مراجعة العادات والتقاليد ، وفحصها ورد ما يخالف منها طابع الفطرة أو يعارض ضوابط المجتمع أو تتناقض مع القيم الأخلاقية الثابتة .

ولا ريب أن اتجاه مذهب العلوم الاجتماعية في الأخلاق يهدف أساساً إلى القضاء على قاعدتي الثبات والالتزام من حيث دعوته إلى تمييز القيم الحسية وإحلالها مكان الصدارة ، وهو ما يتعارض مع غاية الأخلاق في المفهوم العام الذي يهدف إلى « إعلاء القيم التي تسمو على عالم الحس » أي القيم الروحية وهي غالبا ما تتعارض مع القيم الحسية .

ويرى بعض الباحثين أن الأخلاق في نظر العلم الوضعي تصنف في دراسة علم الإنسان وعلم الإنسان يقوم أساسا على أمرين لا ثالث لهما : البيولوجيا وعلم الاجتماع ومن هنا فإن الدائرة المادية المغلقة تحول دون الاعتراف بالقيم المطلقة كالألوهيه والشرائع والضوابط وتطلق للنفس الإنسانيه أسباب التصرف دون النظر إلى قيد من القيود أو ضابط من الضوابط . ومعنى هذا في النهايه هو محاولة تاسيس الأخلاق على القواعد البيولوجيه الصرفه .

ويجرى هذا الاتجاه كله فى نطاق المذهب المادى الذى ينظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل لا كما يجب أن يكون وهو مفهوم فى جملة يفتح الباب واسعا أمام حرية التصرف فى مواجهة الشهوات والرغبات والعواطف دون النظر إلى مدى الأخطار التى تترتب عليها بالنسبة للكيان البشرى نفسه أو بالنسبة للمجتمع بصفة عامة

ويحاول دور كايم أن يجعل المجتمع هو القوة العليا التى تلزم الفرد أخلاقيا والتى رسم له المثال الأعلى الذى يتوق إلى تحقيقه ويرمى هذا إلى إقرار مفهوم نسبية الأخلاق فى مجتمع معين فى عصر معين دونما تكون هذه الأخلاق ثابتة وعامة ومرتبطة بالإنسان نفسه .

وقد عارضت مدرسة العلوم الاجتماعية من خلال تفسيرها الذى قام على وضع فروض مسبقة مع البحث عن وقائع فردية وإعطائها صفة العموم للوصول إلى إهدار الحقائق الفطرية الأساسية التى لم تتخلف خلال عصور البشرية المتوالية والتى قامت عليها سنن المجتمعات وقوانين بناء الانسان .

أولى هذه الحقائق التى تعارضها مدرسة العلوم الاجتماعية وتعمل على هدمها : إن الطبيعة البشرية فى جذورها واطرها ومضامينها وهدفها لم تتغير بتغير الزمان والمكان .

وإذا كانت الأديان قد أعلنت هذه الحقيقة فإن مجرى التاريخ نفسه قد أكدها ولم يعارضها ، بل أن الفلسفات العقلية لم تجاوزها ولم تعارضها وفى ذلك يقول ديكارت : أن جميع أفراد الجنس البشرى توجد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة وإن الاختلاف بالزيادة والنقصان لا يكون إلا فى الصفات العرضية أما الصفات الجوهرية أو الطبيعية للأفراد فانها ثابتة .

ولا ريب أن الحضارات المتوالية ووقائع التاريخ تجرى فى هذا الاتجاه ولا تنقضه ولقد وجدت مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية وفروض ليفى بريل ودور كايم معارضه ورداً ووجهت بوقائع حاسمة تكشف زيفها وبطلانها وترد ماحاولت الاعتماد عليه فى اقرار قواعد بشرية عامة على نصوص لم تثبت تماما أو حفريات غامضة أو ملتقطات أريد بها التدليل على فكرة مسبقة .

(٤)

أن ميدان الصراع فى مفاهيم الأخلاق إنما يتحرك فى أفق الفكر الغربى بين ثلاث اتجاهات (أولها) الأخلاق المسيحية التقليدية. (ثانيها) المدرسة الفلسفية المثالية (ثالثها) مدرسة المنهج الاجتماعى ، ولاريب أن المناهج الثلاثة هى أطوار ثلاثة للتحول فى نطاق التغيير المتصل الذى أصبح يحكم الفكر الغربى ويسيطر عليه بعد إسقاطه لكل المقومات الثابتة وبعد خضوعه للإنشطارية بين الدين والخلق وبين العلم والدين ، وهو اتجاه طبيعى لتحول متصل لا يتوقف وسيظل خاضعا للتغيير والتحول بعد أن انفصل عن القاعدة الأساسية الثابتة وأصبح ولا وجهه محددة له .

وهذا هو خطر الانطلاق بعيداً عن قاعدة الثبات التى عرفها الفكر الاسلامى واتخذها ركيزة أساسية ينطلق منها ويرجع إليها ويلتمس دائما مفهومها ويصحح نفسه كلما فسد أو انحرف بالعودة إلى المنابع الأولى التى هى ليست من صنع البشر وإنما هى من صياغة صانع البشرية .

والمعروف أنه لاحد يمكن أن يقف عنده أى تحرك مادام قد انفصل عن قاعدة ثابتة وأصبح يخضع للتطور والنسبية والتغيير الدائم المتصل الذى لانهاية له .

ولا ريب أن مصدر الاضطراب كله هو اعتماد الفلسفة على مفهوم خاطىء من أساسه يقوم على النظر إلى العلم على أنه الوسيلة المشروعة للمعرفة الإنسانية ولربما كان هذا هو الرأى السائد فى مرحلة متقدمة ولكن التجارب المتصلة واتساع آفاق البحث كشفت عن أشياء جديدة حدت من غرور العلم عندما اعترف العلماء بأنهم يقفون عند تفسير ظواهر الأشياء وعندما فصل المفكرون بين منهجين من مناهج المعرفة : منهج العلم التجريبى ومنهج العلوم الأنسانية . بعد أن تبين عجز منهج العلم التجريبى عن الاستقصاء والاحاطة بمفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق وعدم إمكان خضوعها للمقاييس المادية التى تقام داخل المعامل .

ومن هنا فإن موقف الفلسفة من العلم يبدو فى هذه المرحلة غير علمى وغير منطقى ، فحيث اعلن العلم عجزه وقصوره ووقوفه عند حدود التجريب فى مجال المادة ، نجد الفلسفة ماتزال مندفعه فى خطها المادى الصرف غير مبالية بان للنفس الإنسانية جوانب أخرى أو أبعاداً اخرى تتجاوز الجسم والمادة .

غير أننا إذا لاحظنا أن هذه التطورات كلها تجرى فى نطاق مجموعة العلماء اليهود استطعنا أن نفهم المخطط والهدف إذا مااستقصينا خطط بروتوكلات صهيون وما تحمله من دعوة الى تدمير القيم الإنسانية جميعا ودفع البشرية كلها إلى انياب الجنس والمادة والذهب والربا .

وفى ضوء هذا نجد الفلسفات والمذاهب الإجتماعية تتقاصر عن بناء الانسان ودفعه إلى أفاق المثل الأعلى وتعجز عن تحقيق أشواقه الروحية فى نفس الوقت الذى تدفعه إلى الإغراق فى الجانب المادى والاندفاع فيه إلى آخر المدى . وذلك حين تنظر هذه الفلسفات إلى الانسان كما هو كائن بالفعل لا كما يجب أن يكون ولاريب أن هذه الفكره الجريئة قد « أزعجت كثيراً من العقول التى رأت فيها إنحداراً نحو نفى الأخلاق برمتها [1] » ويرد الباحثون ذلك إلى أثر المذاهب التطورية والبيولوجية فى الجنوح نحو الغلو والشطط فى موقفها من الاخلاق .

وهكذا نجد دوركايم متابعاً لاوجست كنت ونجد هذا مستمداً من سبنسر ثم نجد ليفى بريل إمتداد لدوركايم فى حلقات متصله على خط واحد وقد استغلت اليهودية التلمودية هذا الفكر فى تدعيم هدفها الأساسى سواء باحتضان الفكر أو بتوجيه الفلاسفه أنفسهم . وكل هذا الانجاه يهدف إلى إنكار إرادة الفرد وتصويره بصورة الجبر المطلق الخاضع للمجتمع وفى ذلك إلغاء للمسئولية الفردية التى هى مناط الجزاء الأخروى وعقيدة الغيب . وكل هذه المحاولات فى مجموعها تهدف إلى هدم القيم التى أرستها الاديان فى المجتمع البشرى وتحطيمها سواء أكان ذلك عن طريق القول بنسبية الأخلاق أو التشكيك فى وحدة الجنس البشرى وثبات صفاته النفسيه والخلقية أو إنكار الإلتزام

---

(١) السيد محمد بدوى من كتاب (التطور) .

الأخلاقى او المسئولية الفردية مما يدور حوله كل مـا قدمه ليفى بريل ودوركايم وهو ماحمله لنا أتباعهم وأولياؤهم ممن كتبوا باللغـة العربية وقد استتبع هذا المنهج الذى طرحته مدرسة العلوم الإجتماعية آثاراً بعيدة المـدى على بناء الإنسان وعلى علاقاته بالمجتمع والحياة وعلى مفاهيمه حول عالم الغيب والبعث والنشور وامتدت منها خيوط إلى مفاهيم التربية والأدب والفن

(٥)

ومن أجل إلقاء أضواء كاشفة ، ودراسة ابعاد قضية الأخلاق التى واجهها الفـكر الغربى ونقلت برمتها إلى أفق الفكـر الإسلامى دون عرض تطورها التاريخى يجب أنه من الضرورى الـكشف عن الخلفية القائمة وراء هذا الموقف .

وذلك أن التفسيرات التى كانت تقوم عليها المسيحية الغربية (وهى بالقطع مختلفة عن مفاهيم المسيحية المنزلة) قد احدثت هذا الصراع بين رجال الدين والعلم ، دوفعت رجال العلم وهم قادة الحركة الفـكرية فى ابان النهضة إلى تجاوز الدين وفصل الأخلاق عن الدين .

وكان من وراء الحـركة اليهودية التلمودية التى تريد أن تحطم القيود المفروضه على اليهود فى أوربا والتى تحول بينهم وبين المناصب السياسية والقيادية غير أن هذه الحركة فى مجموعها وفى هدفها العميق إلى أحتواء الفـكر الغربى المسيحى والسيطره عليه كانت تحاول أن تستفيد من النظريات الفلسفية وتوجهها إلى الغرض المبيت ، ومن هنا فقد استغلت اساساً نظرية دارون وفسرتها على غير النحو الذى أراده ونقلتها من ميدان البيلولوجيا إلى ميدان الإجتماع ، وكـذلك استغلت نظرية ديكارت واستخدمتها سلاحاً فى محاربة الدين ، وإستفادت كذلك من مفاهيم نيتشه وحملته على الأخـلاق المسيحية أما ديدرو وفولتير فإنهما من اقطاب المحـافل الماسونية ومن مخططى الفـكر التلمودى الصهيونى ، ويمكـن أن يضاف أوجست كـونت إلى هذا الطريق فقد كان يرى أن المذهب الكاثوليكى لايستطيع تحقيق التجانس بين العقول بعد إنهيار

هـذا المذهب تحت ضربات الثورة الفرنسية وان إعادة التجانس الإجتماعى لايحدث إلا بوضع ديانة جديدة ذات عقائد واضحة يمكن البرهنة عليها ولا تتطلب الإيمان بشىء يناقض العقل .

ومن هنا فقد دعا إلى دين جديد أطلق عليه إسم (ديانة الإنسانية) تكون العلوم الوضيعة اساساً للإيمان به وهو دين يختلف تماما عن مذهب الالوهية عند مفكرى القرن الثامن عشر ، وعن الديانة المسيحية التى تقرر أن العقيدة تتناقض مع فكرة البرهنة عليها مع أن الحقائق العلمية التى يعتمد عليها الدين الجديد يمكن البرهنة على صدقها وفى وسع كل إنسان أن يفهم هذه البراهين وتبدو ضرورة هذا الدين من أن العقل لم يعد يقنع بالتفسير اللاهوتى أو المتافيزيقى » ولاريب أن هذه الحيرة التى تبدو فى كتابات اوجست كونت ، كانت تشمل الفكر الغربى كله وقد امتدت منذ ذلك الوقت إلى اليوم ولاتزال ممتدة ، بل زادت عمقاً ، وخطراً واحدثت نتائج بعيدة المدى من التمزق والأزمة النفسية ، مما نرى ظواهره فى قضية أزمة الإنسان الحديث وأزمة الحضارة .

أما عالم الإسلام وافق الفكر الإسلامى فإنه لم يشهد مثل هذه الأزمة لأن جميع فقهاءه وفلاسفته وعلمائه ومتصوفيه « يقررون أن حقيقة العقل والشرع واحدة وأن براهين القرآن تصلح لجميع العقول على إختلاف درجات سموها »

ولذلك فإننا نخطىء خطأ كبيراً حينما ننقل هذه المعركة إلى أرضنا وهى ليست معركتنا ، وليست ظروفها التاريخية ظروفنا وليست مصادرها الأساسية من عقائد وفكر ومفاهيم مما يتصل بنا من قريب أو بعيد .

وليس هناك شبهة ما فى قيام أى إنفصال فى الإسلام بين العقيدة والشريعة أو بين العقيدة والأخلاق أو بين الدين والعلم أو بين الدين والمجتمع . وكل هذه المحاولات التى تجرى لإثارة هذه الشبهات باطلة ومضللة وفيها إفتئات على علماء المسلمين الذين لم يكونوا يوماً معادين للعلم ولا ملتمسين سلطانا من أى نوع

يفرضون به الفكر على الناس وحيث لم تكن هناك مؤسسات إسلامية ذات طابع ثيوقراطى .

ولقد أحدثت محاولات نقل مثل هذه القضايا فى أفقنا بريقاً خاطفا عند ذوى الرغبات والأهواء من حيث أنها تفسح لهم الطريق إلى التحلل من القيم وتجاوز الحدود ومعرفة الضوابط التى وصفها الإسلام من أجل حماية الكيان الإنسانى نفسه وبناء الإنسان القادر على مواجهة أخطار الغزو وتحديات الصراع العالمى ، فضلاً عن بناء الإنسان المؤهل لأن يكون ربانياً ، يعمل فى هذا المجتمع من أجل وجهة خالصه .

ولكن مثل هذا القبول الشكلى أو الممارسة التى فرضتها عوامل كثيرة أهمها سيطرة فلسفة المسرح والسينما والقصة الغربية ومفاهيمها الوافدة ، وبريق الفن بصوره المختلفةوأضواءه الساطعة فى النادى أو السيرك أو المرقص او الملهى.

غير أن الفكر الإسلامى باصالته ومقوماته لايزال قادراً على رد أهله إليه وتجاوز هذه الأخطار الوافدة التى لم تنبعث من أعماقه أساساً وإنما فرضت عليه فى ظل مرحلة السيطرة والإستعمار .

وسوف يجد المسلمون أنهم فى حاجة شديدة إلى مفاهيمهم الأصلية كلما إزداد ضغط الأخطارعليهم وتعدد التحديات وإتساع نطاقها فليس لهم عاصم يحول بينهم وبين الخطر أو يردعهم الغزو إلا أن يتحركوا من داخل قيمهم ومفاهيمهم ، هذه المفاهيم التى تصدقهم الحقيقة ولا تزيفها لهم .

(٦)

إن أبرز أخطاء مفاهيم العلوم الاجتماعية هى الخلط بين الأخلاق والتقاليد وإن النظرة الدقيقة الصائبه تكشف عن فوارق عميقة بين الأخلاق والتقاليد . فالأخلاق قيم وضوابط تعمل على بناء الانسان من خلال تقديم الخير وبذل التضحية وفى نفس الوقت مجاهدة النفس ومقاومة الإنحراف وهى دائماً ربانية متصلة بالدين لاتنفك عنه أما العادات والتقاليد فتلك هى الظواهر التى كونها المجتمع او اعتادها الإنسان والتى ترتبط بمواقف الزواج والموت والولادة والفرح والحزن وغيرها وهذه حقيقة مايمكن أن يطلق عليها استجابة

النفس إلى الوسط ، ولقد اختلط الأمر على فلاسفة المذهب المادى والمدرسة الإجتماعية فى العجز عن التفرقة بين الأخلاق والتقاليد نتيجة لغياب المفهوم الأساسى الكائن فى هذا المجال وهو العقيدة المستمدة من الدين ومن هنا اعتبروا قيم الأخلاق أشبه بظواهر التقاليد وردوها إما إلى الوراثة أو الوسط أو الثقافة .

والحق أن إنكار الدين بوصفه مصدراً للأخلاق هو الحائل الأكبر دون عزل القيم الأخلاقية عن الظواهر التى تتمثل فى العادات والتى تأخذ شكل القيم الأخلاقية مع الزمن وتحمل طابع القداسة الزائفة بينما نجد أن القيم الأخلاقية لها عنصر الثبات والإستقرار مع وضوح الالتقاء بالفطرة ، مع اتساع الأفق بينما نجد الظواهر الإجتماعية التى تتمثل فى العادات والتقاليد تحمل صورة الجمود والتخلف ولاتخضع للفطرة أو تتجاوب مع النظر العقلى وربما تحمل طابع الخرافة والزيف الذى يعارض القيم الأخلاقية وربما يحل محلها عندما تضعف المجتمعات وتعجز عن التمسك بالقيم .

ولقد كانت دائماً تلك محاولات الإستعمار فى إعلاء العادات والتقاليد والإحتفال بها حتى يجعلها قادرة على طمس القيم الأخلاقية والحلول محلها .

فإذا تعمقنا الفوارق بين القيم الأخلاقية وظواهر العادات والتقاليد وجدنا أن كل مايقال عن تطور الأخلاق بتطور الجماعة ونسبية الأخلاق والقول بان مرد الأخلاق إلى الوسط كل هذا يعنى العادات والتقاليد فقد حلت كلمة الأخلاق محلها من حيث إقتناع المذهب المادى بانه لافرق بين هذه وتلك لأنها فى تقديره الباطل هى من صنع المجتمع نفسه .

فإذا نحينا الأخلاق المتصلة بالدين والمستمدة من الوحى والمتصلة بالعقيدة والشريعة ، والتى تحمل طابع الثبات ، إذا نحيناها عن هذا البحث ، كان كل مايدور فيه بمثابة وجهات نظر غير غريب ، فالعادات والتقاليد مادامت هى وليدة المجتمع فهى تتطور بتطوره وكل ماتتهم به العادات والتقاليد من جمود عن العصر مقبول بل ونحن فى آفاق الفكر الإسلامى نطالب به لأنه يصل أحيانا إلى درجة

الخطر التي تحول دون تقدم المجتمع والتي تؤثر على صفاء العقيدة وعلى سلامة القانون الأخلاقي .

والإسلام في أعمق مفاهيمه حرب على الأوهام والخرافات والأساطير والمنكرات التي تتشكل مع الزمن من حول العادات والتقاليد وله صوت عال في كشف زيفها وتحرير الفكر الإسلامي والنفس الإسلامية منها .

فإذا علا صوت هذه التقاليد والعادات الضارة صارعت القيم الأخلاقية وأعجزتها وحلت مكانها ، كما حدث في المجتمعات الغربية فلما جاء الباحثون الماديون المجردون عن فهم الدين ، عجزوا عن التفرقة بين الأخلاق المرتبطة بالدين والعادات المرتبطة بالمجتمع وحسبوها جميعاً شيئاً واحداً لأن العادات والتقاليد كانت فعلا قد قضت على القيم الأخلاقية وسحقتها تماماً

ومن هنا جاءت تفرقة الإسلام بين الحق والباطل و بين السنة والبدعة وماصك به رسول الله الآذان من أن شر الأمور محدثاتها وأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

ومن هنا يجب التحرز ضد هذا الخطر في أفق المجتمع الإسلامي وذلك برد كل حركاتنا الإجتماعية في شئون الأكل والملبس والبيوت وآداب الطعام والشراب والسفر والإقامة والزواج والمعاشرة والمعاملة والكسب واللهو والأفراح والمآتم إلى القيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام وتحرير هذه الأوضاع جميعا من زيوف العادات والتقاليد الدخيلة الفاسدة التي كانت تعمل في الجاهلية والوثنية والتي تجددت وحاولت أن تأخذ طابع الثبات وأن تنافس القيم الأخلاقية الأساسية .

ذلك أن التفرقة بين الأخلاق والعادات تجعلنا قادرين على تثبيت الأخلاق وتغيير العادات ، لا العكس ، فإن الأخلاق في أساسها مرتبطة بالفطرة الانسانية ولها طابع الثبات ، أما العادات فهي مرتبطة بالمجتمع ولها طابع التغيير وإذا حيل بين الأولى وبين الثبات سقطت وإذا حيل بين الاخرى وبين التغيير تجمدت وفسدت .

ولاريب أن المجتمع اليوم يغير من اساليب الأشياء مع بقاء جوهرها ، من ازياء اللباس وطريقة تناول الطعام ووسائل تأسيس البيت ، وأدوات الانتقال

وغيره ولكن اصول الحركة فيها جميعا ماتزال وستظل تحكمها قيم الأخلاق لاتنفك عنها ، وإن تغيرت العادات والأساليب . فتغيير العادات والتقاليد مرتبط بالعصر وتطوره وثبات الأخلاق مرتبط بالدين وأسسه التي لاتحول ولاتزول .

ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء كان لدى العرب عرف وعادة ، فلم يلبث الإسلام أن أقام شريعته ونشر قانونه الأخلاقي فما صلح للبقاء من هذه الأعراف والعادات بقي وماتعارض معه سقط ، أما مابقي فقد أخذ طابعاً جديداً ، ومفهوما مغايراً ، والكرم والشجاعة والنجدة ونصرة الجار والمستجير قد بقيت مما أقره الإسلام ولكن لم تعد وجهتها كما كانت في الجاهلية من أجل الظهور والتفاخر بل من أجل إرضاء الله والتماس مثوبته وكذلك تغير مضمون القيم .

ومن هنا نعرف الفرق بين الأخلاق والتقاليد ، الأخلاق ثابتة ومتصلة بالقيم العليا للدين لأنها من صنع الله أما التقاليد فهي ظواهر عارضة ووسائل متغيرة تختلف وتتغير مع الزمان لأنها من صنع الناس ، وفي نفس الوقت لابد أن تخضع التقاليد لأسس الأخلاق ولاتتجاوزها ومن هنا نجد أن اللباس والزينة والأزياء وألوانها هي من عناصر التقاليد غير أنها لابد أن تتحرك في إطار الأخلاق .

(٧)

الأخلاق الإسلامية لها ذاتيتها الخاصة المختلفة عن الأخلاق اليونانية والمسيحية ولها أيضا مقوماتها والأخلاق فيالإسلام منهج عملي وليس نظرية فلسفية ، وهي تقوم على مبدأين : الإلتزام والجزاء الأخروي . وقد ربط الإسلام بين الدين والخلق وأعلن زيف النظرية القائلة بأن الأخلاق تختلف عن الدين أو تستقل عنه ، أو أن الملحد يستطيع أن يكون اخلاقيا . واعترف الإسلام بالإنسان ككل وأقام قانون الأخلاق شاملا مؤثراً في مختلف مجالات السياسة والإقتصاد والإجتماع والتربية والأدب .

ولقد قام قانون الأخلاق الاسلامي مستمداً من القرآن ، قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطهير النفس .

وتقوم ممارسة الأخلاق على الحرية لكل تكليف يقوم على الإختيار ، ويجرى على أساس الإرادة الحرة ، لذلك يقرر الإسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه فله عذره . وقد أطلق الإسلام على كلمة حرية الإرادة اسم (الكسب والإختيار) وجعلها مناط التكليف ومن حرية الإختيار أن يكون العمل الخلقى متصفا بالطواعية وصادراً عن إرادة محبة للخير .

وتقوم الأخلاق فى الإسلام على أساس التقوى (أى تجنب الحرام والإقبال على الحلال) وعلى الإيثار (أى البذل والإنفاق) .

ولقد ربط الإسلام بين العقيدة والأخلاق والشريعة ، وأعلن فساد النظرية التى تقول بأن الأمة ليست فى حاجة إلى دين ولكنها فى حاجة إلى الأخلاق وأنكر مثل هذه الإنشطارية وكشف عن أن الأخلاق لا تقوم بنفسها وأنها لاتتحرك إلا من داخل إطار العقيدة أى من داخل الإيمان بالله نفسه فالدين بمعنى العقيدة والأخلاق بمعنى الدين حقيقتان لا تنفصلان فى الإسلام كما تتلازمان فى جميع الأديان .

والأخلاق بمفهوم الإسلام تختلف عن العلم وهى نفس الوقت لاتعارض العلم ولا يحل العلم محلها بل يقرر ضرورة وجودها فالأخلاق قاسم مشترك على مختلف تصرفات الإنسان وهى بمثابة ضوابط وحوافز بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع .

والعلم لاينفصل عن الأخلاق بل يتحرك فى نطاقه والعلم لايتقدم إلا فى بيئة أخلاقية ولابد من حماية الأخلاق لإنطلاقة العلم وتوجيهها إلى الخير والحق .

غير أن العلم فى العصر الحديث قد تجاوز إرتباطه بالأخلاق وانفصل عنها واندفع يحقق من المطامع والأهواء والمظالم ماكان بعيد الأثر فى أزمة الحضارة المعاصرة . وقد قرر العلماء أن تقدم العلم لم يضمن إرتقاء الاخلاق ، بل أن العلم قد ساعد على إفساد الاخلاق من حيث إستغلال التكنولوجيا فى وجوه الإباحية والشر واللذات والشهوات . إن العلم لا يستطيع أن يكون أخلاقيا إلا إذا كان فى خدمة البشرية كلها لا فى خدمة مطامع النفوذ الاستعمارى والقوى الطامعة فى السيطرة على البشرية وإذلالها .

لقد كانت البشرية فى حاجة إلى ثبات المصدر العلوى وتحريره من التفسيرات الفاسدة والتماس مفهومه الاصيل فإذا صححت البشرية مفاهيمها على ضوء التوحيد استطاعت أن تعتصم بقيم الثبات وتتحرك حركتها الأخلاقية فى وجهة الخير والتقدم المعنوى والمادى معاً ، غير ان إنفصال الدين عن مفهومه الحق وخضوعه للتفسيرات التى أخرجته عن أصالته هى التى حالت بينه وبين الصمود فى وجه مفاهيم العلم ومواجهة منهج المعرفة القائم على العلم ، ومن هنا تجاوز رجال العلم الدين كلية والتمسوا للاخلاق مفهوماً منفصلا هو مفهوم عقلى فى أساسه ثم تحول من بعد فأصبح مفهوما يستمد كيانه من إطلاق الغرائز .

واقد خضعت غاية الأخلاق فى الفكر الغربى إلى مبدأ المنفعة ثم تحولت عنه لتخضع لمبدأ اللذة فأصبحت تتحرك فى مهب الأهواء والشهوات والمطامع .

وبذلك عجزت عن بناء الضمير الذى يستمد قيمه من الإيمان بالله والإلتزام الأخلاق والمسئولية الفردية والإيمان بالبعث والجزاء .

وهذا هو أبرز وجوه الخلاف بين مفهوم الأخلاق ومضمونها فى الإسلام وبينه فى الفكر الغربى فهو فى الإسلام قيم ثابتة متصلة بالدين الحق لاتنفك عنه حتى تبقى العقيدة مهما صحت وقويت شيئا عديم القيمة إذا لم تصبح جزءاً من السلوك والخلق ، بل هى فى الواقع لا وجود لها قبل ذلك .

ومن هنا إختلفت الأخلاق فى الإسلام عن مفهوم الأخلاق فى المسيحية والفكر اليونانى أساسا وحين ترجمت مفاهيم الأخلاق الهلينية لم تجد تقبلا حقيقيا فى محيط الإسلام لاختلاف الأصول والجذور وبقى مفهوم الأخلاق فى الإسلام مرتبطا بمعطيات الأديان السماوية السابقة عليه متصلا بها على النحو الذى عبر عنه رسول الله حين قال « إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ومن هنا فإن ما كتبه الفارابى وابن سينا وابن مسكويه لم يكن إلا تقليداً للفكر اليونانى الذى يخالف روح الإسلام ولا يلتقى بها إلا فى القليل .

فالأخلاق فى مفهوم الدين الحق المنزل من عند الله ضوابط وكوابح لتزكية

النفس وترويض الغرائز وتصعيدها والسمو بها ولم تكن بصورة ما زهداً له صفة الرهبانية ولا تحللا فيه صفة الإباحية .

وقد تأكد أن فكرة تصعيد الغرائز كما يفهمه الفكر الحديث مستفادة اساسا من القرآن الكريم :

[ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها]

والاسلام لا يقتل الغرائز ولا الرغبات البشرية ولكنه ينظمها ويضعها فى إطار الحلال والاعتدال وإن هناك فرقا بين التقوى فى عمل الشىء وبين اعتزاله كلية ، فالتقوى ممارسة لها ضوابط أما إعتزال الشىء فهو مضاد للطبيعة البشرية التى أكد الإسلام وجودها وحقها فى الممارسة والتطبيق .

ومن الخلافات العميقة أن الأخلاق فى مفهوم الوثنية الاغريقية كما يردده أرسطو وأفلاطون لايخرج عن دائرة السعادة وعند غيره يقتصر على مفهوم اللذةومعناها راحة النفس وسرور الفرد وهو مفهوم يقاس على الأهواءوالمطامع أما الإسلام فيجعل التقوى أساسه ومقصده .

فالإسلام لا يأمر بقمع الشهوات ولا التحكم فى الغرائز ولكنه يدعو الى الإعلاء والتأجيل إذا لم تتيسر الوسائل السليمة الشرعية للممارسة وقد فهم كثيرون أن مهمة الإسلام فيما جاء به رسوله ليتمم مكارم الأخلاق ، إن يعممها على الفرد والمجتمع والحاكم والمحكوم وأن يضع الفرد بين الفردية والجماعية (فرديا فى الفكر ، إجتماعياً فى العمل ، فرديا فى حق الكسب إجتماعيا فى دفع الزكاة والصدقات فرديا فى النوافل إجتماعيا فى الفرائض ، فرديا فى المحراب إجتماعيا فى المنبر) .[1]

وحين يعطى الإسلام النفس البشرية رغائبها يدعوها إلى التوسط حتى يتحقق التعادل بين الرغبات المادية والأشواق الروحية فالإسلام لايقر الإغراق فى حب

---

(1) من بحث للعلامة صلاح الدين السلجوقى .

اللذة ولا التحلل ولا إعبادة الجسد اوتاليه الأهواء ، ولا يجعل السعادة أو اللذة غاية الحـــياة .

فهو بهذا الأفق واضح الذاتية مختلف عن مفهوم المسيحية الغربية ومفهوم الوثنية اليونانية التي تجددت في العصر الحديث من خلال نظريات فرويد ودوركايم وليفي بريل .

وإنمـا يهدف الإسلام بذلك إلى التخفيف عن النفس الانسانية ما لاتستطيع احتماله من الأهواء التي تودي بـكيانها النفسي والعقلي ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن يميل الإنسان ميلا عظيما ومن شأن مراد الاسلام أن يحفظ كيان الإنسان نفسه قويا فيـكون قادراً ما مش على التماسك والصمود ويحفظ كيان المجتمعات فإن سقوط الأمم في تقدير جميع علماء الحضارة إنمـا يحدث إذا إختل التوازن النفسي والإجتماعي وسيطرت الحواس والغرائز على العقل والإنسان معاً وفي عديد من الحضارات كاليونانية والرومانية والفارسية والفرعونية كان انهيار القيم الأخلاقية مقدمة لانهيار هذه الامبراطوريات عندما عجز الانسان عن حماية نفسه من أخطار اللذات والأهواء .

ولاريب أن أي حضارة إذا فقدت عنصر الدين والإيمان بالله فقد أخذت في فقدان عنصر الأخلاق التي يقوم على أساس الإلتزام ويـكون ذلك مقدمة للإنهيـــار .

(٨)

واخطر ما تحاول ان تقرره مدرسة العلوم الاجتماعية والفلسفات الوضعية وهو من الفروض لا من الحقائق : أن الانسان ليس له دور في هذا الوجود غير دور المنفعل والمتفاعل وأن التطور يحدث بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمه ، ومن هنا فإن الانسان سليب الارادة الحرة .

والهوى واضح من وراء إذاعة مثل هذه النظريات المأساوية المدمرة لارادة الانسان وقدرته على التغيير ، وهي تستهدف تحطيم نفسه فلا يتقدم خطوة على

الطريق الصحيح ، بينما ما تزال تلك القوى القائمة وراء هذه الأفكار تعمل دون توقف بإرادة حرة فى سبيل تدمير المجتمعات تمهيداً للسيطرة عليها .

ومن خلال الجبرية المطلقة تنطلق الدعوة إلى إنعدام المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى وتنكر عقيدة البعث والجزاء وتروج أفكار إقتناص اللذات فالعمر قصير .

وهكذا تصل دعوى الجبرية إلى أخطر مخاطر معارضة مفهوم الايمان بالله وأقصى مظالم هدم الانسان وتقويض الأسرة ، وانتاج أجيال ضائعة ممزقة قلقة رافضة لكل شيء .

ولاريب أن العلوم الاجتماعية هى التبرير الفلسفى للاباحية وللإنطلاق وراء الرغبات من غير حدود ، وإنه مقدمه وتكملة لدعوتين خطيرتين إحداها تفسر الحياة بأنها رغبة جنسية والأخرى تفسر الحياة بأن غايتها الطعام وبين مطامع الجنس والطعام تضيع كل مقومات الإنسان وتنهار ضوابط شخصيته وكيانه .

لقد تجاوز الفكر الأخلاقى الغربى الفطرة مرتين : مرة حين تحول إلى قضية عقلية بإسم المنفعة ومرة أخرى حين تحول إلى قضية شعور بإسم النسبية وهو فى ذلك التجاوز يعارض صلة الأخلاق بالدين ، وثبات الأخلاق بارتباطها بالانسان لا بالمجتمع والعصر . ولايفرق بين الأخلاق ذات القيم الثابته والعادات والتقاليد التى هى وليدة المجتمع وتتطور بتطوره والتى هى فى الاسلام خاضعه لأصول الأخلاق .

(٩)

وفى ضوء مفهوم الاسلام نفهم علاقة الوسط وعلاقة الوراثة ، فالاسلام حين إعتنقه المسلمون فى الصدر الأول أنشأ لهم وسطا جديداً ومناخا فكريا جديداً كان قادراً بقيمه على تغيير الموروثات جميعا وتشكيل الشخصية الفردية تشكيلا مختلفا غاية الاختلاف من حيث الاخلاق والسلوك والتكوين النفسى والاجتماعى . وما تزال تعاليم الاسلام قائمة على عدم الخضوع للوراثه إذا فسدت وداعية إلى التحرير من التقليد ، وكذلك ما زالت دعوته قائمه على إعادة

تشكيل الوسط والبيئة من جديد وفق مفاهيم الاسلام كلما غلبت عليها التبعية وداخلتها الزيوف وذلك بإعادة صياغتها وفق المنهج الاصيل واستمداداً من المنبع الأول : القرآن .

وجعل إمام المسلمين نموذجاً حياً صادقاً كاملا هو حياة رسول ﷺ التى هى الأسوة المتجددة ، والقدوة القائمة ، من حيث حياة الفرد أو حركة المجتمع .

ولذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى ذلك القدر المضطرب الصاخب من الأبحاث الفلسفية حول تأثير الوراثة والوسط وهل الأخلاق مكتسبة أم موروثة .

كذلك لا يقبل الفكر الاسلامى ذلك المفهوم الزائف الذى يقول بان الانسان إبن غرائزه ويقرر أن الانسان ابن عقيدته ، وانه لا يخضع لأهوائه وإنما يتحرى أن يلتمس مفاهيمه من مصادرها الأصلية التى لا يقدمها له إلا الدين الحق المنزل من عند الله المتحرر من كل تفسير خاطىء أو تاويل زائف ، والذى مازال محفوظاً فى نص موثق هو القرآن .

إن نماذج تبديل الاسلام للناس وطبائعها وأخلاقها ومزاجها النفسى وروسها واضح فى عشرات من الصور التى تتمثل واضحة فى رجل كعمر ابن الخطاب وفى إمرأة كالخنساء تماضر السلمية التى كانت عنيفة فى الجاهلية حين قتل أخاها ضرار فلم تدع وسيلة لرثائه إلا إتخذتها حتى لقد وصفته بانه علم فى رأسه نار ، فلما إسلمت وتقدم أولادها الأربعة إلى الاستشهاد فى معركة القادسية إستقبلت ذلك فى رضى المؤمن وثقة الواثق بقضاء الله دون أن تتزعزع قيد أنملة وهذا أثر العقيدة فى تغيير النفوس .

إن الانسان فى الاسلام لا يخضع للوسط ولا للوراثة ، فى عقائده واخلاقه وشريعته ولكنه يستمدها من وحى السماء ومن الدين الحق ومن الكتاب المبين ، ومن هنا فهو لا يقر الزيوف الوافدة التى صنعتها بيئات ومجتمعات أنكرت الدين جملة ، أو أن تفسيرات الدين لم تقدم لها مطمحها النفسى ، وزادها الروحى والعقلى الحقيقى فاضطرت إلى أن تبحث وتتخبط دون هدى من ضوء ربانى كاشف لا تستطيع النفس الإنسانية أن تجد حقيقتها إلا فى ظله وضيائه . ومن ذلك قولهم : الأخلاق هى إستجابة النفس إلى الوسط ، ولا ريب أن الوسط

يختلف باختلاف الزمان والمكان ومن هنا فإن الأخلاق تتعدد وتتجمد ، ولا تثبت على حال ، فإذا كانت هي أساساً قائمة بنفسها منفصلة عن الإيمان بالله وعن التوحيد فهي ليست أكثر من مفهومنا للعادات والتقاليد والهدف واضح من ذلك كله وهو هدم الأخلاق والقضاء عليها ، فدعوها إلى ربطها بالمتغير حتى تتعدد وتصبح صوراً مختلفة ، ولا تلبث أن تصبح إستجابة كل فرد خاصة به ومن ثم يقضى على تلك الوحدة الجامعة والرابطة الشاملة للبشرية .

ولاريب أن هذا التحول الخطير قد وجد في البيئات الغربية إستجابة بعد ذلك التطور الطويل المدى الذى جرى خلال أكثر من قرن ونصف قرن ، ولـكن ذلك الأمر لا يثبت طويلا لأنه مضاد للفطرة معارض للعلم ، مخالف للعقل ، متجاوز كل القيم الأساسية التي تشكل على أساسها الانسان وأن « أصالة الفـكرة الأخلاقية وربانيتها ووحدتها ان تنزلها عن عرش سيادتها ما بقيت مثلها العليا قائمـة في خاطر البشرية » .

(١٠)

إلى أي حد غيرت مدرسة العلوم الاجتماعية مفهوم الأخلاق :

يجيب الدكـتور توفيق الطويل فيقول « إنتهت النزعة العلميه في الأخلاق إلى قصر الدراسات الأخلاقيه على الظواهر الخلقيه الجزئية بمناهج تجريبية . ومهمة الدارس أن يصف هذه المثل ويقرر حالها دون أن يتجاوز الوصف التقريري إلى إصدار أحكام تقويمية كأن يقول هذا خير وذاك شر أو حسن ورديء ، وقالوا أن هذا مما يخرج الباحث عن نطاق العلم ومناهجه الاستوائية فهم يرفضون البحث فيا ينبغي أن يـكون لانه غير كائن بالفعل كما يرفضون التسليم بالمثل العليا التي تـكون من وضع السياسه .

هذا هو مخطط الفيلسوف اليهودى دوركايم فيلسوف المـادية الاخـلاقيه ورأس مدرسة العلوم الاجتماعية .

« ثم جاء ليفي بريل الفيلسوف اليهودى الآخر ، وإنتهى إلى رفض الاخلاق علماً معيارياً يدرس ما ينبغي أن يـكون عليه السلوك الانساني وأكد الاخلاق

علما واقعيا وضعيا على النحو الذى أسلفنا وبهذا ينصرف النظر عن التشريع المثالى إلى دراسة الحقائق دراسة وصفيه تقريريه وبهذا تتلاشى الاخلاق النظريه » .

هذا هو التحول الخطير الذى قامت به مدرسه العلوم الاجتماعيه الاخلاق والذى اخرجها من الفلسفة المثالية التى كانت لها جذورها المتصلة بالفكر المسيحى الغربى والتى كانت تقوم على أساس الواجب أو المنفعه .

أما الاتجاه الجديد التى قدمته مدرسه اليهوديان (دوركايم وليفى بريل) فانه يهدف إستئصال القيم الاخلاقية عامه ودحرها بصفة تامة ، ووضع الفرد فى جبريه إجماعية قاسية بحيث يصبح كائنا سلبيا لا عمل له إلا طاعه المجتمع .

ويشير الدكتور توفيق الطويل فى بحثه (1) إلى مدرسة سيطرة الفرد على توجيه التاريخ التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين على يد (بندتو كروتشه) وما سبقها من مفهوم الفرد البطل الذى يسير التاريخ ويوجه المجتمع التى دعا إليها توماس كارليل .

أما مفهوم الإسلام فهو أن التأثير متبادل بين الفرد والجماعة وبين الفردية والجماعية ، وأن إرادة الفرد الحرة لها أثرها فى حركة التاريخ إلى جوار عوامل متعددة اخرى . وأن الإنسان ليس ترسا فى آله ، وليس مجبوراً أو مقهوراً بحيث لايملك التصرف ، وأن إرادته الحره هى مصدر مسئوليته وجزائه .

ولاريب أن مفهوم مدرسة العلوم الاجتماعية هذا هو الذى مهد لمفاهيم الفلسفات الوجودية التى أعلنت إحتقارها لكل القيم ورفضت الاذعان لأية سلطة .

ويتعارض هذا مع مفهوم الاسلام الذى يقرر حرية الانسان ويجعله مسئولا عن التصرف ، إن قصد إلى الخير أو الشر ، ولكنه مع ذلك يضع له الضوابط التى تصون حريته بحيث لا يكون عدوانا على حرية الاخرين . ويضع له الزواجر والروادع ، وليس الانسان هو الذى يضع هذه الضوابط وإنما يضعها له الدين الحق الذى ينظم حياته .

ولقد قررت مفاهيم الإسلام أن كل مورث يمكن تغييره وكل بيئة أو وسط يمكن تغييره ، وهذه مهمة الرسالات السماوية والأديان ولا تخضع العقيدة

(1) الدكتور توفيق الطويل .

ولا الاخلاق للبيئة ولا للموروثات ولا تتقيد بها لأنها تستمد مقوماتها من مصدر أعلى وليس صحيحا أن الإنسان يولد وتولد معه أخلاقه ، ولكن الانسان عجينة طيعة بحيث يمكن تشكيله وفق الاصول الصحيحة عن طريق التربية والقدوة وفهم الاصول الاساسية لدين الله وعقيدة التوحيد .

(١١)

ماهى وجوه الخلاف بين الاخلاق الاسلامية وما سبقها من حلقات ومناهج : يقول الاستاذ أحمد فؤاد الاهوانى .

«الاخلاق نظرية وعملية ولم ينص الاسلام على أخلاق منفصلة يتبعها السلوك العملى ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة وإنما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليها ومرجع المسلمين فى ذلك القرآن والسنة ، والقرآن أصل الاخلاق الاسلامية وهو يتضمن القواعد العملية التى تتناول أغلب أحوال الناس فى معاشهم وفى صلاتهم بغيرهم وفى معاملاتهم بعضهم بعضا ويقوم على الخير للإنسان كافة ، والسلام بين المرء ونفسه وبين المرء وغيره .

وتقوم الاخلاق الاسلامية على أساس مسئولية الانسان عن أعماله وتأكيد حرية إرادته والتوفيق بين إرادة الله وإرادة الإنسان والأخلاق الإسلامية أخلاق شخصية وجماعية » .

يقول الدكتور الأهوانى : إن الأخلاق الاسلامية هى أخلاق تقوى بكل ما يحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية أى تجنب الحرام والاقبال على الحلال : «تقوى الاله مدار كل فضيلة» والايثار والتقوى هما لحمة الأخلاق الاسلامية وسداها .

وقد أشار إلى مالم يفطن إليه المستشرقون الذين ألفوا فى الأخلاق الاسلامية حين حاولوا الموازنة بينها وبين الأخلاق اليونانية أو المسيحية ظانين بان كتاب ابن مسكويه (تهذيب الأخلاق) هو مفهوم الاسلام بينما لم يزد عن أن يردد النظريات اليونانية ، وكذلك مالوحظ على الامام الغزالى من خضوع لبعض النظريات المسيحية فى أخلاق الزهاد وعنده أن هذه الكتابات كلها لم تؤثر فى حياة المسلمين إذ حجبها كتاب الله ولم تستطع ان تبلغ إلى مقامه .

ولقد ظلت الأخلاق الاسلامية ولماذاتيتها الخاصة والمختلفة عن الأخلاق اليونانية والمسيحية وليست الأخلاق الإسلامية اخلاق سعادة بل اخلاق تقوى وسلوك النبي هو القدوة والتطبيق لاخلاق الاسلام والتطبيق الفعلى لمفهوم الأخلاق فى الاسلام .

(١٢)

ومن وجوه الاختلاف العميق بين الأخلاق الإسلامى والأخلاق اليونانية والعربية : ان مفهوم اليونان والرومان للاخلاق هو الانسجام بين الواقع والرغبات وان ميول الانسان وطبيعته الفردية هى مصدر الخير ولا ريب ان ذلك المفهوم لايهدف بناء الانسان ولاخلاق طابع المجاهدة فيه ولا دفعه إلى القوة والعزيمة وإنما يرمى إلى التسليم باهوائه ورغباته الحسية .

اما الصورة المسيحية فإنها تختلف عن ذلك تماما إذ تركز على الاعتقاد بان الطبيعة البشرية فاسدة اصلا من أثر الخطيئة الأولى : خطيئة آدم عليه السلام ومن هنا فهى تعمل على محاربة الطبيعة الانسانية الفاسدة وقتـــل الميول الجنسية والشهوات فى سبيل ولادة اخلاق جديدة قوامها التقشف والزهد .

وهذه الصورة مخالفة تماما لمفهوم الاسلام ، الذى يعترف بطبيعة الانسان ويحقق رغباتها فى إطار من الضوابط والحدود .

وهذه الصورة هى التى دفعت اوربا إلى غاية التناقض بين الرهبانية القديمة والاباحية الحديثة .

اما الصورة الاسلامية فهى صورة واقعة ومثالية معا .

فالانسان هو الانسان فى مختلف العصور والبيئات : فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، فالأخلاق منوطه به هو وهى عامل حمايته ودفعه إلى الامام وتنظيم حياته وترقية نفسه والارتفاع به ، وهى فى نفس الوقت منوطة بالقدرة والوسع مقبول فيها الاضطرار والعذر القهرى .

فهى لاتذعن للحواس ولاتستسلم لها لأن مهمتها الأساسية هى التوجيه والترويض للحواس وهى فى نفس الوقت لاتخرج الإنسان عن طبيعته ورغباته بل تقبل الاستجابة لها فى إطار واضح وحدود صريحة وضوابط مقررة .

وهى فى نفس الوقت تقوم على اطارات رحبه متسعة تضمن الحرية الشخصية وتحقق الجهود الفردية وتكفل الاجيال المتعاقبة اختيار الصورة العصريه المناسبة .

(١٣)

إن المفهوم الرئيسى للاخلاق فى الإسلام يتجلى فى فكرة الالتزام وان حرية الفنون والأداب تتحقق داخل اطار الأخلاق .

ويقوم (١) الالتزام الخلقى على أساس أن النفس الإنسانيه قد عرفت فى تكوينها الأول معنى الخير والشر (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها) وقد هدى الإنسان إلى طريقى الحق والباطل (وهديناه النجدين) والطبيعة الانسانية قد تندفع نحو الشر ولكن الانسان قادر على أن يردها وان يكبح جماح شهواته ومن هنا ركز الاسلام على تربية الارادة والمجاهدة والمغالبة والمصابرة وكلها قيم فى استطاعة النفس الانسانية تحقيقها .

والنفس الانسانية ليست شريره فى أصلها ، وإنما تفسدها الغفله عن استخدام القوى والمواهب التى أودعها الله فيها .

(لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضل : أولئك هم الغافلون) .

والامر متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التى أودعها الله ايانا وتنمية هذه القوى وتزكيتها (قد أفلح مَن زكاها وقد خاب من دساها) .

وفى النفس قوه كامنة تبذل النصح وتحدد للانسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه : هى العقل وهناك قوة تكشف عن الخير وعن الشر هى الضمير . (الاثم ماحاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس) .



(١) من بحث السيد محمد بدوى من بحث الدكتور محمد عبد الله دراز .

وقاعدة الاسلام الأساسية فى الاخلاق « الالتزام » إنما يعنى التزام الانسان فى مواجهة أبناء البشر جميعا . والالتزام فى الاخلاق جزء من المسئولية الفردية التى هى مناط الجزاء الأخروى . .

وفى تقدير جميع الباحثين إن الالزام هو العنصر الأساسى او المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية وان زوال الالزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف الاخلاق إلى تحقيقها . فاذا انعدم الالزام انعدمت المسئولية وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى اقرار الحق ووضعه فى نصابه وأقامه أسس العدالة(١) .

وما دام القانون الاخلاقى عاما فيتعين أن تكون قواعد السلوك التى يفرضها علينا ثابتة لا تتغير اما إذا كان نسبيا فان هذه القواعد تصبح مما يحتمل التغيير والتبديل تبعا لتغير ظروف الحياة .

ولقد واجه مفهوم الاخلاق الاسلامى كل التحديات التى حاولت الفلسفات الغربية ان تضع لها حلولا ، وقضى فيها بالرأى الاحكم البعيد عن هوى الانسان نفسه والمتحرر من القصور العقلى الذى لا يستطيع أن يحيط بابعاد القضايا .

وخطأ النظريات الغربية أنها ترجع إلى الدعوة إلى اخلاق بلا الزام ولا جزاء ، أو احلال مجموعة العادات والتقاليد محل الاخلاق واخضاعها لظروف المجتمع وتغيراته .

وقد حاولت الفلسفات ان تبنى قواعد الاخلاق على مبدأ وحيد هو السعادة أو العقل ، يقول الدكتور وارز (والحقيقة أنه لا تكفى فى توجيه ارادتنا أن ترجع إلى قاعده عامة بل اننا نحتاج إلى الجمع بين الشرطين : بين مثال أعلى يأتينا من مصدر علوى وبين الحقيقة الواقعة التى نعش فى وسطها . ومهمة الضمير

---

(١) من بحث للدكتور : محمد زكريا البرديسى « حقوق المرأة فى الشريعة الاسلامية » .

الأخلاق أن يكون همزة الوصل بين المثالى والواقعى . وبين المطلق والنسبى ، بحيث يتحقق للفعل الاخلاقى الثبات الذى يميز كل قانون عام والتنوع الذى يلازم ظروف الحياة ويشعر الانسان بذاتيته وبحريته فى التصرف » .

والالزام الخلقى فى القرآن يقوم على مراعاه هذه الحقيقة المزدوجة .

فلنسمع إلى القرآن « فاتقوا الله ما استطعتم » اعملوا ما يتراءى لكم أنه الاحسن بحسب وحى الساعة . ليس فى الصيغه صفة الأمر الصارم الذى لا يقبل استثناءاً ولا تعديلا فهو لم يحدد تحديداً صارما ولا يترك الحبل على الغارب ، ومع ذلك فقد جمعت بين الاتجاهين ، من هذه الكلمات الموجزه يدعونا القرآن إلى أن توجه انظارنا نحو الله وان نطيع أوامره وان نعمل مافى وسعنا للتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الحقيقة الواقعة .

وبذلك يتحقق .

(١) اتصال الحلقات .

(٢) تحقيق الارتفاع نحو المثال الأعلى مع مراعاة ما تقتضيه الطبيعة الانسانية .

(٣) تحقيق الخضوع للقانون مع حرية الارادة .

وان ضمير المؤمن لا يسمح له بان يقوم بافعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة لا محيص عنها وفى هذه الحال لايؤاخذ بما فعل ، كما ان الله يصفح عنه إذا اخطأ عن غير عمد : «وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم » ، وهناك اشياء لم تفصل تفصيلا كاملا وفى هذه الحالة قد نخطىء فى تفسيرها أو تعريفها ، وهذا الاحتمال هو نتيجة طبيعية لبشريتنا القاصرة ولحرية الاختيار والتصرف التى منحنا ها ، وواجب المؤمن هوان يحاول فى حال الشك ان يتبين باخلاص مايتفق مع أوامر الله ، فاذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ما دام قد بذل الجهد الضرورى الذى فى وسعه .

« على ان الأمور إذا التبست عليه فمن الخير ان تتقى الشبهات وقد أكد الرسول ذلك من الآية الكريمة (ولا تقف ما ليس لك به علم) فقال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه وقال : (دع ما يريبك إلى مالا يريبك فان الصدق طمانينه والكذب ريبه » .

ولما سئل الرسول عن تعريف الخير والشر قال : استفت قلبك واستفت نفسك . البر ما اطمانت إليه النفس واطمان إليه القلب والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وان افتاك الناس وافتوك » .

« هذا موقف القرآن من الالزام الخلقى : دعوة إلى اتباع القواعد العامه التى امر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نطاق التفاصيل التى تعرض لنا تبعا لتغير ظروف الحياة » .

« فلا يدعى القانون الأخلاقى فى القرآن ان هناك طريقه واحدة لفهم القاعدة . وأن هناك طريقة واحدة لتطبيقها ، وان هناك طريقة واحدة للتوفيق بينهما وبين القواعد الأخرى ، فالقاعده مهما بلغت من الدقة والأحكام تترك احيانا بعض التفاصيل دون تحديد ، وهنا يظهر مجال الاجتهاد الشخصى والتفكير المستقل الحر والاعتماد على ملكة العقل التى اودعها الله الناس .

« فالمجهود الفردى واجب فى نطاق الأخلاق وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو إليه » .

« والخلاصه ان « القواعد العامة » للاخلاق ليست من صنعنا بل اننا قد تلقيناها من المشرع الاسمى ، ونستطيع ان نستقيها من كتابه العزيز وسنة رسوله» اما «الواجبات الخاصه» فاننا نكيفها تبعا لظروف حياتنا على شرط أن لانخرج عما رسمه لنا المثل الأعلى وان نبذل فيها الجهد لنتبين وجه الحق » والفلاسفه الذين يوافقون مفهوم القران فى ان قوانين الأخلاق عامه لا يتاثر بحدود الزمان والمكان يرون ان الأخلاق اشبه بالمنطق الذى يبحث قوانين الفكر كذلك الأخلاق فانها تبحث قوانين السلوك الانسانى .

ومن هنا نخطىء المدرسة الاجتماعية التى تقول بنسبية الأخلاق ، ذلك لأن الخير والشر وهما قضية القانون الأخلاقى الكبرى لاتختلف باختلاف الحضارات والمجتمعات .

أما فكرة الضمير فإن القرآن لم يوردها . والضمير يربى على أساس معين فإذا ربى على أى أساس انطلق منه .

« وليس الغرض من جهاد النفس أن نمحو من أنفسنا غريزتى الشهوة والغضب إذ أن هاتين الغريزتين ضروريتان للإنسان تساعدانه على جلب النفع ودرء الضرر .

ولكن حسن توجيههما . فالشهوة هى كلب الصيد والغضب هو كلب الحراسة فلا تعلم كلب الصيد أن يخطف الطير الأليف الذى يملكه جارك ولا تعلم كلب الحراسه أن ينبح فى وجه الضيف(١) .

(١٥)

ينكر الإسلام الفصل بين الضمير والدين فى مجموعه .

« ان كلمة الضمير من المصطلحات التى استعملها الغرب حين أراد أن يضع للاخلاق أساسا ومقياسا منفصلين عن الدين ، وجرت المحاولة فى الاستعاضة عن الدين بوحى الضمير وأن يتخذ من وحى الضمير الأساس الذى لايخطىء . ولاريب يختلف الضمير باختلاف الأزمنه أو اختلاف المبادىء أو اختلاف البيئة أو اختلاف المسافات فى البيئة الواحدة . ومن الشبه التى جعلت الناس يؤمنون بمنزله كبرى للضمير أنه قد شاع فى بعض الطوائف أن الضمير قوة قدرية معصومة بطبيعتها والضمير قوة فطرية الا أنها تكون بحسب ماتتغذى به من ثقافة وبيئة ووراثة وهى تختلف فى الفرد الواحد بحسب اختلاف سنه وتنقله من بيئة إلى أخرى وبحسب الكتب التى تمده بالثقافة العقلية أو التهذيب

---

(١) عن بحث الدكتور السيد محمد بدوى .

الروحى . إذن ليس الضمير قوة فطرية معصومة بطبعها بل هو متارجح متقلب لايستقر له قرار »(١) .

اما ضمير المؤمن(٢) « فهو المضاء بتعليم إيجابى محدد فيه الواجبات وتنتظم بصورة واضحة والصفة الرئيسية لمثل هذا الضمير أن يتمثل فى كل حال وأن يراجع دائمـا شخصية مشرعة ولا يعرف أبداً أن يخدع نفسه ولا أن يستسلم للاعتبارات التى يعرف أنها غير شرعية .

(١٦)

يقول الدكتور دراز : يتحدد الإلزام الأخلاقى فى القرآن بشرطين أساسين :
(أولهما) : أن الفعل الذى يهدف إليه يجب أن يكون ممكنا بالنسبة للطبيعة الإنسانيه بصورة عامة (أى خاضع لإرادة الإنسان) .

(ثانيهما) : أن يكون سهل المأخذ فى الحقيقه المطلقة للحياة (أى قابلا للتطبيق وغير عنيف) .

ومفهوم الواجب فى الإسلام يقوم على أساس القاعدة :

(أولا) أن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقـا فاعط كل ذى حق حقه .

(ثانيا) لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه .

والواجب لايفرض على الإنسان إلا فى حدود استطاعته على إلا يرتبط بحالاتنا النفسية أو منافعنا الشخصية فليس هناك أى تكليف مع عدم الاستطاعه (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ـ لاتكلف نفسا إلا وسعها) وليس هناك من أمر حتى الإيمان نفسه لم ينظر إليه إلا على أنه إلزام نسبى وقد ترك الإسلام للمسلم حرية الخيار بعد أن بين له الطريقين تبينا واضحا من ناحية خطرهما

(١) عن بحث للدكتــور عبد الحليم محمود .
(٢) عن الدكتــور دراز .

وأمرها على حياته وعلى جزاءه وترك له أن يختار ما يريد ومنح له سلطة متساوية على الأمرين وهذا غاية عدل الله سبحانه وتعالى . وليس فى أوامر الله إعنات بل رحمة وتخفيف وقبول للاضطرار وفى ضوء هذه القواعد من الإلزام تحقق أمران :

(الأول) أن لا تكون العقائد والأخلاق مجموعة من المبادىء النسبية التى يمكن أن تتطور وتتطور إلى مالا نهاية بل هى حقائق مطلقة ثابتة يأتى الاستمداد فيها من مصدر أعلى .

(الثانى) ان ذلك التوازن يحول دون الصراع والتمزق والغربة والضياع لأنه يجعل العقل والشعور يعملان معا فى اتجاه واحد ويجعل الجسم والروح فى طريق واحد ويلتقى فيه المثالى والواقعى والهدف الدنيوى والأخروى .

« ولما كان من العسيران يقام قانون واحد يمكن أن يفرض بالضرورة على كل الضمائر فقد كان لا بد من اللجوء إلى سلطة عليا تفصل فى النزاع ، هذه السلطة لا تعطى للمجتمع لأنها تتعلق بالأخلاقية لا بالقانون .

وان أحداً ما لا يعرف ماهية النفس أو قانون تفتحها وتكاملها إلا الذى خلقها(١) » .

ولقد هدى الإسلام الإنسان إلى طريق واضح .

ليس طريق اماتة النفس وفرض صنوف العذاب باسم الفناء والنرفانا كالبوذية وليس طريق العدمية وعدم المبالاة تجاه فضائل ومساوىء هذا العالم وليس طريق الاستمتاع بكل ملذات الحياة .

وإنما طريق التكامل والوسطية والتقوى : الجامع بين الاعتراف بالرغبات والدعوة إلى تحقيقها فى إطار من الضوابط الإجتماعية وفق قانون المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى الذى هو مصدر الجزاء فى الآخرة .

---

(١) دكتور محمد عبد الله دراز .

فى ضوء هذه المفاهيم نرى :

(أولا) ان أهمية التفرقة الواسعة والعميقة بين الأخلاق والتقاليد لها أبعد الأثر فى الفهم الحقيقى للاخلاق الإسلامية ، وان الدعوة إلى الفصل بين الضمير والاخلاق عن الدين من زيوف الفكر الوافد ، وان الآفة التى تدخل إلى النفوس لتفسدها هى سيطرة الهوى والخضوع للشهوة والخضوع للإحساس فى الحكم على الامور بانها مصلحة أو منفعة .

(ثانياً) لقد تحدد فى الإسلام الهدف من وجود الإنسان على هذه الارض وهو هدف حقيقى ثابت فيه التزام ومسئولية وليس عارضا ولا صدفة . وإذا كان الفكر المادى قد عجز على اجابة شافية على هذا السؤال ان طلبوا منه ذلك فقد كلفوه فوق طاقته ومهمته ووظيفته ، ان الذين يؤمنون بالعلم وحده لن يصلوا إلى شىء ، ولقد تنبه إلى ذلك ليونارد داروين حين قال :

ان العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإذا كانت هناك ارادة حره فلابد أن يكون هناك شىء خارج العلم .

(ثالثاً) إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بمحض إرادته إلى مجاهدة ميوله ورغباته وضبط دوافعه ونزواته والتحكم فى أهوائه والانصراف فى كثير من الحالات عما يشتهيه والنفور من واقعه والتطلع إلى ما ينبغى أن يكون فى ظل مثل اسمى هو المثل الاعلى الذى يميز الإنسان عن سائر الكائنات(١) .

(رابعاً) إن الإسلام يدعو إلى تهذيب النفس من غير اهمال الجسد : وتهذيب النفس إنما يتقرر فى الاسلام بتقوية إرادة الانسان لتتحكم فى الشهوات فيقوى

---

(١) من بحث للدكتور توفيق الطويل .

الجسم والروح معا ويسيران فى طريق الخير وكل مافى الاسلام من تـكليفات فى حدود الطاقة الإنسانية وكل تـكليف فيه نوع من المشقة ولـكنها محتملة وأدنى مافى التـكليفات من مشقات : رياضة النفس على ترك الممنوع والاخذ بالمشروع (حفت الجنه بالمكاره وحفت النار بالشهوات) ومصادر العصيان هى فى اتبـــاع الهوى والشهوة وأسباب الطاعات فى قطم النفس فتـكون الشهوات خاضعة لها .

(خامساً) أهميه تربية الارادة فى الاسلام تهدف إلى أن يصبح الانسان قادرا على القيام بالتـكاليف والعزائم وخاصه منذ الطفولة ، والضبط رياضه نفسية ، ولما كان مناط المسئولية هو الارادة ، فلا بد من بنائها حتى لا يسقط الانسان ذليلا تحت سنابك الاهواء والارادة هى الفارق الحاسم بين الانسان والحيوان والعبادات وسيلة لمعاونة الفرد على تربية الارادة والوازع الخلقى موجود فى أعماق النفس الإنسانيه .

(سادسا) حرص الإسلام على ألا يظهر الخبث بل يستر عن الانظار ، لذلك حث ألا تعلن الرذائل بل تخفى ، وتعلن الفضائل ولا تخفى (وهذا هو عكس مفهوم القصة والرواية المسرحية) فلاتنكشف استار الجريمة على الناس ولا تظهر إلا ومعها عقوبتها لان اعلانها مجردة عن العقاب يفسد الجو الاجتماعى ، وظهور الشر يغرى باتباعه ، فاذا أعلنت الرزيلة من غير عقوبتها كان ذلك تنبيها وتعليما للاشرار ، لذلك كثيرا مانجد جريمة وقعت وهى محاكية لجريمه أعلنت من قبل . وكثيرا مايصرح الاغرار بان ما ارتـكبوه تعلموه من صحيفة أو إذاعه . وقـد اعتبر الاسلام إعلان الجريمه جريمـة مقترنة بهـا (جريمه الفعل وجريمه الاعلان) .

ونها الاسلام عن المجاهرة :

وهى فى امر الذين يعملون عملا بالليل فيسترهم الله فيصبحون فيعلنونه .

(سابعاً) أكبر الخطأ هو اخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعيه والتجريبية وقد قررت الحقيقة العلميه الاصيلة : ان العلوم الطبيعيه لا تستطيع أن تدرك كنه الدين أو الأخلاق فى مجالاتهما الروحية الإجتماعيه لان العلوم الطبيعية مادية لاتستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس .

وفى نظام الكون وفى طبيعة النفس البشريه احساسات ومشاعر لاتخضع لذلك .

* * *

الباب الثانى

الإنسان

مع الآخر

أولا : فطرية الأسرة فى مواجهة نظرية دوركايم .

ثانيا : حقيقة دور المرأة فى المجتمع .

ثالثا : الاعتراف بالرغبات فى مواجهة الكبت .

لكى يواجه الإنسان المسلم علاقته من الآخر يقوم إطار جديد من العلاقات والضوابط ، حيث تبدأ الرابطة الأولى بين الرجل والمرأة ويتشكل بناء الأسرة وإنجاب الأبناء وإقامة المجتمع الصغير وتحقيق الذات من حيث النسل ومن حيث تحقيق الرغبات الغريزية الطبيعية القائمة فى كيان الإنسان ، وعن طريق المرأة يجد الرجل السكن والطمأنينه والمودة والرحمة ، ثم تتسع دائرة الأسرة فتشمل الآباء والأبناء ومنها تصل إلى المجتمع ، فيكون دعامته ويكون المجتمع عاملا على إقرارها .

هذه العلاقة بين الإنسان والآخر تقوم على أساس الفطرة ونجىء الأديان السماوية المنزلة فتنظم هذه العلاقة وترسم الطريق الطبيعى للعلاقات ولحركة النمو الذى يقوم على أساسها واستمرارها بناء الخليقة نفسها .

ثم جاءت العلوم الاجتماعية بأهدافها ومتطلعاتها لحاولت أن تشيع الشكوك والريب حول نظرية الأسرة ، وجاءت نظرية فرويد تبنى للجنس مفهوما يقوم على أساس الكبت ثم جاءت العلوم الاجتماعية لتتحدث عن نظرية تحرير المرأة على نحو يتعارض مع حقيقة دور المرأة فى المجتمع ورسالتها الطبيعية .

الفصـــل الأول

فطرية الأسرة فى مواجهة نظرية دوركايم

لاريب ان نظام الأسرة من الأنظمة الثابته فى المجتمع الإسلامى ، ويرجع ذاك إلى أنها الفطرة التى لايختلف معها العقل وأنها النواة الأولى لتشكيل المجتمع والخلية الأولى فيه ومن هنا فإن تكوين المجتمع ودراسته لاتكون صحيحة إلا على أساس بناء الأسرة ولقد أكدت الشرائع السماوية وفى خاتمها الإسلام أن الأسرة هى الفطرة [ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة] .

[والله جعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة] .

« وقد أرسى الإسلام بناء الأسرة على الدين ، أى طاعة الله وتقواه ومراقبته والتقيد بأمره وحلاله وحرامه فى كل شىء » . ومن أجل ذلك جعل الزواج نظاما أساسيا له ضوابطه وقوانينه ، وحدوده وأوضاعه وذلك حتى يتأكد هذا البناء ويقوم على الأحكام ومن هنا فإن الدعوة إلى معارضة نظام الأسرة وإثارة الشبهات حوله والقول بانه مضاد للفطرة هو من المحاولات الخطيرة التى تستهدف هدم هذا الجدار الضخم الذى يقوم عليه بناء المجتمع .

ولا ريب أن أزمة المجتمع الغربى وأزمه الإنسان الحديث وحضارته تتصل إلى حد بعيد بالإنهيار الذى حدث للأسرة نتيجة عوامل متعددة منها انصراف المرأة عن البيت ، وفساد نظام الزواج ، وظهور التقاليد والعادات الخطيرة التى أثرت على هذا النظام ومنها نظام صديق العائلة والخلائل وإتساع نطاق البيوت المستحدثة والخاصة خارج عش الحياة الزوجية .

ولقد كانت مدرسة العلوم الاجتماعية من وراء الدعوة إلى تحطيم الأسرة

بازدراء أنظمة الزواج وضوابطها المشروعة والدعوة إلى العلاقات الحرة والحملة القاسية التى تصف الزواج بانه نظام عتيق ومحاولة القول بإجراء التجارب بين الرجل والمرأة قبل الزواج الشرعى وغير ذلك من أساليب ودعوات شجع عليها ومهد لها تيار ضخم من الفلاسفة والفكر الاجتماعى المنحلل الذى حمل لوائه الفلاسفة اليهود ووسد لذلك سيل جارف من القصص والروايات التى تدعو إلى التحرر من نظام الزوجية والأسرة وتدعو إلى الانطلاق وإلى ظهور المرأة التى يتصارع عليها الرجال والدعوة إلى تصوير الحياة الزوجية بانها تصل إلى حالة تقتضى التغير وغير ذلك من المحاولات التوجيهة المسمومة التى تبثها التلمودية الصهيونية من خلال القصة ، وقد زاد هذا الاتجاه حدة بتاثير نظرية فرويد فى الجنس وسيطرتها على ذات العالم الروائى الخطير البعيد الأثر فى العالم الواقعى .

* * *

والإسلام «لايعترف باى نظريه عن تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الأولى ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادى ، إذ أن القرآن تخبرنا أن الأسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الأجيال .

وقد فشلت كل النظم المفتعلة فشلا ذريعا ، وكل محاولة منحرفة للقضاء على الأسرة وكل تجربة لشل الأسرة سيكون مصيرها الفشل وإن نجحت نجاحا جزئيا » .

« ولو لم تكن الأسرة(١) صادرة عن الفطرة الكامنة فى الطبيعة البشرية لاستطاعت المحاولات المنكرة على مر التاريخ أن تقضى عليها فقد عمدت النظم السياسية على مر التاريخ إلى القضاء عليها بمحاولات مختلفة ، ومنها استقطاب ولاء الفرد للدولة ، ولم يكن الاسرة دور فى جمهورية أفلاطون . كما حاولت كثير من الفلسفات والنظم السياسية أن تجتذب الولاء من نطاق الأسرة كالمزدكية

---

(١) دكتور عثمان خليل عثمان .

فى القديم والنازية والشيوعية فى التاريخ الحديث وكان الهدف هو خلق الولاء المطلق للدولة للتقليل من أهمية الأسرة .

وقد استهدفت هذه المحاولات إلى تخطى الكيان الاسرى والنخلاص منه ، واقامة العلاقة بين الفرد وبين المجتمع رأسا . غير أن هذه المحاولات لم تحقق نتائج ذات أهمية وبقيت الأسرة وستبقى صامدة فى وجه مختلف هذه التيارات التى تتمثل فى المجتمعات الرأسمالية فى محاولة اعتبار الزواج مجرد رابطة عقديه مدنية كسائر العقود المدنية وتحريرها من السند الدينى والعقائدى ، بينما فى المجتمعات الشيوعية والماركسية تحاول المذاهب ان تسقط الأسرة عن طريق إعلاء شان المجتمع حيث يجرى تجاهل الأسرة والضغط عليها حتى تزول ، ولا تكون فاصلا بين الفرد والدولة « وحتى لاينال التعلق بها والارتباط بعواطفها من تعلق الفرد بالجماعة الكبرى وولائه لها » ويجرى هذا مع نفس الاتجاه الذى رسمه أفلاطون فى الجمهورية « من أنه خير للشباب من ولادتهم أن ترعاهم الدولة بدلا من الوالدين »(١) .

ولقد كانت هذه المحاولات التى ارتبطت بالعصر الحديث والحضارة فى الغرب بعيدة الأثر فى الأخطار التى تعرضت لها الأسرة والتفكك الذى أصابها ، وكان مصدر ذلك كله هو محاولة القضاء على فطرية الأسرة وتصويرها بانها كيان يمكن تجاوزه وقد شارك المجتمعين الغربى والماركسى فى هذا المفهوم وهذه المحاولة وإن اختلفت التفسيرات .

وكان أخطر هذه المحاولات « تغيير » وظيفة المرأة وهدم وظيفتها الأصلية ودفعها إلى مجال الحياة الاجتماعية والعملية دون تقدير لأهمية دورها فى التربية وبناء الأسرة ودعم هذه الخلية الاجتماعية الهامة .

ومن هنا نجد محاولة دوركايم الواضحة إلى هدم الأسرة :

أنه لايعترف أن الكيان النفسى للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية بل العكس

---

(١) دكتور عثمان خليل عثمان .

فى نظره اقرب إلى الصواب يقول : إن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسرى بوجود العواطف التى يكنها الآباء للأبناء ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التى يحققها لكل من الزوجين وفروعهما والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم ، ويصل إلى القول بان بعضهم أراد تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو .

ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان(١) .

ويقوم هذا المفهوم على ثلاث أسس :

(أولا) فكرة التطور المطلق الدارونية التى تلغى فكرة الثبات .

(ثانيا) فكرة الجبرية التاريخية التى تلغى إرادة الفرد .

(ثالثا) تفسير الانسان تفسيرا ماديا بل حيوانيا .

أما ما يورده دوركايم عن ان التاريخ يوقفه على أن هذه النزعات ليست فطريه فى الإنسان فهو مالم يتعرض له أو يضرب عليه الأمثلة .

غير ان المفهوم هو ان دوركايم تلميذ المذهب الماركسى وان المدرسة الاجتماعية تقوم على أساس التفسير المادى للتاريخ وتذهب إلى إلغاء الأسرة أو العمل على الغائها من أجل اعلاء شان المجتمع وهو بذلك يتجاوز الفطرة وسنن المجتمعات الأصيلة . ووفق هذا المفهوم يمكن تفسير الأزمة التى تمر بها الأسره الغربيه والمجتمعات الغربية بشقيها .

(٣)

إن مفهوم المدرسة الاجتماعية ليس هو التفسير الوحيد وليس هو التفسير الصحيح ، ولكنه هو التفسير الشائع التى تعمل كل القوى على فرضه ونشره على

---

(١) عن كتاب التطور والثبات والنص من كتاب دوركايم قواعد المنهج فى علم الاجتماع .

مختلف مناهج الجامعات والدراسات ومحاولة تصويره بانه منهج علمى ، فى حين انه ليس أكثر من مجموعة فروض فلسفية يقوم على أسس فروض امتدت من مذهب دارون، وفروض امتدت من التفسير المادى للتاريخ ، وفى مقابل مفهوم المدرسة الاجتماعية ابحاث اخرى أكثر عمقا ، وأصالة فى ميدانها من حيث أن حملة لوائها أطباء وعلماء بيولوجيا ورجال يخضعون فكرهم للعلم التجريبى ، وليسوا فلاسفة اصحاب فرضيات مادية فحسب ، ولقد ظهرت هذه الدراسات التى تنقض نظرية المدرسة الاجتماعية فى بيئتها ومجالها وعصرها ، ومع ذلك فهى لا تحظى بالشهرة والانتشار مثل ما تلقى نظريات دوركايم الفيلسوف اليهودى .

ومع تجاوز نظريات المدرسة الاجتماعية للفطرة، وبروز التطبيقات فى المجتمع الغربى بوضوح فان المسلمين والعرب فى أفق الفكر الإسلامى لم يحسموا موقفهم .

وأمامنا صور متعددة لا تتوقف مما أصاب الأسرة الغربية من تفكك يهدد بالقضاء على المجتمع باسره .

تقول مجلة تايم :

ان الأسرة الأمريكية غارقة فى شتى ضروب المشاكل الاجتماعية مما أصبح يهدد مستقبل الأمة الأمريكية باسرها ، فقد جرى بحث نحو اربعة آلاف متخصص فى شئون الأسرة والطفولة .

وكانت نتيجة البحث أن الأسرة لم يعد لها الآن وظيفة ولم تعد بالضرورة الوحدة الأساسية فى المجتمع وان تحلل الأسرة ينتهى إلى تحلل المجتمع باسره وان هـذا هو شبيه بما حدث فعلا فى اثينا فى القرن الذى أعقب الحرب البولونيزية وفى روما فى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد ، وتتساءل مرجريت ميد (من أشهر علماء الانثرولوجيا) هل ستبقى الأسره ويجيب (ريتشرد فارسون) انه لم يعد للاسره وظيفة .

وهذه هى النتيجة التى يتحقق بها هدف بروتوكولات صهيون وحين ينقل

هذا الفكر الواحد إلى محيط الفكر الإسلامى ويقدم هذا الزيف كله ليطرح فى أفق المجتمع الاسلامى يظهر الهدف واضحا وهو تقويض الأسره كمقدمة لتقويض المجتمع ، ولا ريب اننا نعرف أن طبيعة المجتمع الاسلامى تختلف عن طبيعة المجتمعات الغربية من حيث تكوينها ومن حيث مفاهيم الزواج والطلاق والعلاقة بين الرجل والمرأه . ومسائل الزى والزينة .

* ويؤمن الفكر الاسلامى ان الأسرة هى البؤره الوحيدة لتشكيل الحياة العاطفية والجنسية والاجتماعية للمتزوجين ، وان الخلل يأتى من خرق هذا الجدار ومن انشاء علاقات جنسيه خارج الاسره ، ومن وراءها وشيوع ذلك سواء بالنسبه إلى حياه ما قبل الزواج أو بالنسبة إلى فترة الحياة الزوجية وكل هذا ولا ريب اضعاف للأسرة وافساد لتكوينها .

ولا ريب ان نظام الأسره فى أمة ما يرتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات هذه الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقى وتاريخها وما تسير عليه من نظم فى شئون الاقتصاد والسياسة والتربية والقضاء (١) .

(٣)

اقام الاسلام الأسرة على مفهومها الصحيح : حين قرر ان الأسرة هى الفطرة وان اللقاء بين الرجل والمرأه سكن ومودة ورحمه ، وان طبيعة البشرية قائمة على هذا اللقاء من أجل دوام الاستمرار والعمران ولذلك فقد قرر الاسلام ان الزواج سنة وان من رغب عن هذه السنه فهو ليس مسلما . ولما كان هذا اللقاء الذى فرضته طبيعة الرجل وطبيعة المرأة لابد أن يتم وقد اعترف الاسلام بهذه الرغبة الصحيحة فإنه قد رسم لتحقيقه وتنفيذه اطاراً واسعا محكما احاطة بكل عوامل القوة والمحافظة وحماة من الاخطار ولذلك فان الخروج عن منهج الزواج فى العلاقة بين الرجل والمرأه هو أول المخاطر .

---

(١) دكتور على عبد الواحد وافى .

ولم يقف النظام الاسلامى عند الزواج وحده ، بل رسم خريطة كاملة للصلات المختلفة المتعددة بين الرجل والزوجه وبين كل منهما وبين الأبناء وبينهما وبين الآباء وعنى بالطفل وهو جنيين فى بطن أمه فاقام له نظاما كاملا : شرع للام الفطر فى رمضان إذا خشيت عليه ، وإذا ولد فيسمى باحسن الاسماء ، ويكرم ويحتفل به ، وتقام الاحكام المختلفة لرضاعته وفطامه وحمايته ووقايته حتى يكبر ويأتى دور الوالدين فى إعداده والرحمة به وتوجيهه وتربيته وتعليمه وتاديبه على مناهج مقرآن وفرض على الوالدين حماية الابناء ووقايتهم ووقاية الآباء أنفسهم من خطار التقصير فى إداء هذه المسئولية .

وكشف عن ان الطفل يولد على الفطرة وقد نظم الإسلام كل مايتصل بالشراب والطعام والثياب وحفظ اللسان والبصر والسمع والجوارح والطهور وقضاء الحاجة وغسل اليدين وتدخل فى الثوب مادته ونوعه وتفصيله واستعماله وذلك كله من أجل حماية الإنسان وصيانته وبناء الأسرة وحمايته من الأنهيار والانحراف وأوصى الإسلام بدعوة الأبناء إلى الاخشيشان وتعلم الرمى وركوب الخيل .

وكان عمر يقول للابناء : احشوشنوا وتمعددوا وإياكم ولبس الثوب من الحرير وزى الاعاجم .

وفرض الإسلام على الوالدين معاملة الأبناء بالرحمة والحزم معا حتى لايقعون فى أزمة الاضطهاد أو أزمة التدليل ، وذلك فى إطار ماكره الإسلام لأهله وما أحب ، وبعيدا عن الترف والزينة والاسترخاء والميوعة وأن يتعلم الأولاد الرماية وأن يشبوا على الخير وثبا وتنشئتهم على مكارم الأخلاق والصدق .

وعمد الإسلام إلى دعم روابط الأسرة بين الأب والأم ، وبين الأب والأولاد وبين الأولاد بعضهم بعضا ، وحمى الشيوخ الكبار من الآباء والأمهات وحافظ على كرامه الأسرة وعرض أبنائها .

وجعل الأب هو القدوة الأولى وهو النموذج الحى للابناء وكذلك الأم بالنسبة للبنات وجعل رقابتهم دائمة وحوارهم دائم فى كل الأمور فى نطاق المحبة

والحرص كما نظم الإسلام قاعدة الارتباط تشريعا بإيجاب النفقه والبر والوصية والميراث وأقام قاعدة العلاقه بين الرجل والمرأة : على الموده والرحمة وفرض على الأبناء البر والاحسان بالوالدين وقرن العبودية لله وتوحيده بطاعه الوالدين ودعا إلى رعاية الأخوة ذوى القربى .

وأقام منهما كاملا واسعا مرنا لدعم هذه الخلية الأساسية وحمايتها وقرر أن المجتمع لايمكن أن يقوم على أساس صحيح إلا إذا صح نظام الأسرة وكانت المجتمعات قبل الإسلام يتزوج المرأة أما لمالها أو لجمالها أو لحسبها فجاء الإسلام فدعا إلى زواج المرأة لدينها .

وحرص على هذه العلاقة العميقة بين الزوجين وحماها (علاقة الافضاء بين الرجل والمرأة) ودعا إلى التخير فى الزواج وجعل هذا من حق الآباء على الابناء .

ومن هنا كان حذر الإسلام من الزوج بالأجانب .

وقد جعل الإسلام المرأة عماد الأسرة ونقطة الارتكاز فيها ودعا إلى ضرورة تعليمها وإشراكها فى حياة الأمة ودعا إلى بذل عناية مضاعفة فى تربيتها حتى تكون فاهمة لدورها مؤمنة بمسئوليتها وواجبها مفرقة بين الرجولة والأنوثة. وذلك فى ضوء مفهوم القرآن حتى لاتقع ضحية التقاليد أو أخطار المناهج الوافدة أو عادات وتقاليد المجتمع الضارة .

والإسلام هو أول من أعطى المرأة حقوقها الكاملة التي لم تحصل على بعضها فى مجتمعات أوربا وأمريكا إلا فى العصر الحديث .

ولقد عرف الغربيون أخطار الأنظمة التى خرجت عن مفهوم الدين والتى افسدت الأسرة ومنها ظاهرة المخادنة والمصادقه في المجتمعات الاوربية .

وقد أشار برتراند برسل إلى ذلك حين قال : هناك شرط مهم يساعد على دعم الحياة الزوجية هو خلوها من النظم التى تسمح بالمصادقة والمخالطة بين المتزوجين من الرجال والنساء سواء فى العمل أو فى المناسبات والحفلات .

« إن العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من رجال ونساء خارج دائرة الحياة الزوجية هي سبب شقاء الازواج وكثرة حوادث الطلاق وليس عسيرا أن نجمع أمثلة كثيرة عن البيوت التي انهارت بسبب إتصال الأزواج والزوجات بغير شركائهم في الحياة الزوجية » .

ومن هنا فلا ريب في أصالة نظام الاسرة ومن هنا جاءت صلابته في مواجهة الاحداث وفطرية نظام الاسرة لاتأتى فقط من غرائز الجنس « وإنما تأتى من عوامل كثيرة متعددة من عواطف الامومه والابوة المتعددة من مودة وحب ورحمة »(١) .

ويرى كثير من الباحثين مدى أهمية نظام الميراث الإسلامى فى دعم كيان الاسر « فقد حفظ المودة بين الاجيال حيث فى الإسلام لا يقتصر الأرث على الابن الاكبر (كما فى الغرب) بل يمتد إلى العصبيات واصحاب الفروض وذوى الارحام .

ويقرر كثير من الباحثين أن المجتمع مسئول عن حماية الاسرة وتوفير أسباب الاستقرار ومساعدتها على القيام بدورها واداء وظيفتها » .

ولقد كان لتنظيم الاسلام للروابط المتعددة داخل الاسرة أبعد الاثر فى حمايتها من الصراع الداخلى ومن التمزق فقد أقام نظاما لكبار السن ولمطالب الشباب ولحاجات الاطفال والتكافل الاجتماعى والفقراء والبعداء . أما فى الغرب فقد سقطت هناك دعامات من أخطر دعائم الاسرة :

(أولا) سقطت علاقة الآباء بالابناء وتوقف الآباء عن تقديم المعونة لأبنائهم .

---

(١) دكتور عثمان خليل : بحث عن الاسرة (مجلة الوعى ١٩٧٢) .

(ثانيا) سقطت الغيرة من الرجل لزوجته فاصبح لايبالى علاقاتها الخاصة .
(ثالثا) سقطت علاقه الابناء بالاسرة وجرت العادة على الانفصال السريع .
(رابعا) تشوهت نظرة الاسرة إلى الاب ووجهت إليه كثير من سهام النقد .

(٤)

إن المحاولات التى ترجمها القصص والمسرحيات الخاضعة للتحليل النفسى الفرويدى والابحاث التى تسوقها مدرسة العلوم الاجتماعية ونظريات الوجودية وغيرها عن الادب ، إنما تستهدف إسقاط هذا الركن الركين فى بناء الاسرة .

والواقع أن هناك حملة قاسية فى الغرب على وجود الاب فى الاسرة ومحاولات متعددة لسحب مقعده فإذا عرفنا الهدف من ذلك كنا أكثر يقظة لفهم هذا المحظور .

ذلك أن الهدف الذى ترمى إليه بروتوكولات صهيون بشان الشباب هو عزلهم عن الآباء والاساتذة وكل مايتصل بالتجربة أو الخبرة فى محاول لكسر الارتباط الزمنى والامتداد الاجتماعى والاتصال الحضارى بين الاجيال .

ومن هنا وصفت هذه التجربة والخبرة بكلمة الوصاية البغيضة ، وصورت سيطرة الاب وتوجيهه بانها من أعمال التخلف والرجعية ، ورفعت إعلام الحديث عن حق الابناء فى الحرية الكاملة فى الاختيار والعمل والقبول والرفض بدعوى أن توجيه حيواتهم من شانه أن يحول دون استكمال بناء شخصياتهم . !

ولقد حرصت مناهج الإسلام على تكريم الاب ووضعه فى مكانه الصحيح من القيادة وحالت دون تعدد مراكز السلطة داخل الاسرة بين الوالدين أو الاخ الاكبر ايمانا بان ذلك من شانه أن يحفظ الاسرة من التمزق والحيرة وتشتت العوطف وتبدد الامن النفسى الذى يستمده من وجود الاب فى مكان القيادة وباعتباره

---

(١) من بحث لمحمد همام الهاشمى عن الاسرة .

المصدر الأساسي للسلطة ولما كان الأب هو الذي يضع أسرته في المجتمع ويحدد مكانها في النسيج الاجتماعي فانه من المستحيل هدم هـذا الدور أو إقصائه لا بتزييف خطير.

ولقد يكون مصدر كثير من الخطر على هذه المكانة ما يتجاوز له بعض الآباء مسئوليتهم ويفرطون في أداء دورهم على الوجه الصحيح مما يفرض نفوذا آخر للأم أو للأخ الأكبر ومما يهدد كيان الأسرة ويزيل أمنها النفسي ويشتت عواطفها.

وكذلك حدد الإسلام مسئولية الآباء في تنشئة أبنائهم وتبصيرهم بمستقبلهم، والعمل على اكتشاف ميولهم ومواهبهم، وحث على أن يعامل الابن معاملة قائمة على الأمن والخوف معا، وعلى الابوه والاخوة معاً، ولكنها قائمة على الثقة على كل حال مما لا يوجد خلقه مفقودة أو أرضا محروقة بين الآباء والأبناء، فيلجأ الابن إلى أبيه ويداوم الأب سؤال ابنه ومحاورته في كل قضايا حياته يوما بعد يوم، هذا الجو من الحب الذي ينشأ فيه الأبناء يجعلهم أحسن حظا، وأسعد مستقبلا، ولذلك فان على الآباء والأمهات إلا يظهروا خلافاتهم ولا يكشفوا الخلافات والخصومات التي تقسم الأبناء بين مؤيد أو معارض، فان تكرار ذلك من شانه ان يخلق روح عدم الثقة ويزعزع الطمأنينة ويرسم للمستقبل سحبا راكدة، وعلى الأب أن ينمي في ابنه رغائبه ويدفع به إلى الإمام بتربيه روح الثقة في نفسه واكتشاف ميوله ومواهبه وإرشاده إلى الطريق الصحيح.

فإذا أراد الشاب أن يقدم رأيا في مساله ما تتصل بحياته في البيت أو المدرسة يسمع له في رفق ويستجاب له بما يعالج المحاذير التي تعرض ولا يواجه بعنف، أو يقال له أنه تدخل في غير ما يعنيه فان ذلك التصرف من شانه أن يخلق فيه طابع الانطواء الذي يجعله عاجزا عن المجاهرة برأيه وفكره.

ولقد يفسح للشاب أو للفتاة أفق التفكير الحر والحوار على أن يجري ذلك كله في اطار المحبة والود والاحترام للاباء.

ولقد دعا الإسلام الآباء إلى معاونة الابناء على اكتشاف ذواتهم وحمايتهم من صدمات الحياة وتامينهم من الفشل فى المستقبل وقد قام كثير من الباحثين فى العصر الحديث (ومنهم دكتور ستانلى كوبر سميث) بدراسة عدد كبير من الرجال والنساء الذين صادفوا نجاحا فى حياتهم فظهر ان العنصر الأساسى الذى يشترك فيه هؤلاء هو معونة الآباء لابنائهم فى اكتشاف أنفسهم وتقدير ذواتهم فيما فشل فيه غيرهم .

ولما كان هذا الدور الهام الخطير كله موكول إلى الأب ، وكان الاب هو مفتاح شخصية الابناء فان مدرسة العلوم الإجتماعية تحمل عليه حالات عنيفة وتثير عليه أبنائه حتى تفسد وجوده وكيانه ، ولقد وصلت هذه الحملات إلى قول بعض الفلاسفة الاجتماعيين أن الاب هو أكره الشخصيات فى الاسرة وأكثرها شراً .

ولكن شخصية الأب فى المجتمع الأوربى قد عجزت فعلا عن أداء دورها وبذلك استوجبت كثيراً من اللوم ، لقد انصرف الآباء إلى اهوائهم الخاصة وأقامه علاقات الاسرة خارج وبذلك أفسدوا إتجاه الإم وشكلوا للابناء صورة مزورة وبذلك ينحر النموذج وتلاشى المثل القدوة الذى هو فى نظر التربويين اخطر أثراً من المعلم ومن النموذج التاريخى .

نعم ، لقد فسد النموذج الأبوى الغربى وكاد النموذج الابوى الشرقى أن يفسد نفس الإخطار والمحاذير التى يتعرض لها الآباء فى الغرب والتى هى التقصير فى أداء المسئولية الكبرى والإنسحاب من قاعـــدة المواجهة فى الاسرة ومن الإشراف والرقابة بروح المحبة والحزم فى نفس الوقت .

ولا ريب أن لإنصراف المراه إلى العمل واخلاء مكانها فى الأسرة ابعد الاثر فى قيام فراغ رهيب لا يمكن ملؤه باى عامل آخر أو وسيلة أخرى ، ذلك هو الحنان الامومى مع الرعاية الابويه المنسحبة من مكان القيادة .

ومن هنا جاء تلك الازمة الخطيرة : أزمة الابناء الذين لا يرون آباءهم

ولا يجرون معهم حواراً واسعا وإنما يلقونهم فى اعقاب سهر طويل أو نوم طويل وهم فى حالة من حالات الفساد الفكرى والاضطراب العصبى وعدم القدرة على اعطاء القدر الكافى من المودة والإستجابة والمراجعة للقضايا النفسية والاجتماعية المثارة يوما بعد يوم .

ولقد حرصت حملات الغزو الفكرى على الاستفادة من هذا المفخر بتلك الحملات التى تركز على افساد العلاقة بين الآباء والأبناء والقضاء على الثقة بينهما وخلق روح من الشك واستنقاص الإحترام وخاصة ما تحاول بعض القصص من تصوير الأب بصورة شرسة ، ويرجع هذا بالطبع إلى تجاوز الآباء لحدود مهمتهم ولخطاهم فى عدم مصادقة ابنائهم .

ولقد اراد بعض الآباء الذين فسدت علاقتهم الاجتماعية وأقاموا لهم علائق خارجة على أن يبرروا موقفهم هذا بقولهم أنهم إنما يتعاملون مع أبنائهم على أحدث مناهج التربية وهى اطلاق الحريات للابناء لاختيار الوسائل والطرق التى ونها دون تدخل .

وهذا زيف كبير وتمويه خطير فان اطلاق الحريات هو أساس من أسس الإسلام فى التربية ولكنه لا يجيء إلا بعد مرحلة بناء القاعدة النفسية والإجتماعية للشخصية وبعد إقامة الركائز المدعمة التى تمكن الشباب من الفهم والحكم والإختيار إما أن تدفع بالأبناء إلى الاختيار فى أول الشوط دون أن تعلمهم العلوم فى الحجج الجياه أو تطلعهم على الأساليب أو تحيطهم على بالمخاطر أو تحذرهم من الأخطار فان ذلك معناه الوحيد هو جريمة القاء الأبناء فى النار التى تحرق واليم الذى لا يعود .

ومهما يكن وراء الآباء من مسئوليات على أخطر مستوى فانها لا تبرر مطلقا هذا الموقف ولا تمنع من المحاسبة على هذا التجاوز الخطير للمسئولية الاولى الخاصة ببناء الابناء ودعم الاسرة .

وإذا كان فى الإمكان ان تكون الرعاية الأبوية يسيره فى عصور ماضية فى ظل عوامل مختلفة تخلق الشخصية وتحميها فإن عصرنا هذا بمحاذيره واخطاره المدرسة والشارع والصحيفة والسينما والقصة ، إنما يستدعى المتابعة والإجابة عن عشرات الأسئلة اليومية التى عندما يعجز الشباب على الحصول على اجابتها مصدر الثقة وهو الأب أن يلجأ إلى مصادر أخرى ربما أدت به إلى الانحراف كذلك فان مهمة الأب أساسا أن يبنى زوجته على قيم الإسلام ويشكلها فى اطارة ، وذلك حتى لا تختلف وجهات النظر فتخلق الحيرة فى نفس الشاب الذى يجد اجابة مختلفة للشيء الواحد عند الأب والأم بل ربما وجد الغمز والسخرية من كل منهما بالآخر ، وقد أثبتت التجربة أن الأبناء الذين ينشأون فى أسرة ذات عقائد راسخة كأنما ما كانت يكتسبون الكثير من وراء هذه البيئة ، كذلك فإنه إذا قامت دعائم الثقة بالحب والاحترام معا بين الأب والابن فان أى خلاف قديقع وسيقع خلاف كثير فى وجهات النظر فان ذلك سوف لا ينقص مكانه الأب فى نظر ابنه وسيظل معترفا له بالفضل والاحترام .

ولقد دعى الإسلام إلى هذا المعنى وطالب بتربية الأبناء ليس على آراء الآباء ولكن على الأهداف الثابتة للاسلام نفسه ، فنحن لا نربى جيلا على مفاهيم جيل آخر ، فإن من شان الأجيال التجاوز والخطا ، ولكن على كل جيل أن يعاد به إلى الأصـــول والمنابع الأصيلة ، إلى القرآن نفسه الذى يعين تشكيل الأجيال فلا يكون الأبناء ممن وجدوا آبائهم على أمه فكانوا على أثارهم مقتدين ولا يخلق ذلك عندهم حقد أو كراهية .

ـ (وإن جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) .

أى إن يتصحح الطريق انما يكون بالرجوع إلى الأساس الثابت الأصيل ، دون ان يترك فى نفس الأبناء ثره أو خصومه للاباء الذين ربما قد أخطأ والطريق أو فشلوا فى الوصول إلى الحقيقة .

إن الإسلام يدعو إلى الآباء إلى بناء أبنائهم ليس على مفاهيمهم أو تطبيقاتهم ولكن على أهداف وقواعد وشرائع الإسلام الأساسية .

وفى ظل هذا المفهوم يجد الأبناء اليوم الإجابة عن السؤال الحائر : لماذا لم يحقق آباؤهم فى هذا الجيل من الأعمال ما يحول دون الاخطار التى وقعت ، سوف يجد الأبناء ان آباءهم لم يلتزموا أصول الإسلام وهذا مصدر الخطأ ، وإن عليهم هم أن يعودوا إلى هذه الأصول فهى وحدها الضوء الكاشف على طريقهم والمحرر لهم من اخطار الواقع القائم الآن .

إن الإسلام فى أصوله وقيمه هو الذى يستطيع أن يبنى طموح الأبناء إلى اقامة حياة أفضل ، وعزائم الإسلام وبنائه للارادة هو وحدة البديل للواقع القائم ولقد يحاول رجال المدرسة الاجتماعية والفرويديه ان يقدموا محاولات خطيرة لتحطيم العلاقة بين الآباء والأبناء

وتصويرهما بصورة السيطرة والوصاية وغيرها من عبارات لاحقيقة وراءها ولا مصدر علمى لها بينما تذهب إبحاث علماء الطب والبيولوجيا وهى ابحاث تجريبية لا فلسفية إلى أن الكثير مما أصاب الأطفال بالمصاب النفسى إنما يرجع إلى ضعف السلطة الأبوية لا العكس .

وقال كثير من هؤلاء الباحثين : الواقع أن منشأ الكثير من الاضطرابات النفسيه لدى الأطفال إنما هو نتيجة الارتياب الذى أصاب الكثير من الآباء حول الطريقة المثلى فى التربية مما جعل الكثير من الأبناء ينشاون فى كنف اسرات يجهل الوالد فيها كل شيء عن التربية . وأنه لو كان لدى الآباء الثقة فى انفسهم لكانوا أقدر على تربية أبنائهم .

ذلك ان الشك الذى يخيم على عقول الآباء سرعان ما ينعكس على عقول الأبناء فلا يلبث الاطفال أن يقعوا فريسة سهلة لوساوس القلق والشك والخوف والارتياب .

وليس أقدر من الآباء والامهات على اعاده روح الثقة بالنفس إلى الابناء ومالم يحدث فسيظل عدد الاطفال المصابين باضطرابات نفسية يتزايد يوما بعد يوم .

الفصل الثانى

حقيقة دور المرأة فى المجتمع

إن الصيحة الضخمة ذات الدوى الشديد فى العالم كله فى العصر الحديث باسم تحرير المرأة لم تكن وجهتها خالصة لدفع المرأة إلى الإمام أو تحقيق رسالتها أو تأكيد شخصيتها بقدر ما كانت دفعاً لها إلى الاتجاه الذى رسمته الحضارة الاهواء والرغبات والقوى الكبرى .

ويمكن أن يقال بأن المرأة من وجهه كونها إنساناً كانت ضحية من ضحايا هذا الاضطراب الاجتماعى الذى ساد المجتمع العالمى والغربى على وجه الخصوص فقد كان الهدف ليس اخراج المرأة من قيودها بل إخراجها من فطرتها ودفعها إلى العمل حيث لا تجد من قواها ما يمكنها وإلى التعليم على مناهج لا تصلح لها ومن التخلى عن مكان السيادة والعمل الحقيقى والمسئولية فى داخل البيت من أجل الأبناء والزوج ومن أجل كرامة المرأة واصالتها .

ومن خلال فهم بناء الإنسان نجد أن المرأة أخرجت عن فطرتها ورسالتها وزينت لها الطريق المؤديه إلى تدمير كيانها وإلى تمزيق الأسرة ، وتمزيق نفسها الإنسانية وإلى التاثير الخطير على المعطيات التى يتطلع إليها الزوج من حيث أن الزوجه سكن ورحمة وعطاء .

ولربما كانت حركة تحرير المرأة فى الغرب تستهدف حقيقة تحريرها ولكن العوامل المختلفة والقوى الخفية حولت هذه الحركة إلى النحو الذى أخرجها من طريقها الأصيل ودفعها إلى مجال التمزق والاضطراب .

« لقد كان من نتيجتها ان تفككت جميع روابط الأخلاق وانحلت عرى

حوافظها المعنوية ، و بدت هذه الكارثة الخلقية التى حلت بالبيوت ، لم يكن الذين يدعون لتحرير المراه والمطالبة باستقلالها يرمون أن يقضوا عليها بان تعيش على هامش الجماعة كما هى اليوم ، خارج دائرة الزوجية وأن تقتصرعلى أن تكون أداة شهوانية فإذا لم تعد تصلح لذلك نبذت إلى عالم الحرمان مع أولادها الطبيعيين وأن تستتبع هذه الاباحه إنتشار العزوبة واقفار البيوت وذيوع الأمراض السرية وقيام نوادى العرى التى يجتمع فيها الرجال والنساء عرايا على حاله تاباها الكرامه الإنسانية .

وحيث كان ينتظر « أن يرتفع مستوى الأداب ورواج سوق الزواج وتوافر أسباب السعادة فى البيوتات ، فان الذى حدث هو تدهور مروع فى الأداب العامة وانتشار مفزع لمبدأ العزوبية وصار من الأمور المالوفه هروب الشابات من دور اهليهن .

« وطمت هذه الأحوال وتفاقمت وأصبحت جزءا من التدهور الأوربى العام الذى أصاب الإنسانيه فى هذا العهد الأخير ، فإذا اعتبرها الاجتماعيون من العلاقات المنذره بقرب انهيار صرح المدينة الراهنة فلم يعدم الصواب لأنه لا يعقل أن تنقلب الحياة الإنسانيه الكريمة إلى مثل هـــذا الحضيض من الدنس والاسفاف .

«وقر فى النفس أنه من الخير الانسان أن يعيش حرا بعيداً عن جميع التبعات لتحصيل على أكبر قدر من المتاع المادى بايسر الوسائل وأهونها عليه فاول ما فكر فيه من الاحايل لجذب النساء إلى هذا المستوى أن نصب نفسه مدافعا عن حقوقهن فاخذ ينشر فى ذلك أقاصيص وكتبا وأكثر من ذلك حين اتخذه بعض الكاتبين ديدنا لهم ومن ناحية أخرى إلى جـــذب المرأة خارج بيتها وقصر سلطانها فاكبر من شان الملهيات والملاعب إلى حد أنه عدها من أركان الرقى البشرى ، واستهتر فى التنوية بالراقصات والممثلات والخارجات عن التقاليد فجعل منهن نجوما وكواكب ، ونشط من حركة خروج المرأه من حدودها إلى حد أنه أقام مباريات لتوزيع القاب ملكات الجمال على اعلاهن كعبا فى تناسب الأعضاء ورضى كل رجل لبناته أن يخرجن عاريات الصدور والسيقان والظهور ،

وان يحاضرن الشباب فى دور معده لذلك ، وأخذ يشجع ذلك بحضوره إليها وتوزيع الجوائز والألقاب على المباريات فيها وزدا فاسس المدارس لتخريج الراقصات والممثلات والمغنيات واظهر فى سبيل ذلك كرما حاتميا حتى قدمه على الضروريات من ضروب التعليم الأخرى ، فعل الرجل كل هذا وهو دائب ليتم أحداث إنقلاب يرجو من ورائه أن يفلت من قيود الاسرة وتكاليفها بما يجده معروضا أمامه مما يقوم مقامها . والمرأة تنقاد له فى كل هذه الإنحرافات خاضعه شانها فى كل ماقادها إليه من المواقف حتى تم له ماأراد .

وإن من الذين يعملون لاحداث هذا الانقلاب رجال لايدركون خطورة نتائجه على المجتمع ، فهم مسوقون بعوامل ليس فى امكانهم أن يدرسوها دراسة تحليله ومنهم مخدوعون فيه يتوهمونه اصلاحا وتجديداً ولايطيعون من يجادلهم فيه فيعدونه رجعيا وهولاء يغدرون شان كل المسخرين فى كل حركه قويه »(١)

ويعنى هذا فى أقل قدر من التعبير أن هناك قوى خطيره كانت وراء حركة تحرير المرأه تريد أن تضعها فى المكان المناسب لاهداف التى رسمتها نظريات العلوم الإجتماعيه .

الهدف هو تغيير قوانين العلاقات الطبيعيه والإجتماعية بين الرجل والمرأه وسوقها فى طريق جديد يخالف مارسمته لها الشرائع والإديان السماويه وإعادة الطوابع الوثنيه والاباحيه القديمه فى صوره لامعه براقة ومن هنا كانت صيحات التبشير بالجنس والمساواة وحق المرأة فى المخادنة والزواج من غير عقد وماتبع ذلك من دعوات إلى اجراء التجارب بين الرجل المرأه قبل الزواج وانكار البكارة والاستهانه بمساله العرض وغير ذلك من قضايا خطيره قصدت أساسا إلى هدم الاسر . وتغيير قوانين العلاقات بين الرجل والمرأة وتبرير ذلك التغيير بنتائج الحياة الحديثه واشتغال المرأة وتطورات المجتمعات فى ظل الحضارة .

---

(١) من نص للعلامة محمد فريد وجدى من حركة تحرير المرأة »

ولكن الاستقراء الحقيقي للدعوة المبثوثه والآثار المترتبه يكشف عن أن هدفها هو افساد الفطرة وتحطيم ذلك الكيان الرئيسى الخطير القائم كقاعده اولى فى النظام الاجتماعى وهو الاسرة .

(٢)

أول هذه القضايا هى محاوله القول بان الرجل والمرأة متساويان فى الخلقه والتركيب البيولوجى والعقل ومن هنا فهى مساويه له فى جميع الحقوق .

ولقد سيقت هذه الفرضيات فى صوره الحقائق المسلم بها غير القابله إلى مراجعه أو الباحثه عن دليل علمى ، وقد ساقها نظريات الفلاسفه الإجتماعيين الذين أقاموا مناهجهم على المادية ، بينما أن أول محاوله للنظر فى علاقات الرجل والمرأة يمكن أن ينظر إليها فى إحترام هو مايعرضه عالم طبيب وباحث بيولوجى تجريبى مثل الدكتور اليكس كاريل حين يقول :

« إن اختلافات الموجوده بين الرجل المرأة لاتاتى من الشكل الخاص للاعضاء التناسليه ومن وجود الرحم والحمل أو من طريقه التعليم إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهميه من ذلك : انها تنشا من تكوين الانسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماويه محدده يفرزها المبيض . ولقد ادى الجهل بهذه الحقائق الجوهريه بالمدافعين عن الانوثه إلى الاعتقاد بانه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما وأحدا وأن يمنحا سلطات واحده ومسئوليات متشابهة . والحقيقه أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لاعضائها وفوق كل شىء بالنسبه لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجيه غير قابلة للين ، شانها شان قوانين العالم الكوكبى ، فليس فى الإمكان احلال الرغبات الإنسانيه محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى ، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فان دورهن فى تقدم الحضاره اسمى من دور الرجل . فيجب عليهن الا يتخلين عن وظائفهن المحددة . أن وجود الجنين الذى تختلف انسجته اختلافا كبيرا عن انسجة الأم ، بسبب صغرها ولانها - جزئيا - ضمن انسجه زوجها يحدث آثراً

كبيرا فى المرأة . ان أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للام لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية . مع ان هذه الوظيفة لازمة لا كتمال نمو المرأة ، ومن ثم فمن سخف الرأى أن نجعل المرأة تتنكر للامومة ولذا يجب أن ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ولا أن تبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم . يجب أن يبذل المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى ، كذا وظائفها الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين ولذلك فلا مناص من ان نحسب حساب هذه الخلافات فى إنشاء عالم متمدين .

« أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية . يجب أن يعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على الحمل فقط . بل أيضا على رعاية صغارها » .

من هذا نفهم أن ما قررته الأديان وما أقامه الإسلام عن الفوارق العميقة بين الرجل والمرأة وعن الدور الخطير الذى تقوم به المرأة من خلال الأسرة والطفولة والزوجية إنما هو الاصالة الحقيقية والفطرة الطبيعية التى كشف عنها العلم بعد أربعة عشر قرناً وان هذا التحول الخطير فى العلاقات بين المرأة والرجل لم يكن إلا معارضة لهذه الفطرة ولهذه الاصالة وقد دفع المرأة إلى طريق مجهول ملىء بالاشواك والاخطار .

كان ثمرة هـــذا التحول هو هدم شرعية الأسرة وقانون بنائها وإقامة العلاقات الجنسية الحرة التى ترفض الأسرة والعقد انطلاقا إلى دعوة خطيرة علت نبرتها تقول بتحطيم قوامه الرجل وجاءت نظريات فرويد وماركس ودوركايم وليفى بريل كلها تستهدف تعميق هذا الإتجاه واعلاء العلاقات التى تقوم خارج الأسرة .

والحضارة الغربية بهذا التحول وهذه المفاهيم إنما تستعيد نفس الطريق الذى سارت فيه الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية وكل الحضارات القديمة .

ودفع المرأة إلى خارج البيت ، وتغيير قوانين العلاقات والروابط بين الرجل

والمرأة ، وأقامتها على غير عقد مشروع ، باعتبار العرض مسألة لا اهمية لها ، الاعتراف بالزنا ، الاندفاع وراء تيار العرى والفاحشة وجموح الشهوات عن طريق المسارح والأزياء والتبرج وانتشار صحف العرى وصوره الملونة ، وانتقاص قدر المرأة المقيمة في بيتها ، اندفاع الرجال إلى أقامه علاقات خارج الأسره ، اذاعة المكشوف ، القصة الاباحية .

وفى هذا الخضم الذى رسمته الأيدلوجية التلمودية خطت العلاقات بين المرأه والرجل خطوات خارج الفطره والدين وحملت الفلسفات والعلوم الاجتماعية مع القصة والمسرح على بث هذه المفاهيم وترديدها حتى إقتنع الناس بها كأنما هى حقائق مقرره .

وحملت الايدلوجية التلمودية فى مجالين : مجال الفكر ومجال العمل والحضارة وكان الفكر بفلسفاته مبرراً للواقع المنحرف .

وكانت المؤسسات القادره على العمل هى السينما والصحافة وبيوت الأزياء والزينة وكلها تعمل على وضع المرأه فى مجال الفتنة والاغراء .

ومن هنا وفى سبيل تحقيق هذا الاتجاه ظهر التفسير الجنسى للتاريخ الذى يقوم على تصور الإنسان كله ووجهته الجنس .

وفى هذا قالت بروتوكولات صهيون : يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا : أن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ويصبح همه الأكبر فى ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

ولقد كان التركيز على علاقات الرجل والمرأه أخطر اهتمامات المؤامره الكبرى ، وكان الهدف هو تدمير الأسره ، وتبرير اقامة علاقات أخرى معارضه تماما للفطره ولما وضعته الأديان أمام الإنسان كنهاج صالح وأصيل لاقامة حياته الخاصة ورغم هذه اللبنة الكبرى و الركيزه الضخمة فى بناء المجتمع كله .

ومن خلال مناهج التعليم لا تعطى للمرأه ذاتيتها ، ومن خلال تشغيل المرأه

من اجل ضمان لقمة العيش ، واحساس المرأة العاملة بشيء من الحرية وتلقينها إنها تكسب مثل الرجل ومن حقها أن تكون حره فى التصرف مثله ؛ كل هـذا خلق جوا من تهديم الأسره وافسادها واعان على ذلك ماحققته فعلا موانع الحمل .

يقول ول ديورانت : ان اختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغيير أخلاقنا فقد كان القانون الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح يؤدى الى الابوه بحيث لايمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج ، أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذه فى التغير نتيجة لهذا العامل » .

كما أشار وات ديورانت إلى أخطار ما فرضته ظروف الحضاره من تأخير الزواج تقريبا إلى سن الثلاثين وإلى أثر ذلك فى الإنسان حيث « لا مفر من من أن يأخذ الجسم فى الثوره وان تضعف القوه على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدوده على قدم المساواه مع الرجال(١) .

تلك هى الصوره فى قناعها بعد ذلك التحول الخطير الذى فرضته مفاهيم فرويد ومدرسة العلوم الاجتماعية .

(٣)

كانت محاولة الغزو الثقافى فى محاولة تدمير الإنسان المسلم ان تطرح هذه الأفكار والقضايا فى افق الفكر الإسلامى وأن تنقل القضية كلها إلى المجتمع الإسلامى دون أن تكون لها خلفيات المجتمع الغربى ولاتحدياته التى فرضت عليه هذا التحول الخطير .

---

(١) من كتابه مباهج الفلسفة .

لقد دخلت المسيحيه إلى المجتمع الغربي وهو مشكل فعلا وقائم فى إطار الحضاره الرومانية وقيمها ومناهجها وقوانينها فكان تأثيرها مختلفا عن مجتمع قام اساسا على الإسلام منذ اللبنة الأولى والفرد الأول ، ذلك أن عالم الغرب ظل مضطرم بالصراع بين فلسفات اليونان وقوانين الرومان ولاهوت المسيحيه .وفى نفس الوقت الذى كان الإسلام يقدم أعظم برنامج إنسانى لتحرير المرأة كانت أوربا تضطرع حول ماإذا كان المرأه روح .

ولقد ظلت المرأة الغربية إلى قريب من الزمان لاتملك من الحقوق التى قررها الإسلام للمرأة منذ أربعه عشر قرنا الاالشىء القليل .

ولكن القوى التى سايرت الحضاره الغربيه الحديثة ونقلتها إلى الإنحراف والتمزق ومعارضه الفطرة والعقل وطبيعة الإنسان قد حولت قضية تحرير المرأة إلى تجاهات أخرى مغايرة لتحرير المرأة ،معيدة إياها إلى مفاهيم الوثنيه المادية القديمه وهى مفاهيم استبعاد المرأة فى عقلها وروحها وجسدها غير ان هذا كله وضع فى العصر الحديث فى صوره زاهيه براقه لها طابع التحرير بمعنى خروج المرأة من البيت وثورتها على الاسرة ومعارضتها لعملها الطبيعى وكان ذلك يعنى تحريرها من كل القيم والمقومات التى رفعت شانها ووضعتها فى مكان الكرامه والآباء .

لقد استهدفت مفاهيم الفكر الغربى الوافد القائم على دعائم تلمودية ووثنية وأباحيه إلى خلق عقليه المرأة تصورها بصورة القادره على الحياة فى المجتمع بدون سلطة الأب أو الاسرة أو الزوج من حيث هى قادره ماديا على أن تجد موردها الذى تعيش به ،ومن هنا فان هذا القدر يعطيها الحق فى أن تختار الطريق الذى ترضاه فى الحياه الإجتماعية . وكذلك فقد كانت اختيار موانع الحمل ووسائل الاجهاض كفيلة بان تفتح لها الطريق أمام كل الرغبات ومن ثم لقد اتيح للفتاه قبل الزواج وبعده ان تكون قادره على ممارسة كل رغباتها فى ظل مناعة طبية قرر. تعيد دم البكارة الأحمر إلى مكانه أو تحول دون حدوث الحمل ، وفى هذا

الاطلاق مافيه من آثار على ظاهره إنصراف الرجل عن الزواج او تراخيه عن تكوين الاسره أو استمرارها .

ولاريب ان هذه الصوره كلها تعطى التصور الزائف لمفهوم تحرر المرأة ، وتكشف عن جوهر العلاقه بين الرجل والمراة كما تريدها القوى الراغبة فى تدمير المجتمعات البشريه ، والمجتمع الإسلامى على وجه خاص ، وهى كلها مع الأسف على حساب كرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الاسرة والبيت والأجيال القادمه وان كانت تحجب هذه الحقائق تحت صوره براقة لامعة تخلب الالباب هى : كسر قيود المرأة وتحطيم الضوابط التى تضعها فى مسئوليتها ورسالتها ومكانها الحق .

ولقد مهدت النظريات التى قدمتها العلوم الاجتماعية وفرويد وماركس كثيراً لهذه المفاهيم ذلك أن محاوله تصوير الانسان بصورة الحيوان وافتراض أن دوافعه الاولى هى الجنس على النحو الذى طرحه فرويد ، كانت عاملا خطيرا فى فلسفة المرأة التى صورتها مذاهب الفكر الغربى ونظرياته الاجتماعيه المطروحه من خلال التحليل النفسى والوجوديه والهيبية : انها ليست المرأة المكرمه التى تعلو قدراً إزاء الرجل بل هى الاداة المبذوله على نحو ما .

لقد اخرجت اليهوديه التلموديه المرأة لتحقيق هدفها كله ؛ وعقدة هذا الهدف إقامه (عالمية الربا) ودولة العجل الذهبى ، وفى هذا الاتجاه معارضة لمفاهيم المسيحية الغربية نفسها ولكنها استطاعت ذلك بعد أن خطت خطوات كبيره فى سبيل استيعاب المسيحية واحتوائها من الداخل لقد استطاعت أن تخرج المرأة إلى الرقص والمسرح والسينما ثم عمدت إلى قتل الحد الفاصل بين الحره والأمة ، وبين الغانية وسيدة البيت ، وسيطرت على نظم الأزياء والزينة وشحنت عقلية المرأة بمفاهيم جعلتها غير مستعدة لفهم الحقائق ، أو تقبل المفاهيم الصحيحة فقد ادخلت الفساد إلى عقلية المرأة وثقافتها ومفاهيمها عن الحب والجنس والزواج والخليلة وصديق الاسره ، عن طريق القصة والروايه والأغنية فاستهانت بالبكاره والغيره والعقد الشرعى .

وكان أخطر ماتجاوزته هذه الثقافة الزائفة (عن طريق القصة ومفاهيم الوجودية ، والفرويدية ، والعلوم الإجتماعيه) محاولة القضاء على :

الإختلاف فى الخصائص بين الرجل والمرأة ، اختلاف التركيب العضوى ، اختلاف التشكيل النفسى ، العجز عن فهم مهمة البيت والأسره والزوج وتربية الأبناء .

ولقد كانت عمليات التغريب والغزو والثقافى قد خاضت معركة ضخمة فى سبيل تدمير قيم المجتمعات الإسلاميه ومفاهيم الإسلام وذلك بالسيطره فى مجال تربية المرأة وتعليمها .

ولقد اشار الدكتوران عمر فروخ ومصطفى الخالدى إلى هذا المعنى حيث قالا (١) .

يهتم المبشرون خاصه بالمرأة ، أن المرأة مدار الحياة الاجتماعية والوصول بالتبشير اليها وصول إلى الأسره كلها ، من أجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ومن أجل ذلك كانت المنازل والمعاهدالتى يعدها المبشرون للفتيات خاصه ، ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة المسلمه قد تخطت عتبةدارها لقد خرجت إلى الهواء الطلق ، لقد نزعت عنها حجابها ، ولكنهم لايصفقون لان المرأة المسلمة قد فعلت ذلك بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة فى الاسره المسلمة بتعاليمهم التبشرية ، ولهذا السبب خاصه أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون : لقد سنحت لنا فرصة جديده وللمرأة عند المبشرين أهمية عظمى قال نفر منهم :

« بما أن الأثر الذى تحدثه الام فى أطفالها — ذكوراً وأناثاً — حتى السنة العاشرة من عمر ، بالغ فى الأهمية ، وبما أن النساءهن العنصر المحافظ فى

---

(١) كتاب التبشــير والاستعمار فى البــلاد العربية .

الدفاع عن العقيدة ، فاننا نعتقد ان الهيئات التبشرية يجب ان تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على انه وسيلة مهمة فى التعجيل بتنصير البلاد الإسلاميه »

من أجل هذا اهتم التبشير والاستشراق والاستعمار بمسألة المرأه وركز جهودا كثيره من أجل دفعها إلى الإمام على النحو الذى يحقق هدفها .

ولقد أشار المبشرون فى إبحاثهم إلى أهمية المدرسة الداخلية للبنات فقالوا : إن التبشير يكون أتم حبكا فى مدارس البنات الداخلية لما يكون فيها من الأحوال الذاتيه والفرص السانحة « ان المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق ، ولانها تنزعهن من نفوذ حياه بيته غير مسيحية ويفرح المبشرون إذا اجتمع فى مدارسهم الداخليه بنات من اسر معروفه لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ فى بيتهن أعظم . وتتكلم المبشرة أنا مياجان فيقول : ليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام اقصر مسافه من هذه المدرسة (١) .

ولقد كان المسلمون بتعاليم الإسلام فى مأمن من خطر التبشير والتغريب والغزو الثقافى فى مجال المرأه لو أنهم فهموا الإسلام فهما عميقاً وطبقوه ولكنهم حين فرطوا فى هذه الحقيقه الغالية انتاشتهم الأحداث من كل جانب وتعرضت الاسرة والمرأة والمجتمع كله لهزات عنيفه .

(٤)

قبل أن يقرر الدكتور اليكسى كاريل وعلماء الطب والبيولوجيا أن بين الرجل والمرأه فروقا عميقه ليست فى الجسد وحده بل فى الجهاز العصبى والنفسى لها أثرها فى تشكيل عقليتهما ومزاجهما وحياتهما بصفه عامه ، كان الاسلام قد قرر ذلك منذ أربعه عشر قرنا وأن الخطر كله الذى يتهدد حياة الرجل والمرأة ،

---

(١) كتاب التبشير والاستعمار فى البلاد العربية .

وحياة الأسره كاكبر ركيزه المجتمع وحياة المجتمع كله بالاضطراب والتمزق انما تكمن فى معرفه حقيقة الفوارق بين الجنسين أو انكارها ، وإقامة بناء الفكر والحياة على اساس انها حقيقه واقعه لهـا أثرها فى التعليم والتربية والعمل والأسرة والزواج .

ولقد كان خطاب التكليف فى شريعة الإسلام موجها إلى الرجل والمرأة مما قضى بذلك على تاريخ طويل من المهانة والاحتقار ، والتفرقة فى القيم الإنسانية المشتركة كما قضى على الفوارق فيما يتصل بموقفهما أمام القانون وفى الحقوق العامه وجعل المرأه مساوية للرجل فى هذه الشئون ، غير ان الإسلام فرق بين الرجل والمرأة فى الأعباء الإقتصادية والميراث والقوامة على الاسرة والشهادة وحق الطلاق وفى مفهوم الإسلام « أن الرجل والمرأة متكافئان ولكنها ليسا متشابهين » ساوى الإسلام بين المرأة والرجل فى الحقوق الإنسانيه العامه وحافظ لكل منهما على اختصاصه الذى يتناسب مع وظيفته ودوره وجعلهما فى مقام واحد ليس لاحدهما فضل على الآخر فى الجزاء والعقاب .

« وعترف الإسلام بانجاب المرأة وأمر بالتفاؤل لقدومها شأنها فى ذلك شأن الرجل لافرق بينها وبينه الا بالتقوى والعمل الصالح وحارب التشاؤم منها والحزن على ولادتها .

واعطاها كيانا اقتصاديا مستقلا اصارت تملك وتتصرف بشئونها الماليه مباشرة وبلا وكاله (للرجال نصيب مما اكتسبوا للنساء نصيب مما اكتسبن) ولم يحرم المرأه هذا الحق الا إذا ثبت أنه يلحق ضرراً بالمجتمع وسوى الاسلام بينها وبين الرجل فى التصرفات الماليه .

ولقد كان الفرق لايجيز للمرأة إلى عهد قريب أن تتصرف بشىء من أموالها الا باذن زوجها وكان القانون الفرنسى قبل الحرب العالمية الثانيه يقضى بعدم أهلية المرأة المتزوجة وتقييدها فى تصرفاتها بضرورة الحصول على اذن الزوج .

والقانون الفرنسى وأن اعترف باهليه المرأة المتزوجه إلا أنه ابقى للزوج حق الأعتراض على بعض تصرفاتها المالية .

نظم الإسلام علاقة الرجل بالمرأه فى نطاق الاسره على نحو يحفظ للمرأة كرامتها وشخصيتها فاعطاها حق اختيار الزوج وجعل لها مطلق الحريه فى أن تقبل من تشاء وترفضه مادامت بالغة عاقله رشيدة كما أعطى لها حق مباشرة عقد زواجها بنفسهافقد جعل الإسلام رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطا لصحه العقد عليها .

وكذلك قرر عدم كفاءة الرجل الفاسق للزواج بالمرأة العفيفه وقضى على نظام الخليلات ذلك النظام الفاسد الذى نشر الفواحش والأمراض وكان فى نظر المرأة اقسى من التعدد وجعل اساس الأسرة : الزواج الشرعى المرتبط بالدين حلا وتحريما، ليس مجرد رابطةمدنية كسائر العقود . وحتم ذلك حتى يكون بالنسبه للزوجة حماية وأمانا من عواصف الزمن ومخاطر الانحلال .

وقد شرع الاسلام الخطبه قبل الزواج حتى تبنى الحياة الزوجية على اساس التفاهم والرضا .

وكذلك كرم الإسلام المراة بان جعل على الرجل أن يقدم المرأه مهراً ، هو منحة وهدية وتعبيراً عن طلبه اياها ورغبته فى الزواج بها .

وفى نفس الوقت وقبل أن يتم الزواج أوجب للبنت النفقة شرعية فى حياة ابيها حتى تتزوج وليس له أن يلزمها طلب رزق كالابن وإذا تزوجت وطلقت فعادت إلى بيت ابيها عادت نفقتها عليه حتى بعد انتهاء مدة نفقتها الزوجية وقد كفل لها الإسلام حياة طيبة (فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وحال دون الزوج وأن يمسك زوجته كرها .

وأقام العلاقة بين الرجل والمرأه حقا مشتركا وواجباً متعادلا :

« إلا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا »

« أما حقكم على نسائكم : فان لايوطئن فراشكم من تكرهون ولاياذن فى

بيوتكم لمن تكرهون ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم في أن تعضلوهن وتضربوهن في المضاجع .

« وحق الرجل على الزوجة أن يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهجر إلا في البيت ، عليكم باللطف والرفق بنسائكم ، لاتظلموهن ولاتضيقوا عليهن فإن الله يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم » .

(٢) وإقام العلاقة الزوجية على أساس الطاعة والمودة. ومعنى الطاعة أن تمتثل الزوجة أمر الزوج إلا فيما نهى الله عنه إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومعنى قوامة الرجل (الرجال قوامون على النساء) هو إقامة حق الطاعة من الزوجات لأزواجهن في غير مايخالف حدود الله .

من حقها أن يعد لها المسكن المستكمل لحاجات معيشتها الذي تأمن فيه على نفسها ومالها وتقيم معه فيه فلا تخرج من غير أذنه إلا لضرورة ولا تبيت عند أحد من أهلها إلا بإذنه ولا تسمح بدخول أحد في بيته إلا بإذنه .

ولها أن تذهب لعيادة أبيها المريض الذي لايقوم أحد بخدمته بغير إذن الزوج ولا يعد هذا خروجا على الطاعة لأن حق الوالد مقدم على حق الزوج عند التعارض » .

غير أن قوامة الرجل لاتفرض له أي نفوذ في مالها أو فيما تملكه فهو خالص لها

* * *

وقد جعل الإسلام الطلاق: أبغض الحلال إلى الله ودعا إلى المصالحة والتحكيم في حالة الشقاق (وأن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها). ورسم القرآن موقف الطلاق في دقة ووضوح.

(وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا .ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) .

وفى الطلاق قرر الإسلام : عدم تطويل العدة عناداً ورغبة فى حبس المرأة عن الزواج . (وكان الرجل فى الجاهليه يطلق امرأته حتى إذا قاربت الانتهاء من عدتها راجعها وطلقها وهكذا مائة طلقة أو اكثر لايقصد من وراء ذلك الا الكيد لها والإضرار بها . فلما جاء الإسلام عالج هذه المشكله على نحو مسماح ورفع الحيف عن المرأة فقصر الطلاق على ثلاث .

(الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان)

(فان طلقها فلاتحل له حتى تنكح زوجا غيره)

وشرع حق افتداء نفسها بالمال تدفعه إلى الزواج لتنقذ نفسها .

(٣) ومن تكريم الاسلام للمرأة ورفع شانها أنه جعلها كالرجل (إنما النساء شقائق الرجال) فازال عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرزول وبين أن الخطيئه لم ينفرد بها بل الشيطان وسوس لحواء وآدم فهما فى الخطيئه سواء :

(فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه)

(فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماورى عنهما من سوءاتهما)

وحدد المسئوليه للرجل والمرأة على السواء : كل نفس بما كسبت رهين وليس ابلغ من هذه المساواه من قوله تعالى .

(يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءاً) .

وهكذا حرر الإسلام المرأة من كثير مما نسب اليها ظلماً وبهتاناً فى الحضارات السابقه وتفسيرات الأديان الماضية . فقد حرم المجتمع اليونانى المرأة من الميراث كما حرمها المجتمع اليهودى : والحكم المنصوص عليه فى غير موضع من التوراه أن تحرم البنات من الميراث مالم ينقطع نسل الذكور وأن البنت التى يئول إليها الميراث لايجوز لها أن تتزوج من سبط آخر (١) .

(١) أشار معجم الفلسفة الفرنسى الى هذا المعنى حين قال : ان القرآن يختلف من التوراة فى انه لا يجعل ضعف لمراة عقابا الهيا ، كما ورد فى سفر التكوين (٣ : ١٦) ومن الخلط أن ينسب الى شارع عظيم كمحمد ، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء والقرآن يقول : « فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا » .

«وفى المجتمع الهندى والبابلى والرومانى: أنكر عليها حقها فى الحياة المستقلة عن حياة الزوج وكانت العادة إلى أبعد عصور الحضارة البرهمية فى الهند وحتى القرن السابع عشر تقضى بان تموت المراة يوم موت زوجها وان تحرق معه فى موقد واحد.

«وكانت شريعة حورابى تعتبر المرأة فى عداد الماشية المملوكة.

«ومذهب الرومان القديم مثيل لمذهب الهنود الأقدمين فى الحكم على المراة بالقصور، فقد كان الشعار المتداول ابان حضارتهم ان قيد المرأه لا ينزع ونيرها لا يخلع، ولم تتحرر المراه الرومانية من هذه القيود الا يوم ان تحرر منها الرقيق على اثر التمرد ثوره بعد ثوره».

«وقد أهدر اليونان شخصية المرأة القانونية فلم يعتبروها أهلا للتملك، ولا اهلا لتحمل المسئوليات وتلقى التبعات فهى تظل طوال حياتها خاضعة لسلطة أبيها مادام فيه عرق ينبض أو نفس يتردد حتى إذا ماتزوجت فسلطة ابيها لا تزول إلى غير رجعة بل تزول مابقيت زوجه فإذا فارقها زوجها أومات عنها رجعت ولاية الأب وسلطته عليها حتى يلفظ نفسه الأخير وحينئذ تنتقل الولاية إلى قريبها حتى تتزوج فيكون زوجها هو وليها وهو صاحب التصرف فيها».

وهكذا كانت المرأة متاعا مملوكا للاب أو الزوج يتصرف فيها بكل أنواع التصرفات من بيع واعارة ورهن. ثم جاء الإسلام فتغير كل شىء: أبعد عن المرأة شبهه الخطيئة والدنس، ثمت مساواتها بالرجل وقرر حقها الكامل فى الحياة كالرجل، قضى على كل ما كان متبعا من وأد البنات وتلقى ولادتهن بالعبوس أو اذلالهن دون أى حق فى اختيار الرجل.

واعلن الإسلام تحريم وراثة النساء كرها:

(لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها).

إى لا تاخذوهن على سبيل الارث كما يؤخذ المال الموروث .

وحين الغى الإسلام وراثة المرأة مع المتاع ، وحرمانها من الارث والمهر جرم « العضل » (ولا تعضلوهن) وهو الظلم يقع على اليتيمة تكون عند الرجل . فقد حرم الإسلام السبي وحرم الوأد فلم تكن سبية أو موءودة منذ انتشار الإسلام إلى يومنا هذا .

« وانتهى الامتهان حيث سوى الإسلام بين دم الرجل ودم المرأة وصار يقتل قاتلها .

وكان الاستئثار دونهن بالمهور فجعلها الإسلام حقا خالصا لهن « وكان تعدد الزوجات غير محدود ولا مقيدا ، فجاء الإسلام محدداً له مقيدا اياه بقيود كفيلة بالقضاء عليه كما فعل بالرق .

« وكان اكراه الفتيات على البغاء ليتكسبن لاسيادهن مالا فجاء الإسلام مبطلا (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا) وكان قتل الأولاد من الفقر أو من خشيته فجاء الإسلام حاميا .

« وكان حرمان ميراث فقرر لهن الإسلام حقوقهن (وللذكر مثل حظ الانثيين) فريضه من الله نافذة .

وكان عضل لهن عند الازواج طمعا فى ان يفتدين أنفسهن بمال أو يمين فيرثوهن فنهى الإسلام عن ذلك .

« وكان اساءه عشرة فامر الإسلام بحسن المعاشرة .

« وكان الولد يرث زوجات أبيه فى جملة المتاع فجاء الإسلام رادعا أشد الردع (ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم] .

« وجعل المهر حقا خالصا للمرأة ونهى عن مسه باى سبيل كان :

(وآتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا)

« وجعل احسان العشرة الزوجية من أهم ما يجب على الرجل التزامه » وكره الشارع الطلاق إلى الناس وبغضه وشدد فيه .

« واحل اجلا للمطلقات : مدة طويلة يبقين فيها فى بيوتهن ليرجع الرجل الى نفسه فيتلافى ما فرط منها ، حتى إذا عزم الطلاق فتسريح باحسان .

« وبين للمرأة حقوقها فى الارث (زوجا ، واما ، وبنتا ، واختا) فصارت كالرجل ذات حقوق أصيله »(١) .

وسوى الاصلام بين الرجل والمراة فى الخطاب وسوى بينهما فى الثواب والعقاب (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) .
واعترف المراة بعقلية لا تقل عن عقلية الرجل فجعلها حق الخطاب بالتكاليف فى اطار واحد بما يدل على تساويهما فى مناط التكليف وهو العقل .

(٣)

وحرم الاسلام على الرجل ان يتزوج أمه وبنته وأخته وعمته وخالته وبنت الأخ وبنت الأخت وحرم الجمع بين الأختين وان يتزوج الابن زوجة أبيه .

وكان يجوز للرجل قبل الاسلام أن يتزوج ما يشاء من النساء فحصرت الشريعة الاسلامية هذا العدد ومنعت الجمع بين أكثر من أربعة من النساء على شرط العدالة بينهن فإذا لم تتيسر العدالة فواحدة .

قال ابن القيم ان الزوجة حق على الزوج إقتضاه عقد النكاح يجب على الزوج القيام به فان شاركها غيرها وجب العدل بينهما فقصر الازواج على عدد يكون العدل فيه أقرب مما زاد عليه ومع هذا لا يستطيعون العدل ولو حرصوا عليه (فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ماملكت إيمانكم) .

ومعنى هذا ان الاسلام حد من غلواء التعدد الذى لم يكن مقيد العدد ، وشرط

---

(١) من بحث للعلامة كيرو

أمن العدل المستطاع بين الزوجات فابيح التعدد بقدر الحاجة متى أمن العدل المستطاع (لا العدل المطلق) والمقدرة على الانفاق .

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) .

وتعدد الزوجات فى ذاته تشريع الطوارىء ، وأهمها حالات الحروب حيث يقل الرجال وعندئذ يكون التعدد ضرورة لإتقاء الفساد الخلقى والفوضى الاجتماعية التى تنشا لا محالة عن وجود نساء بلا رجل .

يقول أحد الباحثين :

« إن تعدد الزوجات هو الحل الشريف الحكيم لما يعقب الحروب المدمرة من أزمات خلقية وأجتماعية وأقتصادية ففى أعقاب الحروب يهبط عدد الرجال عن عدد النساء هبوطاً مفزعاً قد تصل النسبة معه فى بعض الأحيان من واحد إلى عشرة ، فاباح الإسلام التعدد وجعله رخصة ورحمة وحماية : رخصة تنظم بواسطتها حياة الزوج المضطرب وتنسقها .

والتعدد فى حالة الخوف من ظلم اليتامى عندما يجد الوصى نفسه محرجاً من مداخله اليتامى ومجالستهم فى بيوتهم التى لا تخلو من يتيمات أو ارامل ، فهن بقية من شباب او جمال لم يذو بعد ومحرجاً من الابتعاد عنهم فيكون مقصراً فى حقهن غير قائم بالعدل والقسط فيهم فالتعدد إنما شرع حلا لمشكلة من مشاكل المجتمع : هى مشكلة اليتامى أنفسهم وليس مشروعاً لارضاء النفس وتحقيق الرغبة فى النساء .

وقد جاء التعدد صيانة للاسرة حيث وضع الاسلام حكما قاسياً لجريمة الزنا التى تخلط النسب وتسلم بنيان الاسرة إلى النقوض والمجتمع إلى الانهيار » .

ولقد عرض (سيد امير على) لمفهوم تعدد الزوجات قبل الإسلام فاشار (كيف كانت المرأة من أهل اثينا وهم اكثر الأمم القديمة مدنية وعلماً تعتبر من

سقط المتاع حيث كانت تباع وتشترى فى السوق كما كانت منزلتها فى الدرك الأسفل وإنما كانت تعتبر كأنها رجس من عمل الشيطان لا شان لها وكان مصرحاً للواحد من أهل اثينا أن يتزوج بأى عدد يشاء من النساء وكان (دموشنيش) يفاخر بانه يوجد فى أمته ثلاث طبقات من النساء كانت طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات والشبيهة بالشرعيات أما فى اسبارطه فقد كان مصرحاً للمرأة أن تتزوج باكثر من رجل وكانت جميع النساء تقريباً يمارسن هذه العادة وكانت عادة تعدد الزوجات موجودة فى البلدان المجاورة لدولة الرومان وكان من أسر الفتوحات التى قام بها الرومان مضافاً إليها الرفاهية التى تمسكوا باذيالها إذ نالوا ذلك المجد الباذخ ـ كل هذه الأسباب جعلت عقدة الزواج المقدسة مجرد كلمة من قبيل لغو الكلام عند الرومان ، غير أن كبراء روما أرادوا أن يتمتعوا بمزايا الحرية وترفعها فانغمسوا فى شهوات الحب والهوى فافضى ذلك إلى أن أصبح الزواج أشبه بالفسق العادى ثم أن الحكومة اعترفت بالزنا فى قوانينهافصار هذا نظام مرعى الجانب وقد أفضت حرية النساء وانفصام عرى الرابطة التى كانت تربطهن بالرجل وتنقل المرأة بين احضان الرجال كل ذلك افضى إلى عادة تعدد الزوجات ثم ان اتخاذ الخليلات لم يكن قاصرا على الطبقات الايروستقراطية حتى ان رجال الا كليروس أنفسهم كانوا يتخذون لهم أكثر من زوجة شرعية أو غير شرعية بالرغم مما كانت تقضى به عاداتهم ، ثم يشير (سيدامير على) إلى موقف الإسلام فيقول : ان أعظم خطأ يقترفه كتاب النصارى هو ان يظنو ان محمدا عليه الصلاة والسلام اباح تعدد الزوجات وعمل به ، ان محمداً لم يجد تعدد الزوجات منتشراً فى قومه فقط .

بل كان منتشرا أيضاً بين الأمم المجاورة لها حيث كانت هذه العادة شر افات الهيئة الاجتماعية . نعم ان قوانين الدولة المسيحية حاولت ملاشاة ذلك الشر ولكنها لم تنجح فى ذلك وظل تعدد الزوجات معمولا به بدون واق منه فكانت النساء التعسات اللاتى كان من سوء حظهن إلى ان لم توجد قاعدة مرعية فى قوانينهم المقدسة تحدد تعدد الزوجات اللاتى يحق للرجل التمتع بهن فقد كانوا ينغمسون فى حاة اتخاذ الخليلات وعلاوة شيوع عادة تعدد الزوجات

عند العرب واليهود الأقدمين فقد جرت فيهم عادة اخرى هي الزواج المؤقت فأفضت إلى الفوضى الأخلاقية وانتشار الزنا .

« ان الشريعة الإسلاميه رفعت شان المراه إلى مرتبه عاليه بعد ان انحدر مقامها إلى الدرك الأسفل عند اليهود وعرس الحاضرة إذ كانت الفتاة بمثابة الخادمة حتى في دار أبيها عند الموسويين وكان لأبيها الحق في بيعها إذا كانت قاصرة فإذا توفى يحق لاخوتها الصبيان أن يفعلوا بها ما يشاءون ولم تترك لترث شيئاً إلا إذا لم يكن للوالد ذرية من البنين .

أما عرب الجاهلية فقد كانت المراة تعتبر من سقط المتاع وكانت جزءاً لا يتجزأ من ثروة أبيها أو زوجها ، وكانت أرامل الرجل يصرن أرثا لابنه أو بناته كأى جزء آخر من التركة ، لذلك حرم الإسلام بتاتا (نـكاح المقت). وهو إقتران المراة بابن بعلها ونحو ذلك .

وقد وصل انحطاط شان المراة عند عرب الجاهليه إلى وأدهم بناتهم وهن على قيد الحياة ، فحرم الإسلام هذه العاده وكانت منتشرة بين عرب قريش وبقبائل كثيرة واعتبرها من قبيل الظلم والاعتساف وكان العرب يعملون بها إذ يقدمون بناتهم قربانا للالهة اقتداء ببعض الأمم وجاء في القرآن .

(وإذا المؤودة سئلت باى ذنب قتلت)

وكان مقام المرأة منحطا في الهيئة الاجتماعية في دولتى الفرس والروم نطيين ، وقد حمل المتعصبون المتحمسون على المرأة حملة شعواء وهم الذين صاروا القديسين معلنا بعد لدى العالم المسيحى فقالوا انها مثار الشرور ونسوا ان الشرور التى نسبوها إلى المرأة ليست الانتيجه تضلل أفكارهم .

وفى ذلك الحين سقطت الهيئة الاجتماعية فى حماة الرزائل من جميع الجهات وارتفعت الأصوات مستغيثة بان التجارب التى برهنت على فساد كل النظامات والشرائع القديمة ، ظهر محمد ﷺ بتعاليمه الملأ داعيا للخير وهو يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجه) .

وقد كرم الله مقام المرأة بصفتها طاهرة نقية . وزوجة صالحة وقد حرمت القوانين الإسلامية بتاتا عاده الزواج المشروط وخول للمرأه حقوقا لمن تسكن لها من قبل وا كسبها مزايا لا تعرف قيمتها حق المعرفة إلا بعد زمن طويل فقد ساوت الشريعة بين الرجل والمرأه فى جميع الحقوق المدنية والأعمال ونهت عن تعدد الزوجات إذ حددت عددهن وقضت على الرجل بالمساواه التامة بينهن .

« هذه الشريعة السمحاء إنما نبتت لتعمل بها أرقى الأمم مدنية وأشدها همجية على السواء ، فكما انها لم تترك حاجات أرقى درجات الهيئة الاجتماعية كذلك لم تنس أن تلبي رغبات الشعوب والقبائل » .

(٤)

. أما وقد جعل الإسلام للمرأه المسلمة شخصية مميز فقدجعل عليها مسئوليات وأعطاها دوراً هاما فى بناء الأسره وأقامة كيان المجتمع وتنشئه الأبناء ورعاية الزوج وأقام لها ضوابط تحميها من أن تستغل كأداة للاهواء والشهوات أو تفرض عليها أن تصبح رقيقاً أو تكره على غير ما تريد أو غير ما يحفظ لها الإسلام من عرض وشرف . لقد حقق الإسلام للمرأه ارادتها الحره فيما تملك وفيمن تختار ليكون احلالها وجعل هذه الاستجابة لطبيعتها فى اطار علاقة شرعية مشهره باعلان الزواج وحرم العلاقة السرية التى تمتهن فيها المرأه ، وقد تحوط الإسلام لأنوثة المرأه كما تحوط لرجولة الرجل ، وأقام الدعائم والقواعد التى تحول دون أن يتحول المرأه إلى رجل أو يتحول الرجل إلى امرأه أو يتداخل المفاهيم يتخنث الرجل أو ترجل المرأه دون أن يعرف كل منهما دوره الحقيقى ودور صاحبه .

ومن هنا فقد حرم الإسلام على المراه ان تكشف عن بدنها وان تخلو بغيرها وان تخالط سواها وينكر عليها ان تحمل قوسا شبيهة فى ذلك بالرجال وحبب إليها الصلاة فى بيتها فإذا خرجت ففى إحتشام ووقار وإنما امراة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى آثمة .

ولعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهين من النساء بالرجال ولعن رسول الله الرجل يلبس لبسه المرأة والمرأة تلبس لبسه الرجل ولقد عارض الإسلام كل تغيير لخلق الله بالاضافه أو الحذف من وصل الشعور أو تغيير اوضاع الوجه أو تلوينها .

وقرر الإسلام إنه لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعدا إلا ومعها أبوها أو خوها او زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها .

وأشار الرسول إلى أن من أهل النار كل من اتسمت بانها من الكاسيات العاريات أو المميلات المائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائله ، وقد طبق ذلك رسول الله على أهله فما قاله لأسماء :

ان المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها الا هذا وهذا واشار إلى وجهه وكفه .

وكذلك شرط الإسلام للمرأة شروطا شديدة فى البعد عن إبراز المحاسن او إبراز الجسد من داخل الملابس ، وفرض فى ملابسها أن لاتصف ولا تشف وحرم عليها الخلوه بالأجنبى مهما كانت الظروف .

وأعلن رسول الله ان من أكبر الكبائر فى الإسلام ان يخلو الرجل بامراة ليست بذات محرم « وقد أخذ الإسلام السبيل على الجنسين فى هذا الإختلاط أخذا محكما قويا فالستر فى الملابس أدب من أدابه وتحريم الخلوة بالأجنبى حكم من احكامه ، وغض الطرف واجب من واجباته والعكوف فى المنازل للمرأة حتى فى الصلاة شعيرة من شعائره والبعد عن الأغراء بالقول والإشارة وزينة الخروج حد من حدوده » .

وقد استهدف ذلك ان يسلم الرجل من فتنه المرأة وان تسلم المرأة من فتنه الرجل » .

ومن ذلك قول الرسول فى الحديث القدسى عن رب العزه : النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركتها من مخافتى ابدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه .

وقول الرسول لتغضن ابصاركم ولتحفظن فروجكم أوليكسفن الله وجوهكم وكان انذار الرسول فى هذا واضحا صريحا : ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجل ومن هنا نعرف إلى أى مدى ذهبت محاوله المؤامره التلموديه اليهودية فى هدم مفهوم الإسلام عن المرأة لتدمير شخصيتها ووضع القيود فى ايديها وسوقها إلى سوق الرقيق مرة اخرى تحت الأضواء والطبول .

ومن هنا فقد دعا الاسلام إلى توجيه المرأة إلى حقيقة دورها وإلى شخصيتها الأصيلة التى قدمها لها الاسلام .

مع دوام تصحيح وضعها وتحرير مفهومها حتى لاتسقط فى الأفخاخ المنصوبة .

وتذكيرها مسئوليتها . كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته :

الرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها .

ولذلك يرى الاسلام ضروره بناء ذلك منذ الطفوله وإعداد المرأة : فتاة وأما وزوجة وكشف الابعاد الحقيقة لدورها وشخصيها والأسلحة التى يجب ان تتسلح بها لتستطيع اداء دورها من الفضائل والكمالات النفسية .

وقد وجه انظار الأباء إلى هذا : [قوا انفسكم واهليكم ناراً] ومما دعيت المراة إلى فهمه حقيقتان كبريان :

(أولا) حقيقة التفاوت والاختلاف فى بناء الانسان داخل الرجل وداخل المراة على النحو الذى يمكن كل منهما من أداء دوره الخاص .

(ثانيا) قيام المجتمع الاسلامى اساساً على الفصل بين الرجل والمراة فى المجتمعات فللرجال مجتمعاتهم وللنساء مجتمعاتهم .

(٥)

أما حقيقيه التفاوت الطبيعى بين الرجل والمرأة فقد كشفت عنه ابحاث العلم الحديث ودراسات الطب والبيولوجيا بما يطابق ماقرره الاسلام وجاء به القرآن، وهو تفاوت طبيعى فى التكوين الجسمانى والنفسى للرجل والمرأة يتبعه تغاير وظيفى بينهما . ذلك أن الفطره قد اكسبت كلا منهما أوضاعا خاصه ويسرت لكل منها سبيله بحسب الوظيفه والرساله. والمساواه بينهما لاتقتضى انكار حكم الطبيعه أو نسيان الفوارق الخلقيه ومابينهما من الاختصاص .

« وقد (١) اثبتت بحوث العلم وتحقيقاته ان المرأة تختلف عن الرجل فى كل شىء من الصوره والسمت والأعضاء الخارجيه إلى ذرات الجسم والجواهر الهيولونية (البروتينيه) لخلاياة النسجية ، ومع بلوغها سن الشباب يعروها الحيض التى تتاثر به افعال كل اعضائها وجوارحها وتدل مشاهدات اساطين التشريح على أن المراة تطرأ عليها فى مده حيضها .

(اولا) تقل فى جسمها القوة وتنخفض حرارتها .

(ثانيا) يبطء النبض وينقص ضغط الدم وتقل عدد خلاياة وتصاب الغدد الصماء واللوزتان والغدد اللمفاوية بالتغيير ويختل الهضم وتضعف قوة التنفس .

(ثالثا) تبلد الحس وتكاسل الأعضاء وتتخلف الفطنه وقوة تركيز الفكر .

(رابعا) أمافى زمن الحمل فلاتستطيع قوى المراة ابان حملها ان تتحمل من مشقة الجهد البدنى اوالعقلى ماتتحمله فى عامه الأحوال ،مما يختل به نظام جسمها كله ويستغرق بضعة أسابيع ، وبذلك تبقى المراه مريضه اوشبه مريضة مده كامله بعد قرار الحمل وتعود قوه عملها نصف ماتكون فى عامة الأحوال .

وتبدو هذه الفوارق واضحه من حيث النظرة العامة بما لايقلل من مساواتها

(١) عن بحث للعلامة المودودى .

الرجل فى المسئوليه الشرعيه او المقدره العقليه العامه ولـكنه ينكشف عن فوارق فى الدرجة وليست فى النوع . من ذلك أن خصائص الأنوثه و مواهبها كقانون الزوجيه والأمومه وذكاء العاطفه هى ميزه خاصه تستخدم لبناء الاسرة ولـكنها لاتصلح للعمل الخارجى .

وأن حظها فى العقل العام يجعلها مسئوله شرعا ويجعلها تقوم بواجبها فى حدود طبيعتها فى الحياة ولـكنه لايجعل لها تفوقا معينا على الرجل أو يجعلها مساوية له فى أعظم اعمال المراه نفسها: إعداد الطعام وصناعة التطريز وهما من ابرز اعمالها ولـكن الرجل يتميز عليها فيهما ويتفوق .

حتى لقد قيل انه ما من عمل زاولته المراه من غير وظائفها الأصليه فى البيت وخارجه الا كان الرجل متفوقا عليها .

وبالجمله فأن اختلاف الجنسين يلزم اختلاف الوظيفه « على اساس نهوض الرجل بمطالب الحياة العامه ونهوض المراه بمطالب البيت وتدبير الرجل للجيل الحاضر وتدبير المراه للجيل المقبل » .

(٢) اما فى الأختلاط « فان الاسلام يرى فى الاختلاط بين المراه والرجل خطرا محققا فهو يباعد بينهما الا بالزواج . ولهذا فالمجتمع الاسلامى مجتمع انفرادى لامجتمع مشترك ، ولقد كشف الاسلام عما يؤدى إليه الاختلاط من ضياع الأعراض وخبث الطوايا وفساد النفوس وتهدم البيوت وشقاء الاسر وبلاء الجريمه ومايستلزمه هذا الاختلاط من طراوه فى الأخلاق ولين فى الرجولة لايقف عند حد الرقة بل يتجاوز ذلك إلى حد الخنوثة والرخاوه .

كذلك فان « الاختلاط يزيد قوة الميل وقيل قديما أن الطعام يقوى شهوة النهم ، والرجل يعيش مع امراته دهراً ويجد الميل اليها يتجدد فى نفسه فما باله

(١) من امـــام كبير رضـــوان الله عليه .

لا تكون صلته بها مذهبية لميله اياها والمراه التى تخالط الرجال تفتن فى ابداء ضروب زينتها ولا يرضيها إلا ما يثير فى نفوسهم الاعجاب » كل هذا مما يجب أن يكون واضحا فى نفس المراه المسلمة .

وقد نص شيخ الإسلام ابن تيميه فى فتاويه على وجوب احتجاب المراة عن الرجال الأجانب كما قال اصحاب الإمام احمد بتحريم النظر إلى الأجنبيه وذكر الإمام ابن تيمية (فى المنهاج) اتفاق المسلمين على منع خروج النساء سافرات الوجوه لأن النظر مظنة الفتنة .

ولقد تنبه المفكرون الغربيون إلى هذا الخاطر فقد أشار (برتراند رسل) إلى ذلك فى كتابه (الأخلاق والزواج) فقال :

هناك شرط مهم يساعد على دعم الحياة الزوجية ، ذلك هو خلو الحياة الإجتماعية من النظم التى تسمح بالمصادقة والمخالطة بين المتزوجين من الرجال والنساء سواء فى العمل أو فى المناسبات والحفلات وما شاكلها ، ذلك أن العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من رجال ونساء خارج دائرة الحياة الزوجية هى سبب شقاء الأزواج وكثرة حوادث الطلاق .

فى هذا نذكر دعوة الاسلام للمؤمنين بان يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهن وإلى المؤمنات أن يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .

(٦)

وفى ضوء الإسلام فإن دقة النظم والروابط التى تقوم من المرأة والرجل تكون عاملا هاما فى سلام بناء الأسرة وقيام كيان المجتمع وتنشئه الأطفال والأبناء وهى المهمة الخطيرة التى ألقى على المرأة دور كبير فيها فالطفل يولد وهو عبارة عن كتلة من الغرائز والاستعدادات والأم هى التى تشكله على النحو الذى يجعله عضواً نافعا فى أمته ومجتمعه ، وهى أن تعلمه اللغة والتاريخ والعادات ومفاهيم الأخلاق والآداب العامة ومظاهر السلوك العام والخاص حتى تخلق منه كائناً اجتماعيا إيجابيا وان أى تقصير فى اداء هذه الرسالة الخطيرة التى يجب ، والانها يوما بعد يوم وساعه بعد ساعة تؤثر فى الطفل فتحول بينه وبين الأسلوب السوى

وقد تنحرف به فى حياته كلها . والمرأة دور فى حياة الطفل والشاب وللاب دور مكمل ولكن دوراً لام أشد خطوره ، ولايمكن أن تؤدى المدرسة دورها الحقيقى فى حياة الابناء إلا إذا كانت الركائز الأساسية التى قدمتها الأم سليمة وثابته وعلى مستوى الاصالة والفهم الحقيقى لابعاد النشئة الدينية والاجتماعية والأخلاقية فى بناء العقل والروح والجسم جميعاً ، ولا بد أن يجد الطفل فى الأم والأب مثلا عالياً فى الخلق وحسن التصرف .

ومن هنا كان استقرار المرأة فى المنزل أعظم أثراً وأبعدمدى من خروجها للعمل إذا لم تدع الحاجة المادية إليه ، فإن فيض الحنان الذى يفقده الطفل من شانه أن يشكل خطراً على كيانه كله ، كذلك فان نقص التوجيه النفسى والاجتماعى فى غيبه الأم سيكون بعيد الأثر فى بناء شخصية . وإذا ذهبنا نقيس مدى الناتج الذى تحصل عليه الأسرة من استقرار الأم أو عملها فى خارج البيت وجدنا خسارة لا تعوض . فان العمل بطبيعة يستهلك الأم جسمياً ونفسياً حتى إذا عادت إلى البيت فانها تكون فى حاجة إلى الراحة ، ولا تكون أهلا لأى عطاء نفسى بل ربما كان تصرفها سلبيا قائماً على الحدة واضطراب الأعصاب مما يودى إلى أثر أكثر سوءا فى تنشئه الأبناء .

وهكذا نجد أن اخراج المرأة من طبيعتها الأساسية من شانه أن يفسد البناء الأسرى كله ويضعها فى مكان المناقضة للفطرة وينقص من شان المسئولية الاجتماعية ازاء الأطفال فى نظرها ومن ثم فان مجتمعاتنا تكاد تفقد ما كنا نطلق عليه الأم الرؤوم والزوجة الصالحة .

والحق ان الأسرة فى نظر المرأة المسلمة ليست لهوا ولامتاعا خاصا (لها وللرجل)

وليست العوبة أو أمراً هيناً بل هى مسئولية وتبعه ودور خطير يتطلب تكريس كل الوقت والجهد له والتضحية من أجله بكل أنواع المتع والملذات .

ولقد أعطي الإسلام المرأة تلك القدرة على حمل المسئولية بالإيمان والصلاة ،

والعفة الصحيحة والحياء وحرصها أشد الحرص على دينها وعلى بناء أبنائها واهم ما اعطاها الصبر على مكازة البيت .

ومن هنا كانت القوانين المدنية كلها تنص على أن المرأة مكلفة بتدبير البيت (والبيت هو كل ما يتعلق بالحياة العائلية والأسرة) وليست تربية الصغار فقط بل رعاية الكبار .

ومن هنا كانت ضرورة أن يكون تعليم المرأة من نوع خاص يكفل لها معرفة تدبير المنزل وعلم الاقتصاد المنزلي ومعرفة علوم التطريز والحياطة والطبخ ومعرفة مسئوليتها الإسلامية أخلاقية واجتماعية ازاء الأسرة كلها .

وإذا كانت الأسرة هي عماد المجتمع حقيقة فان المرأه هي قاعده الأسره . وإذا كان من الضرورى أن يلتمس المجتمع الإسلامى مفهوم المرأه الصحيح والأسره على حقيقتها فانما يطلب ذلك بعد أن اضيفت إلى معتقداتنا الفكرية والعقلية مفاهيم حديثه وطرحت فى أفق الفكر الإسلامى نظريات وافدة حول حرية المرأة وحول ملابس المرأة وحول مفهوم الجمال وحول علاقة البيت والصالون والنادى والكازينو غيرت كثيراً من الأصول الإساسية ، وحولت نظره الرجل إلى امرأته فاصبح هو الذى يعمل على اخراجها وتزيينها للشارع ويفخر بذلك ويقدمها فى النادى والكازينو إلى زملائه ويسمح لها باستقبال أصدقائه فى فى بيته فى عينيه .

ومن هنا كان لا بد من إعادة تقدير لمسئولية العرض والشرف والبيت ، وتحرير المجتمع الإسلامى من هذا الانحراف الذى أصاب الكثيرين كرجال فى عجزهم عن حمل مسئولياتهم ازاء زوجاتهم وبالتالى ازاء أبنائهم .

ويأخذ ذلك صوره مظلمة قاسيه فى محاولة الرجل الهرب من المنزل ، والاستمتاع بوقته خارجه ، والعجز عن مواجهه مسئولياته والتفاهم مع أبنائه .

ومن خلال هذه المفاهيم الوافدة ، والتقاليد الجديدة المخالفة للقيم الأخلاقية الإسلامية الأساسيه يتحقق لأصحاب الأغراض هدم الأسرة ، وهم يعلمون أن

تحويل عقلية المرأة هو العامل الأول فى تدميرها وذلك بالقاء مفاهيم تجعل المرأة منتقضة على قوامه الرجل وعلى مسئوليتها فى البيت بالاضافة إلى احساسها بانها تكسب ماديا مما يحول دون ترتيب الحياه الاجتماعية على أساس سليم .

ومن الحق أن الأسرة نظام عميق الجذور ، ولكن هذه المحاذير من شانها أن تؤثر فيه ، ولقد أشاد الباحثون الاجتماعيون قديما وحديثا بالأسرة باعتبارها النظام الإنسانى الأولى وان من وظائفها استمرار النوع والمحافظه .

وان الأسرة ليست مجرد وسيلة للتناسل وتربية الأبناء وإعدادهم للقيام بدورهم فى الحياة الاجتماعية وإنما هى مصنع الرجال ، ومنطلق الوجدان والعاطفة بين الزوجين والأباء ومن الأطفال والكبار على السواء .

ومن الذى يستطيع أن يوزع العاطفة والحب والحنان على الأسرة كلها غير المرأة ، وفى تقدير كثير من الباحثين ان تربية المرأة أوسع من تربية الرجل وأرق وأبين واكثر اختلافا وان المرأة حين تساق إلى تربية مماثلة فان ذلك يكون عاملا هاما فى تعجيزها عن أداء رسالتها الحقة : «وإذا كانت أعباء الحياة المادية ملقاة أكثرها على الرجل فإن المرأة يتحمل اعباء أخرى أكثر دقة وهى المسئولية الأدبية » وتقوم وظيفة المرأة المربية على إعداد الأطفال للتغذى بالمعانى الروحية التى تضع للحياة غاية وتدخل عليها الانشراح » ولهذا فجدير بالمرأه أن تطالب باصلاح جميع مناهج التعليم التى وضعت على أساس نظرى محض وبطريقة ميكانيكية وعلى أن تنادى بتوجيه العناية الأولى فى التعليم إلى تهذيب الأخلاق والاراده وأنا نرى أن تعليم الدين ودراسة اللغة من أقوى ما يساعد على تحقيق هذا الغرض(١) .

(٧)

كشفت الأبحاث العلميه التجريبية والاحصائية فى المجتمعات الغربية عن مدى الاخطار التى تواجه الأطفال فى البيئات الصناعية وكون الأم تمهد بهم إلى

(١) من بحث للدكتورة سهير القلماوى .

الخدم ودور الحضانة فذكرت هذه الأبحاث ذلك بعرضهم إلى المعاناه العاطفية نتيجة نقص الحنان الفطرى الذى جبلت عليه قلوب الأمهات وتعدد مراكز السلطة داخل الأسره بين الوالدين مما يوقع الأولاد فى حيره نفسية ويشتت هو اطفهم ويفقدهم امنهم النفسى الذى كانوا يستمدونه من الأب باعتباره المصدر الأساسى للأسره .

كما أشارت التقارير إلى أهمية دور الأم فى بناء الأبناء وعادوا عليها باللوم فيما يختص برخاوه المراهق الذكر .

وقد أشار الدكتور اليكسى كارليل إلى هذا الخطر حين قال « لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطه جسيمه باستبداله تدريب الأسره بالمدرسة استبدالا تاما ، ولهذا ترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى ينصرفن لأعمالهن ومطامعهن الاجتماعيه أو مباذلهن أو ارتياد دور السينما . إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسره واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهن أموراً كثيره لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجوده فى محيطه إذ انه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه وعند ما تكون مجرداً وحده فى المدرسة فانه يظل غير مكتمل » .

وقد تبين حاجة الطفل إلى امه كاملة كما اكد علماء الاجتماع والنفس ان المحاضن تمد الطفل بالرعاية الجسدية ولكنها لا تقوى ان تقدم العنصر الأساسى لتكوين شخصية الطفل وهى الأمومه والرحمة والحنان .

كذلك تأتى ضروره تربية الأبناء على الرجوله وتربية البنات على الأنوثة ومن الضرورى تحديد الفوارق وتعميقها ليكون الفرد اما ذكراً واما انثى فمن الخطر البالغ ان يتقمص احدهما شخصيه الآخر حتى لا يغلب عليه تقمص عقليته وميوله الجنسية .

(٨)

ان المراجعة الدقيقة للشريعة الإسلامية فى بناء شخصية المرأه يكشف بوضوح عن اعدادها الحقيقى لما لتكون زوجة واما على نحو يكفل لها الكرامه

والسلامة ويحميها من عوارض الاخطار المتعددة التى تنوشها ، ومن اهمها « صيانه المرأة من جوار العرف والمواصفات وتقلباتها فى المستقبل ، فقد حفظ لها مقامها الاجتماعى من الابتذال المحاط بالمجاملة والرياء على نحو ما ترى فى المجتمعات الغربية حيث يوجد احترام ظاهر لها ثم ابتذال غير رحيم إما الإسلام فقد جعل الصيانة هى المحور الذى تدور حوله أكثر الأحكام .

أما الطلاق والتعدد فإن الشريعه لاتشير بهما إلا عند الضرورة القصوى والحاجة الملحه وبشروط مقررة ، وشرط تعدد الزوجية من الصعوبة بمكان مما حمل بعض الفرق على تحريمه لاستحالة تحقيق العدل بينهن ، أما الطلاق فلم يستحسنه الإسلام إلا حيث تستحيل معيشة الزوجين معا وبعد اخفاق كل الجهود .

وليس الزواج فى الإسلام نوع من المتعة بل هو نظام اجتماعى يبنى به المجتمع مقومات العفه والفضيلة على أساس ان الأسره هى نواة المجتمع الفاضل .

وقد حتم الإسلام التزام المرأة بامور ثلاثه : ان تطيع زوجها فى الفراش كلما دعاها إليه والا توطىء فراشه من يكره وان تحفظ غيبته.

وقد فهم الإسلام أن الزواج ليس تلبيه الحاجات الجنسية وحدها ولكنه جامع بين ذلك وبين تلبيه المعانى الروحية والنفسية والاجتماعية كذلك لا يقر الإسلام خروج المرأة للعمل فى غير الأعمال الضروريه التى تقتضيها حاجه المجتمع من ناحيه أو حاجه امرأة بعينها من ناحيه أخرى

وتتحدد حاجه المرأة إلى العمل فى حالة عدم وجود عائل أو عدم كفايه ما يعولها به عائلها وأعظم مجالاتها (تعليم البنات والتمريض وطب النساء) .

فالمرأة بتكوينها الجسمانى والفكرى والوجدانى ليست مهياة لوظيفه معينه هى الأمومه ما عدا الضرورة الملحه .

ولا ريب ان فهم مكانه المرأة فى الشريعه على وجه صحيح ودقيق يحول دون

تفسيرات عصور الانحطاط حيث اختلط مفهوم الإسلام بالعادات الاجتماعية السيئة والخرافات .

(٩)

عندما انطلقت حركة تحرير المرأة فى العالم الإسلامى لم تنطلق من داخل إطار الاصالة ، وسرعان ما تلقفتها الأيدى التى حرصت على أن تدفعها إلى الطريق المضلل الذى لا يحقق (الهدف) وإنما يحقق (الخطر) .

ولم تلبث إلا قليلا حتى تكشف الخطأ فى التصور وفى الحركة عن ازمة خطيرة اجتاحت الأسره وكان لها أثرها البعيد فى كيان المجتمع فقد خرجت عن الإطار الصحيح وتجاوزت الضوابط فى مسائل اللباس ومفاهيم العمل وشئون التربية وواجبات الأسره .

وغلب طابع التقليد والتبعيه فافسد الهدف الصحيح من تعليم المرأه وتحريرها من القيود والأوضاع الضارة التى كانت تعيش فيها .

ولم تستطع المرأه فى ظل الأوضاع الجديدة أن تقدم نموزجا سليما يرضى الرجل المسلم ويحقق له مطامحه ويقيم الأسره وينشىء الأجيال الجديدة ، فقد كانت اضواء الحضاره الغربيه بصورها المختلفه فى مجلات الأزياء والزينه وفى الصالونات والأنديه وفى دور السينما والمسارح وغيرها تبهر نظرها وتفتنها وتدفعها بعيدا عن فهم رسالتها الحقه وسرعان ما طغى الأثر الاجتماعى فافسد حياة الأسرة وحال بينها وبين الطابع الإسلامى كليه .

وكان للثقافات الغربيه ومفاهيم النظريات والمذاهب الوافده اثرها فى عقلية المرأه التى غلب عليها حب التحرر من مسئوليه البيت والأطفال والاستمتاع بالمظاهر الخلابة فى الملابس والسهرات وبدأ مفهومها للرجل متغيراً ومفهومها للعلاقه بين الرجل والمرأه مختلفا وتشكل فى نفس المرأه مزاج جديد لا يقيم للعلاقة الزوجيه إهتماما كبيراً ، فضلا عن النظرة إلى الرجل التى أصبحت لا تحمل طابع الحب والاحترام على النحو الذى رسمته شريعة الإسلام .

ولا ريب ان للرجل دخل كبير فى هذا الفهم الخاطىء المنحرف ، ولا بد ان للزوج أثر كبير فى تشكيل زوجته واختبارها وبناء شخصيتها على النحو الذى يرتفع بها عن الاهواء الخاصة والرغبات الشخصية إلى مستوى المسئولية الخطيرة مسئولية المنزل ومسئولة تربية الأبناء .

ولقد كان ذلك محققا لهدف من أ كبر أهداف اليهودية التلمودية الصهيونية وهو تقويض الأسرة فمن أ كثر من طريق : التعليم والثقافة والقصة والأوضاع الحضارية الوافرة من أزياء وزينة كل هذا بالاضافة إلى عدم بناء المرأة على أساس مهمتها تربويا ، واندفاعها إلى العمل كل هذا « هاجم هيكل المنزل وقوض أركان الأسرة وفرق الروابط الاجتماعية ولا ريب ان هذا الاتجاه هو بمثابة تيار مضاد للمثل الأعلى الإسلامى وقد ساعد على نشوء سبع علل أجتماعية :

(١) هدم التوازن الاقتصادى والانتهاء إلى أزمة شديدة الخطر تدفع الجياع لقبول المذاهب المتطرفة .

(٢) هدم الحياة البيتية وافساد العلاقات الزوجية .

(٣) إنتشار العزوبة بسبب فساد تلك العلاقات الزوجية .

(٤) ذيوع آفة البغاء بين الجنسين وتطرف النساء فى التهتك والتبرج .

(٥) إهمال تربية الأبناء .

(٦) وقوع الجنس النسوى فى الفاقة متى توقف العمل الخارجى .

(٧) اغراق النساء فى عرض أنفسهن إلى حد افساد الأخلاق واشاعة الفحشاء [1] .

(١٠)

فى دراسة واسعة عميقة عن الاخطار الأجتماعية فى حياة المرأة المسلمة للكاتبة

---

(١) من بحث للعــلامة محمد فريد وجــدى .

الباحثة العربية نازك الملائكة يقول : ان المرأة لا تزال تعيش تحت اسم (الجارية) بطلة ألف ليلة وليلة لايهمها إلا لباسها ولا ترى فى نفسها أكثر من متعة للرجل ، تعيش بغرائزها وعليها أن تكون جميلة وان تسلى الرجل وتطهو له الطعام السائغ وما زالت المرأة تحيا بعواطفها وغرائزها وحدها .

- واشارت إلى فساد النظرة التى تجعل الكمال جمال المرأة إنما يكون بالملابس الكثيرة مع الفارق البعيد بين الجمال والاناقة .

أما الجمال فهو ينبع من الروح ويتمثل فى الخلق الكريم والعذوبة والخشوع لله والنزاهة وهذا الجمال لاعلاقة له بالملابس والحلاق .

وهذا الجمال تعريفه : أنه البساطة الانسانية والفطرة كما خلقها الله اما التأنق فإنه من أخطر الأشياء على روح الإنسان وما أشد اذلاله لها ، لأنه يمثل الوسائل المصطنعة أو الجمال الزائف المصنوع بالوسائل الاليه وسواها .

وعندها ان الاناقة ضد المعرفة والعلم ، وان المرأة التى تشغل نفسها بالملابس التى تبرز أعضاء الجسم ، والتصنع فى تصفيف الشعر كل هذا يؤدى بالمرأة ان تكون أشبه بالجوارى فى سوق النحاسين .

وأشارت إلى مدى الفساد الذى أصاب المرأة التى تكتفى بهذا المظهر الزائف دون أن تكون عقلها وفكرها وتوسع ابعاد ثقافتها ، بحيث تذل لتجلس تحت يد الحلاق ساعتين للشعر ومثلها للاهداب والاظفار ان كل هذا يأكل وقت المرأة وعقلها ، ولا ريب ان الوقت الثمين الذى يضيع عند الخياطة يمكن أن ينفق فى اسباغ الحب على أب شيخ مريض أو زوج مرهق أو طفل يحتاج إلى التوجيه .

وقالت : ان دور الأزياء تحمل سيفا بتاراً وترفع سبابتها آمرة ناهية فتصيح بالمرأة : البسى هذا واخلعى هذا فلا تزيد المرأة على الرضوخ الخانع دون ان تفكر لحظة واحدة فى رفض هذه الأوامر .

وفى أحيان كثيره تأمر دور الأزياء بما هو مضر أشد الضرر ، ومن عجب

ان المرأه تقبل وتسكت لتظلها منومة لا قدرة لها على انقاذ نفسها ومن ابرز الأمور المتعسفة التى قضت بها دور الأزياء . لبس الكعوب العالية وهى بدعة ظالمة لم يعد الناس يلاحظون ما فيها من هوان وشر لطول ما ألفوها ، والكعب العالى يقتل الروح ويذلها لأنه يفرض علينا أن ندوس طبيعة أجسامنا دون سبب وجيه .

وأشارت إلى ضرورة احياء ملابس الجدات الطويلة التى تصون العفة وتحفظ الجسم من الحر والبرد اجل حفظ وفى وسعنا ان نطور هذه الملابس بما يلائم العصر على أن نصنع الاقمشة فى بلادنا دون ان نستوردها من الخارج .

وتقول : ان وضع المرأه الحالى لا يعطها من الفرص اكثر من أن تذهب إلى الحلاق وتتفنج وتحاول الاغراء على كل اسلوب . ثم غرتنا الملابس القصيرة وكنا نامل ان تردعنا عنها تقاليدنا الكريمة وحرمة الشرف عندنا ، فإذا المرأة تنهار امام هذا الغزو الفاضح ولا لوم عليها إذا هى انهارت فلست ارى الصحافة والاذاعات الامشجعة لها على الانهيار .

« ان اغلب معامل الاقمشة ومصانع العطور والمساحيق إنما يملكها اليهود فى الغرب واليهود كما ثبت فى هذا العصر تسعون إلى ان يسيطروا على العالم ويحكموه بعد القضاء على الحكومات العالمية جميعاً .

وأسلوبهم فى السيطرة ذوشقين : اولهما الاستيلاء على المال فى كل بلد ينزلونه وهذا قد يحقق لهم حينا وجدوا لأنهم قوم يقيمون تعاملهم على ابتزاز الاموال بوسائل غير مستقيمة مثل الربا ، وثانيهما ، هدم الأخلاق والمثل والقيم والمعتقدات واليهود يعلمون حق العلم انهم إذا هدموا الاخلاق تهدمت الشعوب وانهارت امامهم .

وقد عمل اليهود على السيطره على معامل الملابس والمساحيق والعطور وسواها من مستلزمات الموضة .

وهم بذلك يتوصلون إلى تحقيق الغرضين فيسيطرون على المال ويفسدون الدين والاخلاق انهم يعملون على بيع أكبر مقدار ممكن من الملابس ومنتجات

الأزياء إلى نساء العالم فكلما غيروا الانماط زادوا النساء شراء وانفاقا وتسربت الأموال إلى جيوب اليهود وهم يتعمدون أيضا قتل الأخلاق القومية للشعوب فيشيعون التفسخ وينشرون الشهوات ، وإنما الملابس القصيرة ابتكار يهودي لقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة ليزول الحيـــاء وتنتشر الرزيلة ويشيع الاختلاط غير البريء وتضيع طهارة الفتاة وتتهدم الأسرة وتنتشر الأمراض الجنسية ويبتلى الأطفال الابرياء وينشأ جيل ضائع موبوء مريض .

وبالجملة فإن فتاتنا العربية متخلفة تعيش بغرائزها دون عقلها وتمت الأزياء لا للحقيقة . إنمـا تتزين المرأة للرجل ، فلو كانت كل فتاة تجد رجلا تعزه ويلومها على تبرجها ويعلن ازدراءه لها لتركت المرأة التبرج[1] .

* * *

---

(1) من محاضرة للســيدة نازك الملائــكة .

الفصل الثالث

الاعتراف بالرغبات فى مواجهة نظريات الكبت

إن أعظم معطيات الإسلام فى العلاقة بين الرجل والمرأة هو الاعتراف بالرابطة القائمة بينهما فى مجال الغريزة والأحاسيس والجنس والإيمان بحقها فى الممارسة فى إطار الشريعة وعلى أساس الضوابط التى تحمى شخصيتهما وحياتهما من الاضطراب والتصدع . وقد جاء الإسلام فى ذلك متسقا مع الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية بحيث حمى المجتمع الإسلامى من آثار التعرض لأخطار كراهية المرأة واحتقارها جسديا واستنكار العلاقة الطبيعية معها كما كانت تقرر ذلك بعض الأديان والنحل أو عبادة الجسد والأغراق فى الجنس والاباحة كما تدعو إلى ذلك بعض المذاهب والدعوات .

ومن هنا فان الإسلام فى أفقه الفكرى ومحيطه الاجتماعى لا يعرف قضية من قضايا الجنس أو أزمة من أزمات الكبت ولم ينظر إلى العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها علاقة رغبة بل نظر إلى هذه العلاقة على أنها مودة ورحمة ، على أن متاع الحس والنفس بعض اجزائها . فهولا « يحتقر ذلك النداء الطبيعى ولم يترفع عن الفطرة الإنسانية » .

لقد ثارت قضية الجنس واتسمت أفكارها ودعواها فى ظل مفاهيم قضت باحتقار الرغبة وكبتها ودعت إلى التخلص منها واعتبرتها رجس من عمل الشيطان ودعت إلى مقاومتها بالرهبنة والرياضيات القاسية ، اما حيث قرر الإسلام ان هذه العلاقة هى فطرة الله التى فطر الناس عليها وانها واحدة من غرائز عدة شكلت النفس الإنسانية على أساسها فقد تحرر المجتمع الإسلامى من مثل هذه التحديات .

ولقد قرر الإسلام مع اعترافه بهذه الرغبة والغريزة والارادة امكان اعلائها وتاجيل ممارستها حتى تتيسر الوسائل المادية المحققة لبناء الأسرة دون ان يكون لذلك أدنى أثر فى أجهزة الإنسان النفسية والبيولوجيه .

وقد شرط الإسلام لذلك ان يحمى المجتمع ابنائه من الآثار والاخطار التى تثير كوامن الغريزه ، أو تدفعهم إلى مواجهة اخطار الأهواء سواء من حيث ذظهور المراه فى المجتمعات على نحو مثير ، أو وجود عوامل أخرى سمعية وبصرية وثقافية من شانها ان تثير هذه الرغبات وتضعف القدرة على مقاومتها .

ومن هنا كانت تلك الحملات الصاخبه التى تقذف بها القوى الخارجية فى أفق المجتمع الإسلامى سواء من قصص جنسيه أو افلام مثيرة أو صحف عاريه أو نظريات تبرر التكشف والاباحه .

ففى سبيل تيسير الاعلاء والتاجيل للشباب غير القادر على الزواج الزمت الشريعة الإسلامية المسلمين حماية والمحافظة عليه من اخطار الاثارة . وفى مقدمة ذلك شجب اجتماعات الرجال والنساء او الخلوه بالنساء « وكذلك نهت عن سفور المراه مع غير ذى محرم لها ووضعت عقوبات محددة للبغاء والقوادة ، تصل هذه العقوبات فى بعض الأحيان إلى هدم المنزل الذى تمارس فيه البغايا البغاء وحرقها بعد الاستيلاء على ما بها .

وكذلك حرص الإسلام « على تحريم العلاقات الجنسية غير المشروعة بهدف المحافظة على الصحة العامة ومنع الأضرار التى تنتج غالبا من الاتصال الجنسى غير المشروع من امراض تناسلية تضر ضررا مباشراً بالناتج البشرى وما يحدثه من ضعف ووهن فى النسل مما يلحق الضرر بالمجتمع والأمه كما يؤثر فى الإنتاج الاقتصادى » ولاريب « ان تحريم صور الاتصال الجنسى غير المشروع كالزنا امر تقتضيه ضرورة المحافظة على كيان الأسرة واحاطتها بسياج من الامان والاستقرار وتدعيمها كنواة اولى واساسية للمجتمع » .

كذلك يسر الأسلام سبيل التعاقد والزواج وخفض تكاليفه إلى ابعد حتى يتيسر الزواج واقامه العلاقات الصحيحة بين الرجل والمراة ودعا إلى زواج

الفقيرات المؤمنات والحيلولة دون التعقيدات التى تراكمت فى العصر الحديث حتى تفسح المجال لاخطار الفتنة والانحراف .

(٢)

لما كان الجنس عملا طبيعيا لحفظ النوع فقد كان الزواج عاملا طبيعياً للقضاء على ازمة الجنس ، ولقد كانت الغريزة الجنسية سجية خلقية توجه الإنسان للالتقات إلى الجنس الآخر وتدفعه للسلوك نحوه سلوكا خاصا وتحفز عواطفه بما يولد من اعجاب وعاطفة كان لابد من اقامة اطار سليم مرن للتحرك من داخله حتى لا تضطرب الحركة او تفسد العلاقة او تحدث اثرا سيئا فى بناء الأجيال والدماء والاعراق .

وهذه العاطفة من شانها ان ترقى إلى الزواج وهو ارتقاء مدنى وارتقاء عقائدى ، ولا سبيل لهذه العاطفة ان تنمو إلا فى اطارها الخاص وفى افقها الطبيعى :

حيث تولد منها الأمومة والبنوة وعطاء الرجل والمراة المتبادل فى اطار الأسرة .

ولما كان هـذا المنطلق الفطرى الطبيعى فى الإتجاه بالعلاقة بين الرجل والمراة إلى الزواج هو بناء الأسرة فقد كانت الحملة عنيفة عليه من مدرسة العلوم الاجتماعية التى تتحرك فى اطار المخططات التلمودية الصهيونية الهادفة إلى هدم الأسرة وتصويرها بانها علاقة غير فطريه وتصوير الزواج بانه نظام عتيق. واقامه انظمة لا تقرها الفطرة الإنسانية كحرية الصداقة وحرية الزواج بغير عقد شرعى ، وهى اوضاع تكون منها المراة فى مكان المهانة الشديدة وفى موضع الإماء والبغاء المتجدد من الجاهلية الأولى فى صور براقة باسم الحضارة

ومن هنا كان خطر استغلال الغريزة الجنسية فى الصحف والمجلات والكتب ودور التمثيل والأفلام السينمائية والأغانى فى محاولة خلق مفاهيم فكريه وعقلية تخرج الأجيال الجديدة من المفاهيم الأساسية القائمة على العفة والبكارة والطهارة وحماية العرض وشرعية الزواج وتصوير ذلك بصورة ساخرة كانها من مخلفات

(٣)

ولاريب انمن اخطر الدعوات التى تثيرها التلموديه الصهيونيه قصة المحرمات الجنسية تحت اسم مايدعى بالثورة الجنسيه العالميه فى سبيل تدمير القيم التى قررتها الأديان ووصف الزواج بانه الصلة المؤبدة التى لاتحتمل النقض ، ووصف الغيرة على الزوجه بانها غيره عمياء ، ووصف العفه والطهر بانها سذاجه وإثارة الشبهات حول كل هذه القيم من أجل الهدف الواضح المعروف : تدمير الأسرة : النواة الأساسية للمجتمع .

وإذا كان كتاب الغرب الذين جردتهم الماسونية العالميه لهذا الغرض قد استطاعوا أن يدمروا فكرهم ومجتمعهم فانذلك لن يخرجنا على مقومات الدين الحق ، لقد تصدع البناء فى الغرب بعد أن انسحب الأوربيون من الدين عامة والأخلاق بصفه خاصه ثم توالت محاولات الأحتواء التلمودى الصهيونى للمجتمع الغربى .

والمسلمون يؤمنون بأن دينهم الحق عندماوضع لهم الضوابط والحدود إنما أراد بها تمكينهم من الحياة الكريمه وحماية شخصياتهم من اخطار التجاوز وحملهم على بناء أجسامهم وأرواحهم فى اهاب القوة والمنعة والقدره على مقاومة الأخطار وأن هذه المحرمات ليست إلاشيئا يسيرا بجوار ماأحل من الطيبات ومامنع الدين شيئا إلاوله حكمة كبرى فى هذا المنع ، وأن مفهوم الثورة الجنسيه فى ضوء الإسلام ليس إلامفهوم انطلاق الغرائز والحيوان وتمزق القيم والحدود التى تفصل بين حريات الناس وحقوقهم وإنماهى دعوة إلى حياة الغابة حيث ينزو كل على الأخر وتلك صوره منكرة جاءت الأديان ترفعمن قدر الإنسان عنها وترده إلى إنسانية كريمة ، ولقد حفظ التاريخ صوره هذا التحرر الجنسى وهذا الأنحراف العزيزى وهذا الإنطلاق الأباحى فى حضارات فارس واليونان والرومان وغيرها وعرف كيف قوض هذه الحضارات وأبادتلك الأمم وأصابها بالأمراض والأخطار التى اعجزتها من أن تقوم بدورها فى دورة الحياة ونهضة الأمم فصرعت ودمرت .

ولقد كان المسلمون بطبيعة تركيبهم النفسى والإجتماعى ومزاجهم الروحى أمة جامعة بين الروح والمادة معتدلة فى مواجهة أمور الجنس ، تنفر من عبادة الأجساد ومن الانحراف الذى يعرفه الغرب والذى تخلده آثاره الوثنية القديمة فضلا عن شعره وقصصه الحديث الداعر الماجن الفاسق .

ونحن نعرف أن من وراء هذه الدعوات قوى التلمودية التى تحمل لواء الالحاح على استدراج الأمم إلى تدمير نفسها بالدعوة المسمومة إلى الحصول على أكبر قسط من اللذة القول بأن (اللذة هى غاية المرء من الحياة) وان من وراء هذه الدعوى القول بأن تحقيق ذلك القدر من اللذة غير متيسر فى ظل نظام الزواج الحاضر ، على نحو ماتدعو مارى دنكان وسيمون دى بولوار .

ولقد ينظر هؤلاء إلى مثل هذه المحرمات على انها من تقاليد الأمم ومن عاداتها وهى نظرة تختلف عن نظرتنا التى تقوم على أساس احلال ما أحل الله وتحريم ما حرم الله .

ومع ذلك فإن هناك صيحات تتساءل : هل يمكن أن نطرح اختبار البشرية وزبدة تجاربها آلاف السنين وهل العقل والاحتكام إليه يستطيع أن يهدى فى هذه الظلمات دون نور القلب .

وهل يمكن أن يصلح نظام آخر غير نظام الزواج الذى سنته الأديان فى اقامة العلاقات بين الرجل والمرأة وينكشف أيضا ومرة أخرى الهدف . وهو هدم الأسرة . هذه الخلية العتيدة ولقد يذهب البعض أو تذهب أمم بحالها فى عصر من العصور وراء هذه الأهواء المضلة ولكنها لن يستطيع أن تخرج البشرية من فطرتها ومن سننها ومن طبيعتها الأصيلة وسيظل نظام الأسرة كما فطر الله الناس عليه قائماً .

(٤)

ان مسالة الجنس فى أفق المجتمع الإسلامى وفى الأدب العربى مسالة اكبر من حجمها الطبيعى أما فى المجتمع الغربى والأدب الأوربى فإن لها أسبابها

وخلقياتها المرتبطة بمفهوم الـكبت فى المسيحية وهو عدم اعتراف الإنسان داخل نفسه بانه يحق له أن يفـكر فى اتيان هذا العمل بينما ليس كذلك فى الإسلام، فضلا عن عدم اباحة الطلاق مما يؤدى إلى الانتقال من الحلائل إلى البدائل.

وقد كان ذلك وذلك كله مما دعا إلى انتشار البغاء فى أوربا انتشاراً واسعاً بل ان هذا البغاء قد جاوز المدن والحضر إلى أن اقتحم بعض دور العبادة وكان له وللخمر فيها تاريخ طويل فقد عرفت اثينا وروما والهند والصين وأفريقيا واستراليا والبلاد العربية قبل الإسلام ما أطلق عليه البغاء المقدس، وهو ظاهرة ارتبطت بالوثنية حيث كانت الاصنام كان بغاء مقدس، حيث يفرض على الفتاة إلى أى فئة إنتمت أن تقدم عذارتها إلى الآلهة وان تبقى مدة هناك لتجمع مبلغا من المال تتقدم إلى الهيكل ثم تخرج وقد حدثنا هيردوت ان الجميلات لم يكن يطلن الاقامة ولـكن الفتاة الـكئيبة المنظر كانت مضطرة للبغاء سنوات لجمع المال.

ولقد كانت هذه البلاد تقيم الشعائر الدينية لاصنامها ممزوجة بجميع ضروب الخلاعة والفساد، وكانت عبادة ايزيس ومولك والبعل وعشتاروت ومليته وغير هذه من أخطر ضروب الخلاعة وأقبحها بل ان المعابد الخاصه بتلك الالهة لم تـكن سوى مسارح لأحط ضروب الشعائر الشهوانية التى كان القوم يمارسونها باسم الدين».

ولقد عرفت أوربا هذا النوع من البغاء فى كافة عصورها القديمة والحديثة ولم تستطع الديانة المسيحية ان تحول بينها وبين هذا الوباء الخطير، وقد ورثت أوربا الحديثة عن اليونان تقاليد عجيبة ومفاهيم خطيرة فى تبرير هذا الإتجاه فقد أصبح لامراء البغاء نفوذا خطيرا على رجال السياسة لايقاوم. أما الرومان فهم أول من ابتدع تسجيل بيوت البغاء فلما جاءت المسيحية كان موقفها ازاء محترفات المهنة ادعى إلى الرأفة بهن والشفقة عليهن.

ثم لم تلبث ان اعادت الحقوق المدنيه والاجتماعية لمحترفات البغاء ومساعدتهن على التوبة حتى تزوج الامبراطور يوستنانوس بالباغية (تيودورا) ثم جاء ولاه

الرومان الذين اضطهدوا المسيحية فعذبوا المتنصرين بارغام فتياتهم على البغاء وقد اعترف اباء الكنيسة وفى مقدمتهم القديس (اوغسطينوس) بان البغاء شر لا بد منه وبان ازالته بتاتا قد يفضى إلى انتشار الرزيلة على وجه اشد ضرراً بالإجماع .

وفى العصر الحديث رات دول الغرب فى البغاء مورداً مالياً لا يشتهان به فنظمته تنظيما دقيقا وسنت له القوانين وكان لليهود دور كبير فى نشره وتوسيع نطاقه وجعله مصدراً من مصادر دعوتهم التلمودية إلى هدم القيم والمجتمعات إلى جوار نظام الربا الذى فرض على الاقتصاد الغربى ، ومن الحق أن الربا والبغاء هو وجهين لعملة واحدة هى المجتمع الاباحى الوثنى . الذى عاش اليهود لاقامته فى كل زمان ومكان فى العالم .

وقد عقدت مؤتمرات متعدده فى أوربا لمواجهة تجارة البغاء التى أشرف عليها وأدارها سماسرة اليهود تحت اسم تجارة الرقيق الأبيض من نساء وأولاد .

ولا ريب ان هذه الصورة التاريخية هى الخلفية الأساسية للعقلية الغربية فى مواجهة مسالة المرأة خارج نطاق الزواج الشرعى . لقد كانت أوربا فى عصرها السابق للمسيحية تدين بعبادة الأجساد وترى المرأة أداة لذة ، فلما جاءت المسيحية عجزت عن أن تحرر أوربا والغرب أو تصحح مفاهيمه ذلك لأنها حملت لواء الدعوة إلى الرهبانية المطلقة وانكار الرغبة الحسية ومحاربتها ومحاولة تطهير النفس البشرية من أى شعور بالاستجابة للدافع الطبيعى الأصيل فى الإنسان ، ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذى تحول به المجتمع الغربى مرة أخرى إلى الاباحية وكانت هذه الرده المعاصرة أشد عنفا من الصوره القديمة فى عصور الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية .

(٥)

ولقد جرت المحاولات لتصور الفكر اليونانى على نحو لا يكشف أعماق مفهومة للمرأه والجنس ، غير أن هناك وثيقتين خطيرتين فى هذا الصور ترسمان الصوره الحقيقية لمفهوم المرأة والجنس فى الحضاره اليونانية .

(الأولى) مفهوم الفيلسوف اليوناني سقراط بالنسبة للجنس والمرأه وهو مفهوم خطير عمد كل الذين كتبوا عنه أن يحاوروا ويداوروا وافى تصويره خوفا من كشف على حقيقة مما يبعث على الصد عنه واحتقاره .

ولقد تناول ذلك أحد تلاميذ هذا الفكر واتباعه حين قال : « ان سقراط هو الذى استطاع أن يلقى بظله العميق العنيف على كل الحضاره الغربية فقد كان سقراط رجلا دميما ، ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقى وقد كان مصدر الاستيلاء الشذوذ الجنسى على الحضاره الإغريقية كاهامشات السنين، ولم يكن يستنكره أحد واستطاع سقراط بذكاء وخبث ان يفرض احتقار الجسد الإنسانى سواء جسد الرجل أم جسد المرأة واحتقار كل ما هو جنسى ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هى حس فقط وجنس فقط فقد استبعدها من دنيا الحياه العقلية . ورأى ان المرأه والجسد والحس سرور يجب أن يتخلص منه الإنسان ووراء سقراط وتحت تاثيره الهائل سارت الفلسفة والأدب والمسيحيه أيضاً حتى يودنيا هذا »(١) .

وهذه النظرة هى التى ظهرت بوضوح فى (جمهوريه أفلاطون) الذى دعا إلى شيوعية النساء .

(الثانى)الصوره التى رسمها الأدب اليونانى الهليني الاغريقى للمرأه هى صوره كريهة مريره ، فحرب طرواده الضروس التى طالت عشر سنوات اشتعلت نارها لأن هيلينة زوجه منيلاس وهو من ساده القوم عشقت باريس أمير طرواده وهربت منه إلى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً وهكذا دارت الحرب المدمرة فى سبيل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء واصطلت الشعوب بسعرها دون أن يكون لها فيها مصلحة أو يحفزها إليها حافز » .

« والمرأة الإغريقية تتصف بالغدر فى أغلب ماسى الإغريق وتستسلم للرزيله دون أيه مقاومة وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة باحط النزوات » .

---

(١) من بحث للاســتاذ

وإلى جانب (هلينة) التى خانت زوجها دون أى تردد او شعور بتأنيب الضمير هناك قصة (الـكترا) التى تعبث أبيها (كلتيمنسترا) بقدسيه الروابط الزوجية وتتخذ لها عشيقا فى غيبة زوجها (اخمنن) الذى رحل على رأس الجيوش الاغريقية ليغزو (طروارة) وينتقم من أميرها ، ولم تـكتف بارتـكاب هذه المعصية ولـكنها أقدمت على جريرة أشد نـكرا مدفوعه بشهوتها البهمية فقتلت زوجها البطل عذرا بالاشتراك مع عشيقها (ايجيست)(١) .

وهاتان هما الحقيقيان اللتان تشكل عليهما من بعد العقل الغربى والأدب الأوربى فى فهم المرأه وهما فيا يرى الـكثير وفى الاصول العميقة لمفاهيم فرويد فى الجنس والمرأه .

(٦)

أما المفهوم العربى للمرأه قبل الإسلام (وهو مفهوم مستمدمن الحنيفيه التى جاء بها ابرهيم عليه السلام ثم تحرر بالإسلام فى صورته الإنسانية) فإن المرأه العربية والمسلمه فيه « تتصف بالوفاء وتتولد محنتها عاده من رقة احساسها .

«أماالمرأة الإغريقية فانها تتصف بالغدر فى أغلب ماسى الإغريق وتستسلم للرزيله دون أية مقاومة وترتـكب أبشع الجرائم مدفوعة باحط النزوات » .

وهكذا كان مفهوم الجنس منذ وقت بعيد فى الفـكر الغربى والمجتمع الغربى خاضعا لأشد ضروب الاباحة فى الرجل والمرأه على السواء ، ومن ثم فان مفهوم الحب الذى يتردد إنما يعنى فى حقيقه مفهوم الفعل الجنسى، بينما يقف الأدب العربى من الحب موقفاًساميا رفيعاً ، عجبت اوربا له حين انتقل إليها من الاندلس فانشا ذلك الفن الذى وصف بانه شعر التروبادور فقد أهدى العرب والمسلمون إلى أوربا نموذجا اتى للحب العفيف بعد أن عاشت أوربا لا تفهم إلا حب الشهوات والجنس والغريزه فى اقسى صوره .

---

(١) النصوص من كتاب رحلة الادب العربى الى أوربا « محمد مفيد الشوباشى » .

والحقيقة كما يقول الأستاذ مفيد الشوباشى ان لم الناس لم تكن تعرف الحب الطاهر قبل الإسلام وان الشعر الجاهلى العربى لم يصور لنا الحب إلا لهفة على تلك المرأة والاستمتاع الحسى بها ، فلما جاء الإسلام تغير مفهوم المرأة ومفهوم الجنس ومفهوم الحب .

ونزهت المرأة عن أن تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة ، وظهر الحب العذرى وتخطى حدود نجد وذاع فى أنحاء البلاد العربيه وانتقل إلى أوربا وكان كما يقول بعض نقاد الغرب الشرفاء : أهم عامل فى تهذيب النفوس وتهيئه السبيل لانتقال البشرية من العصر الوسيط إلى العصر الحديث

« ان العرب منذ فجر الإسلام لم يعرفوا نظام الحريم ولم تحتجب المرأة وجهها بالنقاب الانادرا » .

يقول سيبرونكس فى كتابه القصة فى سبعة قرون : لقد غفلت المرأة الأوربية عن حقيقة لو فطنت إليها لنهنهت من كبريائها فهى لم تبتدع أسباب رقيها ولكنها ورثته عن المرأة العربية .

« ومن الاخطاء الشائعة نسبة الحب الطاهر المنزه عن النزوات الجسدية إلى أفلاطون وتسميته الحب الافلاطونى فهذا الفيلسوف الاغريقى لم يشعر قط بالحب المذكور ولم يشر إليه أيه اشارة عابره ومرجع هذا الخلط إلى اشتهار أفلاطون بازدراء ماديات الحياة وحقائقها الواقعه » .

« وقد يخطر بالبال فى بحث الحب الطاهر الذى عبر عنه شعراء التروبادور يرجع إلى المسيحية ولكن تعاليم الدين المسيحى لم تغير فى واقع الأمر شيئا من القواعد الهمجية والأخلاق البربرية الوثنيه التى سيطرت على أمراء أوربا وسراتها قبل اتصالهم بالعرب ، فقد اضطرت الكنيسه إلى التغاضى عن ذلك والكنيسة كانت واقعه تحت سيطرة الفكر الاغريقى ومن المعروف ان فريقا من قساوستها كان يتعصب لافلاطون وفريقا آخر لارسطو فطغت معتقدات هذين الفيلسوفين وتعاليمهم على معتقدات الكنيسة وتعاليمها وكان أغلب المشتغلين بالأدب من رجال الكنيسه ولكنهم ظلوا متأثرين بالفكر الاغريقى » .

ومعنى هذا ان أوربا والأدب الغربي لم يعرفا هذا اللون من الحب القائم على الوجدان والحنان إلا عن طريق العرب .

يقول روبير بريفو : « ان فلسفه الفضيلة ، فلسفة الحب التى طال ارتباطها بالشعر العاطفى المقتبس من الأندلس والتى سادت دوائر الحب فى بروفانس ، استمدت من الإسلام أصولها والشعراء التروبادور المتلمذون على الشعراء العرب لم يحيدوا عن استغلال الفلسفه الصوفيه إذ لم يكن فى وسعهم أن يستعينوا بمذاهب الطهر والعفه ، ولذلك حرصوا على أن يستمدوا العواطف التى يصفها العرب بالطهر من الشعر الأندلسى القادر على تزويدهم بأناقة خاصة » .

وقال سجريد هونكه : ان تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوربيه على يد العرب .

ويشير الجهلز : « ان الحب الذى تصوره لنا ملاحم الاغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدى العنيف المنتقم الذى تراق فى سبيل ملذاته الدماء وتزهق الأرواح .

أما الحب الإنسانى : العفيف الوفى ، الذى يبعث المروءة والنبل والنخوه والنجدة ، الحب الذى عرفه الإنسان لأول مرة فى ربوع نجد فلم تعرفه أوربا إلا بعد اتصالها بالعرب ولم يعبر عنه الشعر الأوربى والقصه الأوربيه إلا منذ ذلك الحين ولكن المثقفين من الأوربيين ينكرون هذه الحقيقة » .

وهذا قام الحب فى الأدب العربى على أساس العفاف والإيمان بالعفاف على حد يعتبر الدكتور مصطفى عبد الواحد «فالعفاف ضرورة للحب وبدونه يصبح رزيلة من الرزائل لا ترتبط بقيمة خلقيه ولا ينتسب إلى معنى كريم ، والإيمان بالعفاف مستمد من الإسلام أصلا ، «حفاظا على العاطفة ونأيا بها عن الدنايا» ومقياسه « الالتزام بمبادىء العذرية والبعد عن التعلق بالحس والاعجاب بالصورة » .

وقد صور هذا المعنى العلامة ابن حزم حين كشف عن اصالة الحب فى

الفكر الإسلامى القائم على فضل العفاف وتقبيح المعصية وسلوك كل السبيل فى الإقناع والتحذير بما يعود بالعفاف إلى مصدره الأصيل وهو خوف الله وحذر سخطه وبالرغم من أنه يؤمن بقوة الغرائز وحتمية قوانينها إلا أنه يرى ان بامكان الإنسان (المسلم) أن يطيع عقله ويبصر رشده ويجانب ما حرم الله) .

وقد أشارت الدراسات المتعدده التى أجراها الباحثون على مفهوم الحب فى الإسلام :

إن الحب ليس بحرام فى ذاته مادام صاحبه يرعى حدود الدين وأدابه ويحذر من المعاصى ويقف عند حد العفاف(١) وان هناك رابطه حقيقه بين الحب وبين الزواج على أساس الشرع .

ومعنى هذا ان النفس الإسلاميه بطبيعة تركيبها وابعادها التاريخية والعقائدية لا تقبل ذاك المفهوم الغربى الذى يجعل الحب هو ذاك المفهوم الحسى الخالص ، ولا يقر مفهوم الجنس على تلك الصورة المكشوفة ويرى ان ذلك كله يجرد المفاهيم الحية من ابعادها الحقيقة وجوهرها الصافى ويجعل العلاقه بين الرجل والمرأة علاقة مادية حسية محضة بينما ان هذه العلاقة فى حقيقتها وجوهرها رابطة وسكن وعاطفة ووجدان والرغبة الحسية جزء منها ولكنها ليست كل شيء .

ومن هنا فان مفهوم فرويد وما يتصل به هو مفهوم غريب على النفس المسلمة وغير قابل للالتقاء بالمفهوم الإسلامى الأصيل .

(٧)

ان مفهوم الجنس الذى تطرحه النظريات الاجتماعية الغربية هو مفهوم زائف ليس بالنسبة للمجتمع الإسلامى وحده بل بالنسبة للبشرية كلها ، لانه اخراج لها عن فطرتها ومباعده بينها وبين طبيعة الإنسان نفسه .

فإن هذه المكاشفة الفاضحة ، وهذا الاندفاع نحو الشذوذ ، والاسراف

---

(١) عن بحث الحب فى الادب العربى للدكتور مصطفى عبد الواحد .

والانحراف ليس هو السبيل الطبيعي لبناء الإنسان أيا كان ، وليس تحقيق الذات بالجنس في غير اطارة الطبيعي والمشروع إلا عاملا من عوامل هدم البناء الإنساني وتدميره .

إن الاتصال بين الرجل والمرأة شيء طبيعي ولكن الأخلاق تنظمه وتضع قواعده حتى يتم في اطار الفطرة : دون عدوان أو اغتصاب أو افساد للسلائل أو تدمير لكيان الإنسان .

ولقد تنبه (جون كارل فلو جل) إلى هذا المعنى حين قال : ان مكتشفات التحليل النفسي ونظرياته في ميدان الغريزة الجنسية قد صدمت شعور كثير من الناس، ومن هنا فهو يدعو إلى «الحذر من نتائج هذه النظريات وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد القديمة المقدسة » وقال وقال ان علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بهذه العقد التي يحلو لهم الحديث عنها لذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبه بالهوى قائمة على معرفة مبتسرة .

ولقد كشف علماء الطب والبيولوجيا على مدى خطر الافراط الجنسي وأثره في عرقلة النشاط العقلي وأشاروا إلى أنه لا سبيل إلى ري العاطفة الجنسية فإنها لا تشبع أبدا ولا ترتوي مهما موورست .

وإن ذلك من شانه أن يؤدي إلى اخطار في العقل والجسم دونها اخطار الامتناع والحرمان .

بل لقد أكد العلماء والأطباء — من غير رجال الفلسفة — ان الأقوياء يصيرون أكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد أو الامتناع .

وأشار الدوس هكسلي في كتابه الوسائل والغايات نقلا عن اخصائي كبير قام بابحاث هامه واحصائيات دقيقه عن وجود علاقه عكسية بين النشاط الفكري والاجتماعي والفني من جهه وبين الاباحيه الجنسيه من جهة أخرى وبانه لا يمكن تلازمهما أكثر من جيل وان العفة والاحصان شرط ضروري يسبق كل نوع من الحياة الخلقيه التي تسمو على الحياه الحيوانية .

ويرى كثير من العلماء والباحثين أن العلم ما زال قاصراً فى ميادين كثيرة ومنها ما يتعلق بالنفس الإنسانية وبتركيب الإنسان وخاصة فى مجال الغرائز والعلاقات الجنسية :

يقول دكتور الكسيس كارليل : ان اغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة فنحن لا نعرف الاجابة على أسئلة كثيرة مثل :

كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقته الخليه« كيف تقرر (ناقلات الوراثة)الموجودة فى نواة البويضة الملحقة صفات الفرد المشتقه من هذه البويضة ، كيف تنظم الخلايا فى جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الانسجه ، والاعضاء فهى كالنحل والنحل تعرف مقدما الدور الذى قدر لها ان تلعبه فى حياة المجموع وما هى طبيعة تكويننا النفسانى والفسيولوجى . اننا نعرف اننا مركب من الانسجة والاعضاء والسوائل والشعور ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزا ، « اننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كامله تقريبا عن فسيولوجيه الخلايا العصبيه : أى إلى مدى تؤثر الارادة فى الجسم ، كيف يتاثر العقل بحاله الاعضاء ، على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقليه التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياه والمواد الكيماويه الموجودة فى الطعام والمناخ والنظم النفسيه والادبية » ويعلق على هذا بعض الباحثين المسلمين فيقول « هذا التعقيد فى تركيب الكائن الإنسانى وفى وظائفه وفى أوجه نشاطه هو الذى يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الاساسية فى خلافة هذه الارض وهو تعقيد ما زال مستعصيا على العقل البشرى لانه فوقه وأكبر منه .

(هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الارض وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) هذا التركيب العجيب فى وظائف الاعضاء وفى اعمال الغرائز وفى شان التركيب الخاص بالجسم فى الرجل والمرأه تجعل كل ما يقوله فلاسفة النفس والعلوم الاجتماعية فى حاجة إلى أن يتلقى بحرص شديد وتوق شديد لانه ليس إلا جملة

فروض يحكمها الهوى وتدفعها الرغبة وتتحرك من خلال غرض مرسوم ، فهى ليست خالصة للعلم وحده . لان العلم نفسه فى هذه الامور قاصر وليس امامنامن حقائق إلا ما قدمه لنا الدين الحق ، فى مفهوم الفطره وقوانينها والسنن الثابتة التى لا تتغير :

(فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) .

ولقد كشفت الفطره عن حقائق كثيرة فى علاقات الرجل والمرأة ، جاءت بها الاديان ، وفصلها الإسلام وهو الصورة الاخيرة للدين الحق ، ثم جاءت نظرات علماء الطب والبيولوجيا (وهم ليسوا من الفلاسفه والمتصدرين فى مفاهيم النفس والاجتماع والاخلاق) فا كدوا هذه الحقائق .

ولقد حاولت دعوات العلوم الاجتماعيه وفرويد ومن وراء أفلام الجنس ، وصحافة الجنس ، وكتب الجنس ، أن تغرى البشرية بالدعوة إلى الانطلاق بغير حساب بينما قال الطب غير ذلك تماما ، وأكد ماقاله الإسلام :

يقول دكتور كاريل « من المعروف ان الافراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى ، ويبدو ان العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو وكبت مؤقت الشهوة الجنسيه حتى يستطيع ان يبلغ منتهى قوته » .

وأشار كارليل إلى أن نظره فرويد فى هذا الصدد محدودة ولا تمثل الحقيقة كلها ، فقال ان ملاحظات فرويد تتعلق بالمرضى على الاخص ، ومن ثم يجب إلا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الاشخاص العاديين ، وبخاصه أولئك الذين وهبوا جهازا عصبياً قوياً ، وسيطرة على أنفسهم ، وبينما يصبح الضعفاء المعتلوا الاعصاب غير المتزنين ، أكثر شذوذاً عند ما تكبت شهواتهم الجنسيه فإن الاقوياء يصيرون أكثر قوة » .

(٨)

إن الفرضيه التى طرحها (فرويد) فى أفق الفكر البشرى كله والتى تسربت

إلى الفكر الإسلامى واستطاعت أن تكون مادة تدرس فى الجامعات والمعاهد يتنورها النقص من كل جانب ، وتحيط بها وبوجهتها الشبهات من كل جانب .

هذا الفرض الذى يقول ان نوازع الإنسان ودوافعه كلها تنطلق من الجنس وان الغريزة الجنسيه هى مصدر كل تصرفاته . هذا الفرض الذى افترضه فرويد إنما استمده من تجارب على المرضى زوار عيادته ولم يستمده من الاصحاء وهو قد خالف به زملائه فى التحليل النفسى :

« أد لر ويونج » فهما لم يقبلا به ، وهو عندهما مضاد للتجربة وللعلم وللفطرة والطبيعة البشرية ، ولكنه الافتراض الغريب هو وحده الوحيد الذى أصبح من المسلمات والذى وجد من القوى ذات النفوذ تاييداساحقاحتى استطاع أن يسيطر على افاق الفكر الغربي ويؤثر فى نظريات الأدب والقصة والفن ومفاهيم الأخلاق والنفس والاجتماع وفى تفسير التاريخ .

ان فرويد لا يقرر بذلك حيوانية الإنسان فحسب لكنه يرى أن الفهر والدين والأخلاق والقيم العليا فى حياة البشرية تنشا من الجنس ، وأن الانسان تحركه غرائزه وتسيطر على نشاطه ، وان الروح لا وجود لها على الاطلاق ، وأن القيم خرافة وهى نفاق العقل للنفس والمجتمع .

ولم يقف فرويد عن حد هذا التصور المادى فحسب بل أنه وضعه فى اطار الجبريه المطلقة فالغرائز عنده لا يمكن قمعها ومن العبث محاولة كبتها .

وهو بذلك يلغى الارادة الفردية والمسئولية والالتزام الأخلاقى ويدفع البشرية كلها إلى اتون الشهوات والاهواء ويحطم كل الضوابط والحدود والقيود التى تحفظ للانسان بنائه الجسمى والنفسى وتحفظ المجتمع كيانه الأخلاقى وروابطه الفردية وعلاقات الرجل والمرأة .

ولكن ليست العبرة بالنظريات أو الفروض المطروحة فى أفق الفكر البشرى وهى كثيرة متعددة متضاربة ، وقد قصد بها إلى تبديد الأمن النفسى واذابة

الافراد والجماعات فى اتون الحيرة والقلق والتمزق ، ولكن العبرة بالقدرة على إذاعه هذه النظريه ودعمها واحاطتها بقداسة العلم وبراءة العرض :

تقول بروتوكولات صهيون التى ترسم السياسة اليهودية :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا، ان فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر ارواء غرائزه الجنسيه وعندئذ تنهار اخلاقه » .

ويقول لوكهارت فى كتابه اليهود المعاصرون : إن الادب العالمى قد يكون مدينا لبعض كتاب اليهود ولكن شرهم أكثر من نفعهم وإثمهم أكبر من خيرهم فإن هينه أفسد اخلاق باريس ونواردو حلل المبادىء والنظم التى تدعم المدينه وأظهر كسادها وتعفنها ، أما فرويد فقد خلق الاباحيه الحديثة على نمط الوثنية الاغريقيه ومجد الغريزه بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأه ان يفعلا بجسدهما ما شاء »

وفى ضوء نظرية فرويد بدأت حركة ضخمة فى المجتمعات والقصة والآداب وتدافعت القوى الخطيرة لإقامة أندية العراء ، وحملت اليهودية التلمودية اخطر دعوات الاجتماع ، والفكر فى هـذا العصر : الدعوة إلى العرى والجنس والكشف والاباحة : وهى دعوة خطط لها علماء وباحثون واجتماعيون وسيطرت على دور السينما والنشر والازياء والزينة جميعا : دعوة إلى أن يصبح الناس لا يخجلون من أعضائهم التناسلية بل ويقدسونها وقد ازاحوا كل من وقف فى سبيل معارضة دعوتهم :

وأخرجوا المدرسة الغربيـــة من نفوذ الدين حتى يبيحوا لها تقبل كل توجيهاتهم وسخروا بكل القيم والأديان وجرى اتباعهم على نفس الطريق يبحثون عن المحرمات ويسخرون بالاخلاق ويدعون إلى التحرر من كل القيم .

(٩)

ان أكبر الدلائل على ضعف نظرية فرويد هى أنها لا تعارض القيم الاخلاقيه التى جاءت بها الاديان والتى صاغها الإسلام كخاتم لهذه الاديان فى صورتها الإنسانية والعالمية فحسب ولكنها تعارض المنهج العلمى الحديث فى المعرفة ولا تجد تسليما بها فى أى مجال من مجالات هذا العلم حتى فى مجال التحليل النفسى الذى يعد فرويد مؤسسه وواضع قواعده .

وذلك لسبب يسير جداً هو أنها تحتقر الإنسان وتصوره كانه مجموعة من الغرائز والشهوات « لا ترتفع عن واقع الارض المادى ولا تنطلق من قيد الغريزة لحظه فى فن رفيع أو فكره عليا » مع ان شخصية الانسان فسيحة لها أبعاد واسعة وعميقه تشمل عشرات من الرغائب والاهواء والمطامع والمطامح فإذا جاء فرويد ليحصرها فى الجنس وحده ، أو يجعل الجنس منطلقها إلى كل رغائبها وغاياتها كان واضح الاعتساف والابتعاد عن المنهج العلمى الحقيقى والنظرة الأصيلة.

لقد اعتمد فرويد على المدرسة الاجتماعية التى اتخذت من داروين منطلقا لها فى اقرار حيوانية الإنسان وما دينه ونفى جوانبه الأخرى النفسية والروحية وطوابعه الاجتماعيه والإنسانيه وذهب فى ذلك إلى أبعد مما ذهب تلاميذ داروين من أمثال سبنسر وغيره .

فالإنسان ليس مخلوقا أرضياً وليس له جانبه المادى وحده ، ولكنه متميز عن سائر المخلوقات بالسر الذى أعطاه تبارك وتعالى الله له عن طريق العقل والنفس والارادة والمسئوليه وجعله أهلا لحياه أخرى اعظم من هذه الحياه .

وهو ليس مقطوع الصلة بعالم الغيب ولا بالنبوات ورسالات السماء ولكنه موصول بها أعمق صلة وعمله فى الدنيا مسئولية ورسالة لها تبعتها ولها اتصالها بعالم الآخرة الذى هو الحلقة الأخيرة المرتبطة بالدنيا ارتباطا عضويا وثيقا ، ارتباط التكامل وارتباط التتابع وارتباط الشرط وجواب الشرط .

ان مظاهر حيوانية الإنسان من شهوة طعام وشهوة جنس وشهوة امتلاك ليست إلا وسائل لقيام واستمرار عمران هذه الأرض ودوام حركتها إلى اجلها المسمى عند خالقها ، فهى ليست إلا مظاهر الحياة فيه ولكنها ليست جوهرها، إنها الوسائل الطبيعية التى تمكنه من أداء دورة وتحقيق ذاته ولكنها تحمل فى الأعماق فكرة عالية ورسالة كبرى هى تحقيق إرادة الله فى الأرض بالاستخلاف وباداء هذه الرسالة فى حدود ضوابطها وفى نطاق مسئوليتها ، بالارادة الفردية العاملة المسئولة عما استخلفت فيه .

ولا ريب ان ذلك كله يغيب عن أصحاب النظرية المادية فلا تبدو الحياة لهم إلا فى أحد صورتين :

اما انها أداة الجنس أو أداة الطعام (فرويد وماركس) .

(١٠)

جمعت نظرية التحليل النفسى بين فرويدوادلر ويونج ثم فرقت بينهم فكرة الغريزة الجنسية فكانت نقطة الخلاف : يرى فرويد ان الجنس هو الأساس فى كل الدوافع الإنسانية .

أما ادلر فقدرفض هذا الافتراض وقد نبذ أهمية الغريزة الجنسيه النبذ كله وارجع تكوين الشخصية ونشاة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة فى القوة وحاجة الإنسان إلى التعويض عن نقص مافى كيانه وعنده ان المحرك الأول للانسان هو حب السيادة والسيطرة اما يونج فيقول ان الجنس ليس إلا دافعا واحداً من دوافع عدة .

النزوع وتحقيق كبريائه وتركيز الضوء على شخصيتة وان حافز توكيد الذات وليس الوافع الجنسىهو القوةالسائدة الإيجابية فى الحياة ويرى أن الدافع الجنسى ليس له تلك الأهمية الشاملة التى ينسبها فرويد إليه فى حياة الطفل .

ولم يؤمن يونج بقاعدة واحدة تصلح للتطبيق فى جميع الحالات النفسيةوقال

ان لكل نفس بشرية قاعدتها التى تصلح لمعالجتها فلا سبيل لايجاد حل واحد لنفسيتين مريضتين وان ظهر لنظرة الأولى ان الأعراض بينها مكرره ، والأقوال متماثلة .

وعلى الرغم من أن هذه كلها فروض تثبت أو تخفق أمام التجارب المختلفة فإنها فى مجموعها قد هزت فرضيه فرويد هزا عنيفا وحاولت أن تكشف عن فسادها .

وقد قال يونج أن آراء فرويد ذات جانب واحد وانها غير ناضجة تمام النضوج

وقال : ان الدافع الجنسى لايميز نفسه عند الطفل وينكر ان اللبيد جنسيا بكليته وأن مصدر سرور الطفل فى الحصول على الغذاء هو اللبيد ولكن يجب إلا يوصف بانه جنسى أبدا وذلك على اعتبار ان الدافع الجنسى لم يميز نفسه بعد عن الميل الإبتدائى للحياة .

ولقد رفض شركاء فرويد مفهوم (اللبيد) أى الطاقة الجنسية وأطلقوا على هذه الطاقة أسماء مختلفة . منها قوة الحياه أو الدافع الحيوى كما سماها برجسون.

وكدفوا كذلك عن ان فى الإنسان ثلاث غرائز أخرى أقوى من الغريزة الجنسية وهى البغض والتعدى والتحدى وهى تسبب بتوترها جميع الاضطرابات العقلية فى العالم .

ويرى ادلر ان أسلوب الحياة لا يفرض على الإنسان فرضا بالوراثه بل يحدده مركز الأسرة وان تكوين الانماط البشريه يبدا فى هذه الفترة المبكرة وان الطفل قبل سن الخامسة لا يعرف القيم والمعايير الخلقية بل يكسب أسلوب الحياة بالقدوة والمثال من البيئة التى يعيش فيها .

ويذهب ادلر إلى نقص نظرية الدافع الجنسى لفرويد من أساسها حين يقرر ان الحب أصل والحياة الجنسيه فرع ، وان الحياة الجنسية لا تظهر فى الفرد إلا عند البلوغ .

ويرد ادلر الاضطرابات التي تعترى حياة الأطفال النفسية في مطالع حياتهم إلى عدم شعورهم بالعطف والحب ، وان الأطفال الذين يفقدون حب آبائهم يصبحون مصدر مشكلات كثيرة لأن الطفل الذي يلتمس الحب فلا يجده يركبه الحسد والغيرة ويميل إلى سلوك يحاول به لفت الأنظار وإثبات سيطرته وقد يدعى المرض أحيانا التماسا للعطف .

ولا ريب ان هذه الاراء جميعا تختلف مع أسس نظرية فرويد وتنقضها من أساسها .

وقد أثبت يونج ومكدوجل ان العقل الباطن ماهو إلا خرافة ونوقش فرويد فى مسألة العقل الباطن وعقدة فرويد فانكرها أخيراً .

وقد أجمع العلماء على أن نقطة الضعف فى فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعليم والوصول إلى قوانين عامه ، وأنه كان يتخذ من نماذجه المرضى والمنحرفين أساساً لنظرياته ، وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة كل تصميماته .

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن فرويد أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء وانه يرمى بنظرياته وارائه دون أن يقدم البرهان العلمى والسند الواقعى ، أى أنه يفترض ثم يصدق ما يفترضه ويبنى عليه وكأنه حقيقة لا يأتيها الباطل .

(١١)

أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل ان الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة تالية من كثير من الدوافع الأخرى (كالدافع إلى الشراب أو الطعام أو الهواء) ثم ان الدافع الجنسى يخضع للتربية بمعنى اننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكنا فحسب بل ضروريا .

وتأتى مسألة الكبت من أهم الأمور التى وجه إليها فرويد تحذيراً شديداً وهى بمفهوم الفكر الغربى قد تكون كذلك ولكن المجتمع الاسلامى الذى يعترف بالغريزة الجنسية وبالرغبات البشرية وينظمها ويدعو إلى ممارستها وتحقيقها فى اطار من الاعتدال والضبط يمتنع معه وجود الكبت أو ما يتوقع أن ينشأ من الكبت من أمراض نفسية أو عصبية .

ذلك لأن الفكر الغربى المسيحى فى أعماقه يحمل أمرين خطيرين أحدهما مسألة الخطيئة الأولى المفروضة على النفس البشرية إلى آخر المدى ومسألة انكار الدافع الحيوى واحتقاره والدعوة إلى الاستغناء عنه بالرياضيات المرهقة .

ومن هنا فان المجتمع الإسلامى الذى يعترف بالدافع الحيوى ويدعو إلى ممارسته إذا ما تيسرت أسبابه الاجتماعية والاقتصادية ، أو اعلائه وتأجيله إذا لم تتيسر هذه الممارسة مع الاعتراف به وتأكيد وجوده ، هذا المجتمع لا يصاب مطلقا بأزمة الكبت التى هدد بها فرويد المجتمعات فى سبيل الاباحة والطلاق الجنس .

ومن اخطاء فرويد التى كشف عنها العلم دعواه بان معارضة رغبات الطفل فى صغره تؤثر فى تصرفاته فى الكبر وقد روج هذه النظرية علماء التربية من اتباع ريوى وخاصة فى بلادنا العربيه والاسلاميه، وقد تبين من بعد فشلها وزيفها فقد أجرى عدد من العلماء الأمريكيين دراسات تجريبية بيئية عن طريق الاحصاء تبين منها أن استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل ضرورة ، وأنها لا تؤثر مطلقا على مستقبل الطفل وقال هؤلاء الباحثون أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل منها البيئة والوسط والحالة الاجتماعية .

ونصحوا الأباء بان لا تستسلموا لهذه الفروض الوهمية ولا يتركوا أبنائهم دون توجيه و بناء فإن ذلك من مسئوليتهم الأساسية .

وخرجت دراسات متعددة تكشف زيف فروض كثيرة مما طرحه فرويد واستسلم الفكر الغربى له ، من ذلك ماذكره الدكتور ناثان كلاين من أن نظريه فرويد فى العلاج النفسى والعقلى (وهى النظرية التى ترجع جميع

الاضطرابات النفسية إلى اسس جنسية بحته) هذه النظرية ليست سوى معول هدام لعقول الشباب ومخدر مميت للنفوس ورجح الدكتور كلاين البيئة كمسئول أول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسي وعقلي .

وكذلك أجرى الدكتور اسكندر توماسي عدداً من البحوث بواسطة فريق من الأطباء النفسيين انتهى منها إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة وان اقبال رجال التربية على لوم الآباء بشأن توجيه أبنائهم كان من أكبر الأخطاء ويقول العلماء في تقريرهم أنهم درسوا حياة ١٥٨ طفلا غير منحرفين بينهم الفقراء والأغنياء فوجدوا ان الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من قيود النظم القاسية في تربيتهم ، وذلك يدل على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل .

وان هذا من الأوهام التي شهرها سيف فرويد على اعناق الآباء .

(١٢)

من أجل كرامة الله يعادى الإسلام الفكر المعادى للزواج ، ومحاولات اخراج العلاقة بين الرجل والمرأة من اطارها الكريم وضوابطها الرفيعة وجعلها سائبة لاحدود لها ، ويربط الإسلام بين الرجل والمرأة بعلاقات كبرى : ليس الجنس إلا أحدها وأقلها ، فهي علاقة مودة وعاطفة ووجدان وصداقة عقل ونفس ومنها جانب الغريزة وقضاء الوطر ونيل اللذة .

ويختلف هذا الفهم الجامع المانع عن مفاهيم الغرب القديمة والحديثة : القديمة التي يرى ترتوليان :

ان الجنس ثمرة الخطيئة : خطيئة حواء وآدم ، فالفلسفات السابقة على الإسلام تحاول حصر الزواج في أضيق نطاق وتحرمه على القادة الروحيين أو تقلل فرصته بمنع زواج الأرملة والمطلق[1] .

أما الفكر الحديث فانه يطلق العلاقة اطلاقا تاما من كل القيود ويدفعها

(١ ، ٢) عن بحث للاستاذ محمد جلال كشك .

إلى محاولة واضحة للقضاء على الأسره ، ويقصرها على هذا الأداء الجنسى السريع ثم ينتهى كل شىء من هذه العلاقة .

ومن هنا كان تشديد الإسلام فى عقوبة الزنا فهى جزء من خطته فى تقدير المرأة واعلاء شانها .

« أن تحريم الزنا فى الإسلام لا ينبعث عن كراهية الجنس بل من احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ومن احترام المرأة وتنزيهها عن أن تكون أداه لمتعة الرجل وحتى لا ينسب الطفل » لغير المصدر الحقيقى الذى انجبه فإذا علمت أن الزنا لا يجوز إثباته بالتجسس أو الشبهة وان عقوبة الرجم لم تطبق فى التاريخ الإسلامى إلاعلى معترف أو معترفة وان هذا الزانى المعترف لو انكسر بعد ان اصابته الاحجار بل لوفر هاربا من الاحجار لاوقف تنفيذ الحد » .

ومن هنا ومن حيث يعترف الإسلام أساسا بالرغبة ويدعو إلى ممارستها ووضعها فى حلال ، فإن مجتمع الإسلام لا يعرف هذا الشعار الذى يتحدث عنه كتاب وكاتبات الغرب ، أن قضية تحقيق الرغبة فى الإسلام يسيرة جدا فهى لا تحتاج إلى أكثر من كتابة عقد الزواج .

أما تحقيق الجنس بالبغاء فانه ليس أسلوبا أصيلا لتحقيق رغبة الإنسان بالكراهية والاحتقار، ان البغاء هو احتقار للمرأة وهو ليس حبا ولا جنسا ومن هنا يشجب الإسلام فكرة مشاعية النساء ويركز على الابوة ويجعلها الأساس الأول للأسرة (ادعهم لأباءهم هو اقسط عند الله) .

إن هذه المحاوله كلها المحفوفة ببريق الشهوات وزخرف النظريات الاجتماعية إنما هى محاولة من الرجل للخروج على الأسرة وهدمها وتحطيم أصولها :

إنها محاولة الرجل الغربى لجعل المرأة اداة لذة ومتعه دون مسئولية عليه ودون بناء أسرة ودون تحمله تبعة الابناء ومن ثم تظل المراة جارية وغانية ولا تصل إلى مكانها الكريم الحق الذى قررته لها الأديان .

إن الجنس الذى احتقره رجال المذاهب والديانات فى الماضى بالشجب

والتجريم هو نفسه الجنس الذى يحتقره اليهودية التلمودن اليوم بالأباحة والاطلاق والمرأة فى كل الحالين هى المجنى عليها وهى موضع الكراهية والامتهان : أما ما جاء به الإسلام فهو فطرة الله التى فطر الناس عليها .

إن أخطر ما تقول به علوم النفس والإجتماع الحديثة هو دعوتها إلى الاطلاق العام والأباحة المطلقة والدعوة إلى ارضاء النزعات والرغبات والشهوات عن غير الطريق الصحيح . الطريق المضبوط الذى يحفظ الذات ويحمى الكيان الإنسانى ويحفظ كرامة المرأة ويدعم كيان الأسرة ويحمى الأجيال الجديدة .

إن وراء هذه الرغبة القائمة بين الرجل والمرأة غاية هى بناء الخلايا الأسرية المتتابعة وبناء أفرادها وحمايتهم وليست هى غاية فى ذاتها ، أنها غاية للاشباع النفسى ووسيله إلى مسئولية هامة بعدها .

ومن هنا فإن محاولة وصف الإطلاق بمعنى الحرية ووصف الحرية بأنها تعنى التقدم فيه خطأ كبير وتمويه كثير . الحرية ليست بمعنى الانطلاق ولكنها بمعنى الحركة فى داخل الإطار وفى حدود الضوابط التى لا تحقق عدوانا على حرية الآخرين والتقدم لا يعنى عودة الإنسان إلى حياة الغاب بالعرى أو الممارسة المكشوفة ولكنه إرتفاع بالإنسان إلى قيم الكرامة والإيمان والتصون والعفاف .

فاذا ذهبنا نبحث عن أسلوب التعليم والناقلين وجدناه فى نتاج علوم الطب والبيولوجيا مصاغا فى أسلوب التقوى الإسلامية لن يكون هؤلاء الفلاسفة من المشتغلين بعلوم النفس والعلوم الاجتماعيه قادة فى ميدان التعليم والتربية بحال لأنهم لا يملكون علما صحيحاً ولا يملكون إيمانا بالإنسان نفسه فضلا عن إيمان بالله والقيم .

ليس رأى فرويد ولا دوركايم ولا غيره هو العلم ولكنه الفلسفة ، إنما العلم من شان رجال التجريب على النحو الذى كتب به الدكتور اليكسى كاريل وغيره من العلماء معروضا فى إطار إسلامى سليم .

ليس العلم الذى يمكن أن يقدم هو نظريات الفلسفات التلمودية اليهودية التى

تدعو إلى تقديس الأعضاء التناسلية والتى تدعو إلى العرى والكشف فان هذه الدعوات لم تقم أساسا على مفهوم أخلاقى أو فى إطار دين بل على القاضى تعاليم الأديان ومن أجل هدم مقومات الأمم .

أما كتاب القصة فهو أفسد رأيا واشد خطراً من رجال العلوم الاجتماعية ولا يجوز أن يكون كتاب الفقه حكما فى مثل هذه المسائل ولا يكون لهم رأى لأنهم إنما يقيمون القصة على الخيال والهوى والإغراء .

لقد تناول فقهاء المسلمين موضوعات الجنس تناولا واضحا سليما فى حدود الحلال والحرام وفى إطار الضوابط النفسية ، وغاية ما يفهم الإسلام من الجنس أنه صله بين الرجل والمرأة تقوم فى إطار الزواج وتشمل معادين كثيرة غير الرغبة الحسية .

وقد وضع الإسلام توجيها خاصا للتربية الجنسية فى القرآن والسنة وجعل الأم الصالحة عماد الأمر كله وقرر أنه إذا بلغ الأطفال منكم الحلم أن يستاذنوا فى ثلاث أوقات هى الفجر والظهيرة والمساء ومن حقه فى غيرهم أن يدخل استئذان كما حرم الإسلام عدم إظهار زينة المرأة للطفل الذى يفهم ويفعل ، ودعا إلى فصل الأبناء فى المضاجع ، وتوجيههم إلى فهم العلاقات مرحلة بعد مرحلة عن طريق الحاجة ومن خلال السؤال فإذا سال الشاب أو الفتاه يجاب إجابة تقوى وعلم لا إجابة هوى وغرض بحيث لا يتركا ليسالا الآخرين الذين سيجيبون إجابات مضللة مفسدة .

أما الصلاة فيامر بها الأطفال لسبع ويضرب من أجل التقصير منها لعشر ، مع التفريق فى المضاجع ، وهذه هى التربية الوقائيه .

فإذا تفتح الشاب للقراءة وجد أمامه كتبا كريمة بعيده عن القصص الجنسى والمجلات ذات الصور العارية . ثم يعلم أولاً باول مايكشف له عن حقائق الأوضاع وعن مسئولية الفرد الخاصة أمام الله ويربى على الامتياز والعفة والكرامة حتى لا يسلك سلوك المنحرفين .

(علمنا النبى أن لا تسمح لمن يبلغ سبع سنوات أن ينام فى غرفة أخته أو

اقاربه) هذا هو سلوك الإسلام : صراحه فى عفه ، وكشف للحقائق فى إطار الإيمان ، أما معالجات الأدباء والقصاصين وكتاب الجنس فهذه ليست معالجات علمية أولا ، وليست فى مفاهيمها وكتاباتها أصيلة الاستمداد من المفاهيم الاسلاميه وهى تفتح الباب أمام إخطار كثيرة وليست العبرة بالصراحة والمواربه ، ولكن العبرة بالأيدى التى تقدم والاحترام التى تكتب .

ولقد أصاب الأجيال الماضية خطر كبير مما أسلمت له من الروايات والقصص المترجم الفاسد ومن كتب رخيصة مبثوثة عن الجنس ومجلات وصور لم يرد بها الخير لنفوس الشباب وعقوله . ولقد كانت من نتائج ذلك أحداث هوت بكثير من هذه النفوس الساذجة إلى مهادى الخطر .

إن معطيات تفسير الجنس وشئون العلاقات بين الرجل والمرأة لن تكون أبدا من شان رجال القصص والأدب أو من شان اتباع مذاهب فرويد والعلوم الاجتماعية فهؤلاء جميعا من وراءهم هدف خطير وغاية بعيدة المدى ولا بد من حسن الاختيار والثقة بمن نقرأ عنهم قبل أن نقرأ لهم .

* * *

الباب الثالث

الانسان

مع الحياة

أولا : الانسان مع الجماعة

ثانيا : الانسان مع الحضارة

ثالثا : الانسان والزينة

رابعا : الانسان والموت

خامسا : الانسان والعالم المواجه

سادسا : الانسان والمسرح

سابعا : الانسان والسينما

ثامنا : الانسان والفن

الفصل الأول

الانسان مع الجماعة

بينما تصطرع المذاهب في الغرب حول الفردية المؤلهة للفرد وبين الجماعية التي لا ترى الفرد إلا ترسا في آله، يقف الإسلام موقف التوازن والتكامل الجامع حيث لا يغنى الفرد في المجتمع ولا يغنى المجتمع في الفرد .

فالفرد والمجتمع متكاملان معاً ، متفاعلان معاً « المسلم فردياً في الفكر إجتماعي في العمل » الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد كلاهما يأخذ ويعطى ، المجتمع يبرز مرة والفرد يبرز مرة أخرى ، والتفاعل موجود في جميع الحالات ، والإسلام ليس نظاماً فردياً خالصاً ، ولا نظاماً جماعياً خالصاً ، الإسلام يختلف عن النظامين الفردى والجماعى، هو نظام فردى جمعى أن صح التعبير فهو يركز على الفرد بغير تدليل ولا إفساد بل بالتربية والعقل والتكاليف بحسبان أن المجتمع ما هو إلا هؤلاء الأفراد مجتمعون فإن صلحت تربية الفرد صلح المجتمع .

يقول المؤرخ أرنولد توينبى : لقد ضحت الماركسية بالحرية من أجل العدالة بينما ضحت الماركسية بالحرية من أجل العدالة ، بينما ضحت الرأسمالية بالعدالة في سبيل الفردية ، إن كلا منهما يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر ، وكلتا النظرتين مادية ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان . ولن يستطيع أحدهما أن يتغلب نهائياً على الآخر والإثنان في صراع مع الوطنية أو القومية، تقول: أما الإسلام فهو يوازن ويجمع في تكامل ووسطية رائعة بين الجماعية والفردية .

والإسلام يركز على بناء الفرد كنواة صالحة للجماعة من خلال الأسرة ،

بناء الفرد بوصفه عاملا أساسياً فى تكوين الأسر التى تمثل وحدات المجتمع ، والإنسان عنده كائن جسدى وروحى معاً وهو فى هذا يختلف عن الفكر الغربى الذى ينظر إليه على أنه كائن جسدى فحسب فالإنسان هو أعظم الأحياء وهو سيد الكون تحت حكم الله ولذلك فهو موضع الأعداد الكريم السليم ليكون نموذجا حيا : رجلا أو امرأة لتكوين أول وحده من وحدات المجتمع ، وهى الأسرة فبناء الإنسان هو هدف كبير ، وأساس هذا البناء يقوم أصلا على أن يصبح الانسان شخصية سليمة ويكون فى نفس الوقت لبنة فى بناء المجتمع ويتحقق هذا البناء فى مجالات ثلاث : هى الجسم والعقل والروح .

ويقوم ذلك أساسا على مبدأ التوافق بين الفردية والجماعية ، فالمجتمع فى خدمة الفرد والفرد فى خدمة المجتمع وكلاهما يتكاملان .

وقد جاء الاسلام باروع عقيدة توازن موازنة سوية بين الفرد والجماعة إذا قام التكافل الاجتماعى على أساس الأخوة الاسلامية ، وهو طراز فذ من التعاطف الانسانى إستطاع أن يجب العنصرية ويقضى على التفرقة الطبقية ، ويحرر العقيدة من التعصب المقيت كما كفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية وكذلك عالج توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها فى يد فرد أو أفراد قلائل وهو نظام لا يقضى على نشاط الفرد وميله الغريزى للمبادرة والعمل والكسب كما يقيم التنافس على أساس القدرة والعدالة معا وقد أثبت تجربة الحكم الاسلامى فى صدر الاسلام نجاحها الباهر فى خلق مجتمع متوازن تتكيف فيه إرادة الفرد مع صالح الجماعة فتكفل الجماعة للفرد حقوقه وتفرض عليهما معا واجبا يقوم فى الدرجة الأولى على نقاء الضمير والقانون الأخلاقى الذين تحتمهما عقيدة التوحيد وشريعة الاسلام .

هذا التوازن من الفرد والجماعة هو الذى شقيت الانسانية دون الوصول إليه فهى بين فردية مفرقة فى ذاتها أو جماعية جامدة تصب الأفراد فى قالب واحد من الميول والأهواء .

ومن حيث يقرر الاسلام التوازن بين الفرد والجماعة فهو يقيم التكافل

الاجتماعى على أساس الأخوة ، وهو طراز من التعاطف الانسانى من شأنه أن يقضى على العنصرية والتفرقة الطبقية ويحرر العقيدة من التعصب حيث يقوم مفهوم المجتمع فى الاسلام على أمرين : (أولا) التعادل بين ثنائية الفرد نفسه وبين الفرد والفرد من ناحية أخرى (ثانيا) التوازن بين الفرد والمجتمع .

ويقرر الاسلام أن تنسيق الفرد والجماعة يتم عندما يتحقق عاملان هامان:

أولهما : أن تكون البيئة مؤاتية مثمرة لكل الحوافز المادية .

ثانيا : أن يسود الايثار نوازع الأفراد فى مجتمع ينشد الحياة الكريمة ونظرة الاسلام تتمثل فى أن هناك تفاعلا دائما بين الفرد والمجتمع يأخذ ويعطى حيث يكون دور المجتمع واضحا مرة ودور الفرد بارزا مرة أخرى والتفاعل موجود فى جميع الحالات دون إلغاء دور الفرد الممتاز فى التوجيه والقيادة ودون إنكار جيشان المجتمع فى سبيل التماس إرادة التغيير على يد فرد ممتاز (١) .

(٢)

يصور بعض الباحثين(٢) المسلمين المجتمع الاسلامى على أنه عقد مشاركة وتضامن بين جميع أفراده (الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء) وقد حث الاسلام على رعايتهم جميعا ، وبذلك عارض الاسلام نظريات الجنس الممتاز وقتل المرضى والضعفاء .

والضعيف فى تقدير الاسلام خمسة اصناف : من جهة التركيب (النساء)

من جهة السن (اليتامى) من جهة المعاش (الفقراء)

---

(١) من بحث « القيم الاساسية للفكر الاسلامى » للمؤلف .
الاعلام بمناقب الاسلام .

من جهة الرقبة (العبيد) من جهة الوطن (ابناء السبيل)

وقد حث الاسلام على رعايتهم جميعا .

« يعطى الاسلام أهمية كبرى للانسان كفرد فى مجتمع ويؤكد حاجته إلى التقدم المستمر ، وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها (فكرية وخلقية وعملية) لتنطلق فى خدمة تقدمه كإنسان.

« كذلك دفع الاسلام المجتمع كله فى طريق واحد دون السماح لعائق أن يقف فى وجه تلك الطبقات ولا سيما القانون الطبقى الذى يحكم على الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها لا على أساس مواهبه وقدراته وما يمكن أن يقدم للمجتمع من خدمات كذلك فإن كل فرد فى المجتمع الاسلامى يستحق من الاحترام والطاعة بقدر ما يتحمل من المسئولية وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق والسن والمكانة بين الناس » .

« وهنا يتميز الاسلام عن المجوسية والزرادشتية فقد كان ملوك الفرس بتأثير دينهم يقسمون الناس إلى طبقات ويحكمون عليهم بالانساب لا بالأعمال ويحرمون عليهم الترقى من طبقة إلى طبقة وبذلك حجزوا على الكثير من المواهب والطاقات وعاقوها عن أن تعمل وتبتدع لأنهم جردوها من حوافز العلم والابداع « وقد اعتبر الإسلام ان الشرف والضعة أمران نسبيان » .

وقد قصد بذلك إلى هدف واضح : هو إقامة مجتمع متماسك تسوده المحبة والولاء وتحرم فيه أسباب القطيعة والعداء ولذلك يوجب الإسلام : المحافظة على ولاء النسب ، وولاء العقد ، وولاء الدين » .

وهكذا تكشف كل هذه المعانى عن قصور مذاهب الفردية (جون لوك وآدم سمث وبنتام وغيرها) وكذلك قصور مذاهب الجماعية (ماركس وانجلز وغيرهما) وتقدم منهجا أكثر عمقاً واصالة وشمولا وتوازنا من المذهبين اللذين يتصارعان فى العالم اليوم صراعا عنيفا ويقسمانه إلى فئتين كبيرتين .

ولقد تنبأ كثير من الباحثين بفساد كلا المذهبين فقال لندس فى بحث له عن

الفردية : ان المذهب الفردى لفلسفة كاملة متناسقة للحياة الاجتماعية لابد بالضرورة أن ينهار وليس فى وسع إنسان أن يكون فرديا مطلقا ، كما أنه ليس فى وسع إنسان أن يكون جماعيا مطلقا ، لأن كلا من الفرد والمجتمع يؤثر فى الآخر ويعتمد على الآخر وحتى الذين تطرفوا فى الفردية ورفعوا قيمة الشخصية الإنسانية فوق جميع النظم السائدة فى المجتمع يضطرون للاعتراف بالدور الذى يلعبه المجتمع والنظام السائدة فى قيمة الفردية ودعمها » .

ويورد العلامة صلاح السلجوقى ترابط الفرد بالمجتمع فى الإسلام على نحو فريد فقال.

الفرد فى الإسلام له حق وعليه واجب نحو فرديته ومجتمعه سواء بسواء فهو يتأمل فردياً ويعمل اجتماعيا ويرعى نفسه ويكون مسئولا عن رعيته ويشاور الجماعة فى الأمر وإذا عزم عند الضرورة توكل على الله ، وله حق الكسب والتملك ، والتمتع بالمال ولكن عليك أن يؤدى الزكاة والصدقات ، حتى لا يدخر رأس مال كبير وبعد موته يقسم ماله بين الورثة ولا يبقى شىء جدير بان يسمى رأس المال ولا ينسى نصيب نفسه من الدنيا : العلم والرياضة والغذاء ، وحينما تستدعيه حاجة المجتمع فانه يقدم هذه النفس إلى التضحية مؤمنا بان التضحية حياة له وأن الهرب منها معناه إلقاء نفسه بيده إلى التهلكة ومن ناحية أخرى فإن من قتل نفسا بريئة بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .

فالمسلم فرد فى المجتمع ومجتمع فى الفرد لأنه يكون دائما مع عائلته وعشيرته ومع ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ومع الشعب فى الرأى والحكم والدفاع والتعمير والاصلاح .

ومن هنا كان إنتشار الاسلام وإعلاء شان دولته المبنية على العلم والفضيلة والحق والخير وإلى كان الفرد فيها مقوما للجتمع والمجتمع محصلا للفرد .

إذا لم يكن هناك فرد لا يوجد حق وإذا لم يكن مجتمع لا يتحقق واجب.

فالانسان يطير بجناحين : جناح الحق وجناح الواجب ، ولا يمكن أن يطير

بجناح واحد ، لأن الفرد المندمج فى المجتمع أجير مثقل بالواجبات ومسلوب الحقوق وليس من المتوقع منه أن يكون حراً فى تصرفاته أو أن يكشف عن سر أو يبتكر أمراً أو يعود إلى حق أو خير . هذا الفرد المنتفخ المتورم بالحقوق دون ما لواجب ، والاسلام يقرر الاعتصام بحق الوسط بين الفرد والمجتمع والجمع بين الحق والواجب .

ولقد كان هذا التناسق بين الفرد والمجتمع ملحوظا فى المجتمع الاسلامى .

اما النهضة الاوربية فقد انحرفت عن مبادئها الاجتماعية والخلقية .

« جاء (بنتام) واراد أن يضع أساس المجتمع لا على أساس الخير بل على اساس اللذة : التى كانت مبدأ مدرسة أبيقور الشاذة ، بل أراد (بنتام) ان يكون مبدا اللذة بلون اشد فناءا ويحوله إلى مبدا المنفعة بوصفتها المعروفة التى تقول .

(اكبر لذة لأكثر عدد)

وبمساعيه وجهود (ستوارت ميل) قام المبدا النفعى الذى هو الجرثومة الأولى للاستعمار . ثم ظهر هربرت سنيسر واخذ فى تطبيق مبادىء النشوء والارتقاء الحيوانى على علم الاجتماع وفلسفة الأخلاق والانسان .

وقرر أن القوة هى الحق كما أحل سلفه بنتام النفع مكان الخير .

وبذلك أضاف سينسر مبدأ القوة والتفريق العنصرى إلى مرحلة الاستعمار وهكذا بلغت الفردية أشدها بل أقصى درجاتها .

« ومرة أخرى انعكست الآيه بظهور الماركسيه وعاد الصراع بين الفردية والماركسية أشد بأسا وباسلحة أشد فتكا وذهبت الارجوحه إلى طرفيها .

الماركسية عكست العمل بمدرسة فردية بحته تؤمن إيمانا عبوديا بالفرد وتنكر المجتمع بتاتا (هى الوجوديه) حيث يعيش الفرد فى كهف فرديته .

« ومن قبل كان فى التاريخ تقابل ، أما الفرديه الطاغية أو الجماعية الطاغية »

فقد انحرفت اليهودية إلى المادية الطاغية وانحرفت المسيحية إلى الروحية الطاغية وجاء الإسلام فكان وسطا لجعل الفرد متفاعلا مع المجتمع وجعل المجتمع متفاعلا مع الفرد ٠

« وأصبح للفرد حقوق وعليه واجبات».

« لم يكن الاسلام مساوياً طاغيا ولا روحيا طاغيا ولكنه كان وسطا جامعا مانعا(١) ٠

* * *

(1) من كتاب اضواء على الادب والاجتماع وللتاريخ ٠

الفصل الثانى

الانسان مع الحضارة

ان قضية الإنسان مع الحياة هى قضية التكامل أو التمزق ، الأمل أو اليأس ، الثقة أو الحيرة ، التفاؤل او التشاؤم ، اليقين أو الشك ، الارادية أو اللا ادرية

ومفتاح الأزمه كلها فى عبارة واحدة هى الانفصام بين الروح والماده أو الانشطارية بين الدنيا والآخرة ، أو هى فى كلمة واحدة : الإيمان بالله .

لقد استطاعت الحضارة أن تقدم للبشرية أعظم معطيات الترف والرفاهية والمتاع المادى على نحو لم تعرفه العصور أو الأمم السابقه ، وعلى نحو مذهل للعقل نتيجة تقدم العلم والتكنولوجيا ولكنها عجزت أن تقدم له غذاء الروح وشفاء النفس وطمانينه القلب بل لعل هذه المعطيات المادية كلها هى التى حطمت الرابطة الجامعة وفرقت الوحدة وخلقت ذلك التمزق واليأس والحيره والتشاؤم والشك واللاادريه التى يعيشها المجتمع الغربى كله والتى بدأت تزحف رويدا إلى شبابنا ومجتمعاتنا تحت تاثير المذاهب الوافدة فى محاولة تعمل على إحتواء النفس الإسلاميه فى اطار الوثنيه والمادية والاباحية التى قدمتها المناهج والفلسفات واخطرها الوجودية وآخر حلقاتها الهيبية حتى كتابه هذه السطور .

وما أظن ان أمتنا تجهل الاشواك التى تمزق اقدام الأمم فى هذا العصر ، نتيجة للأزمة الاجتماعية والنفسية التى تمر بها بعد ان انفصلت عن العقائد السماويه والأخلاق وحاولت تجربه بعد تجربه ان تلتمس لها من الايدلوجيات والمذاهب منهج حياة .

وان الصورة امامنا واضحة والاخطار مكشوفه ، فما بالنا نلتمس فكرا

قد وورط أصحابه فى الأخطار ودمر عليهم واحاطهم بالتمزق والضياع حتى لقد عادوا يلتمسون له من طب الشرق ومن تراث الخصوصية الزائف أيضا علاجا كأنما ظنوا ان الداء من أرض علاج لداء فى أرض أخرى .

إن الصورة الغربية التى تكشف عنها الأخبار والأحداث خطيرة ومثيرة فى نفس الوقت .

انها اندفاع لا يتوقف نحو هاويه لاقرار لها ، وكأنما العيون معصوبه فلا ترى والقلوب مغلقه فلا تشعر ، وان رأت العيون أو شعرت القلوب فانها ترى أنها على الطريق الصحيح ، زين لهم سوء أعمالهم ، وقد حجب عنها الضوء من كل مكان فلا تجد غير طريقها سبيلا فهى تتردى فى حتميه لا سبيل إلى العودة منها .

ولقد كان حقا علينا ونحن نرى ، ومعنا فى نفس الوقت ضياء العالمين أن نتجنب نفس المزالق وان نعتصم بالهدى الذى أمدنا به ربنا وديننا .

إن أخطر ما قدم الينا ذلك التقرير الذى كشفت عنه الدراسات الاجتماعية فى السويد(١) حيث ان ٢٥ فى المائة من سكانها مصابون بامراض عصبيه أو نفسيه وان ٣٠ فى المائه من النفقات الطبية فى السويد تنفق فى علاج الأمراض العصبية والنفسية وان ٤٠ فى المائة من مجموع الأشخاص الذين يحالون إلى المعاش قبل سن المعاش بسبب العجز عن العمل تماما هم من المرضى الفعليين .

وذكر التقرير أن من مظاهر انتشار الأمراض العصبية ارتفاع نسبة حوادث الانتحار ففى المدة من (١٩٥١ — ١٩٠٨) تضاعفت حالات الانتحار بين الشابات فى أعمار ٢٥ سنة إلى ٢٩ سنة إذ زادت من ٦٫٢ حالة من كل مائة ألف امرأة إلى ١ر٢ حالة .

وقال المراقبون أن هذا التقرير يدعو إلى الذهول لأن السويد واحدة من

---

(١) جريدة الاهرام ١٩٧٢/٣/١٨ .

أغنى اربع دول فى العالم . ثم اورد التقرير ان دول الرفاهية لا تزيد من سعادة الفرد كما هو متوقع وإنما تضعف شخصيته واحساسه بالمسئولية مما ينتج عنه خلق شخصية متحللة ، وقال التقرير ان هذه الحقائق تؤكد ان هناك خطأ ما فى العلاقة ما بين الفرد والمجتمع » .

وإذا بدا هذا التقرير غريبا على الباحثين الاجتماعيين فى العالم كله فانه فى تقدير الباحثين المسلمين امرا طبيعيا وهو النتيجة الوحيدة المنتظرة للمجتمعات المترفة : مجتمعات الرفاهية فهو يكشف عن عظمة الإسلام فى دعوته إلى البساطة وإلى الاخشيشان وإلى الاعتدال وقد دوت كلمات القرآن منذ اربع عشر قرنا تحمل على المترفين حملة قاسية وتصفهم بانهم مصدر خطر كبير على نمو البشرية وعلى تقدم الإنسانية وانهم هم دعاة الدهرية والمكذبون بالبعث والجزاء وانهم أضعف الناس عن مواجهة الظالم او دفع الخطر او التمسك بالحق ، وان المجتمعات إذا سيطر عليها الترف اندفعت إلى التحلل والفساد .

وقد اشارت ابحاث كثيرة إلى ظاهرة الخطر التى تسيطر على الحضارة الغربية كلها نتيجة وصولها إلى مجتمع الوفرة والترف وعجيب ان هذا المجتمع الذى كان امل المصلحين لم يستطيع ان يحقق للنفس البشرية ما كانت تتطلع عليه .

واشار روبرت كولز وغيرة إلى ان مجتمع الوفره قد اخفق حتى الآن فى ادراك الحاجة لتحديد أهداف ذات معنى للحياة غير والاهداف المادية ، ودمغ الباحثون هذا الاتجاهين قالوا : ان الوفره من غير تراث خدمه عامه وبلاحس للمسئوليه وبلا اهداف اجتماعية تترك الشباب فى فراغ نتيجة السام والقنوط .

ومن هنا فقد تحطمت تلك النظريات التى سيطرت خلال خمسين عاما اذ تزيد فى المجتمع الغربى (وحاول البعض ان يطرحها فى افق المجتمع الإسلامى) والتى تقول ان (الرفاهيه) هى المثل الاعلى فى الحياة بينما هى تتعارض مع فكرتى الواجب والتضحيه .

ولقد زينت التلمودية للغربيين المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بالرهبانية والزهادة في الحياة الاندفاع إلى مفهوم الترف والتحلل بما يخرج عن الطبيعة البشرية، والفطرة الانسانيه ثم جاءت النتائج واضحه لقد كشفت عن ان الرفاهية هي مرض العصر وانهـا تتعارض مع القيم الانسانيه وانها تقوم على الاخذ دون العطاء ، وانها تهدم القيمه الاجتماعيه والروحيه التي كانت في الاصل هي الدافع لعمل الإنسان .

لقد استطاعت الحضارة ان تقدم للبشريه ذلك التقدم التكنولوجي الممثل في الآله والمخترعات وغيرها ، على نحو جعل الحياة الإنسانيه في ارقى درجات المتعة المادية ولـكن هل استطاع ذلك ان يرضى الروح أو يسعد النفس أو يقدم للبشريه شعوراً بالرضى أو الطمانيه أو السكينة . لم يحدث ذلك قطعا ولربما الغلو الرفاهيه وتعاليها قـد زاد جانب الروح والنفس ظلاما وشقاءاً وقسوة ، فتعالت تلك الصيحات الخطيره بالقلق والتمزق والضياع .

ان اخطر ما تتجه إليه الرفاهيه هو الكشف عن الرغبات واللذات والذهاب بها إلى اقصى درجاتها في مبالغه فاضحه وتشهير خطير مما نها عنه في هذه المجتمعات ومجتمع السويد من ارهاقا ذلك التمزق الذي انتهى بالشـابات إلى الانتحار

ولاريب من تلك النتائج لمجتمعات مندفعة وراء صيحات أمثال(هوج هيفنر) صاحب امبراطورية (بلاي بوي) ومجلته الصارخة التي تدعو إلى الترفيه عن الرجل .

بالـكلمة والقصة والصورة العاريه ، من المجلة افتتحت أندية وفنادق وعمارات حتى أصبح يسيطر على امبراطورية اقتصادية هائله ، وقد أطلق عليه أنه أحسن رجل في العالم يفهم المرأة ويقدرها ويحترمها ويتخذها هدفاً لمستقبله ، حتى الأسهم والسندات التي أصدرها مؤسسة بلاي بوي اختار صورة لامرأة عادية طبعها على الأوراق المالية التي تتداولها البورصة ويحترمها رجال البنوك .

فإذا أضفنا إلى هذه الامبراطورية امبراطورية اخرى لرجل آخر هو

(كرستيان ديور) بطل الموضة والمسيطر على ملابس وزينة ملايين النساء فى العالم ، يخلعون ويلبسون بامرأة ، ويكشفون ويقصرون باذنه ، صدوراً ونحوراً وظهوراً وسيقانا عرفنا كيف تجرى الأمور فى طريق الرفاهية .

وتضاف إلى هذا مؤسسة هوليود والسيطرة على العالم كله عن طريق فكرة الفيلم من خلال فلسفة خطيرة يجرى اقناع الأمم بها عن طريق عروض الأفلام على نحو هو أشد أثراً من الكتب والصحف والكلمات التى تلقى فى الكنائس أو المساجد .

ومن نماذج ما يقدم : فيلم (الحياة حلوة) الذى قدمه المخرج الإيطالى العالمى (فريدريكو فلليني) حيث يرسم صورة لتفكك العلاقات فى المجتمع الحديث ، وفى فيلمه الجديد (ساتيريكون) يكمل فلليني الصورة التى قدمها فى فيلم (الحياة الحلوة) أنه يقدم صورة لانهيار الحضارة الرومانية التى سقطت معالمها مرة واحدة وتفسخت قيمها وسرت فيها موجات انحلالية عاتية . فبعد ان سادت روما ، وحنى لها العالم رأسه خضوعا لمجد قوتها وخشوعا لعظمة انتصاراتها ، انهارت هذه القوة فجأة ، وتحول الأسد إلى ذليل والسبب انها كانت حضارة قائمة على البطش وقهر الشعوب واغتصابها ، فمن خلال (انكلوب) وهو يكاد ان يكون الشخصية الرئيسية فى الفيلم الجديد نرى حكام روما وزوجاتهم يشبعون عواطفهم بالمواقف الشاذة التى يصل الصراع من أجلها إلى حد القتال العنيف ليفوز كل واحد بحبيبته ونرى الارستقراطى الذى يقوم بعملية (قتل جماعى) للجوارى اللائى يعملن عنده ثم ينتحر هو وزوجته .

ثم هناك (اشيات) الذى يتورط فى علاقة شاذة مع رجل ، مقابل أجر معين ومرة أخرى نرى (انكلوب) وقد شعر أنه أصبح عاجزا جنسيا ويذهب إلى الساحرة (دينونيا) لعلها تشفيه وهى نفس الساحرة التى تتسبب فى إظلام قرية بأكملها ولا يستطيع سكانها أن يستضيئوا بالنار ، لقد انصرف أهل روما إلى ملذاتهم لدرجة ان بعضهم يلتهم الطعام الدسم ثم يتقيأ هذا الطعام ليتيح لنفسه فرصة الاستمتاع بتناول طعام جديد . وتدور الكاميرا فى دروب روما ودهاليزها ، فى قاعات القصور وغرف النوم حيث يضرب الفساد جذوره فى كل شبر وحيث

لا شريعة سوى شريعة الغاب . والمخرج لا يتحدث فى هـذا الفيلم عن انهيار الحضارة الرومانية بقدر ما يتحدث عن انهيار أى حضارة تقوم على الاغتصاب أنه ببساطة يرسم صورة لما يجرى فى عالمنا الآن فى النصف الثانى من القرن العشرين(١) .

فاذا اضفنا إلى هذا لتشكل الصورة ما تنشره الصحف من انه فى واشنطون تتعرض المراة للاغتصاب بمعدل ٥ر٢ ساعة وتزيد معدلات الجريمة سنة بعد اخرى وقد شكل بوليس خاص لمكافحة الاغتصاب ليس له هم إلا ان يوجه نصائح للمراة على نحو : لا تجعلى الحياة سهلة للآخرين .

ويقوم البوليس الأمريكى بتعليم المراة العنف مع الرجل .

اخرجى عينه باظافرك ، قاومى باسنانك حتى تنزعى لحمه ، اصرخى بكل صوتك ؟

وهكذا تبدو صورة العنف فى كل مكان : تتعلم المراة العنف من البوليس كما يتعلم الطفل العنف من التلفزيون ، معاملة العنف بالعنف هى الطريقة السائدة فى امريكا .

وقد بدت فى المجتمع الغربى ظاهرتين خطرتين . هما سقوط الغيرة من أجل الزوجه وسقوط عاطفه الأبوه والأمومة.

ويصور الكاتب الرومانى فيرجيل جيورجيو : فى كتابه (الساعه الحادية عشرة) الاخطار التى تواجه الإنسان فى المجتمع الغربى ليردها إلى المذاهب الاجتماعية التى تطرحها الايدلوجية التلموديه فى افق الأمم الغربية لهدمها وتدميرها ، وهى مذاهب لا تقف عند حد الكلمة ولكنها تذهب بعيدا فى أعماق المجتمع عن طريق أساليب الترف والزينه وتعمل على تدمير الفرد والأسرة وتسلم المجتمعات كلها إلى عصور الهمجية الأولى.
يقول : ان المجتمع الغربى فى أحدث صوره التقدمية لم يبق للفرد فى نظره أى اعتبار . ذلك ان الغرب قد خلق مجتمعاً شديد الشبه بالحالة الميكانيكية ثم

(١) الاخبار فى ١١/٥/١٩٧٠ م

أكره الاناسي على العيش في داخل هذا المجتمع ، خاضعين لقوانين هي حقاً جيدة بالنسبة إلى الآلات ولكنها تعادل القتل بالنسبة إلى الإنسان ، أنه يوجد مسلسلاً بها ولكنه لا يهلك في أغلاله بل هو يعيش منها زمنا طويلا ، إذ أن المجتمع التكنولوجي يستطيع ان يخلق المناخات المادية ولكنه لايستطيع أن يخلق أرواحا

ويقول : أن الغربيون قد قطعوا الطريق بين الألوهيه والإنسان وأقاموا بالتكنولوجيا وثنا جديدا وهم أنفسهم غير قادرين على التنبؤ بنتائجه المشئومة .

واشار إلى ما اسماه « التوجيه البشع الذي نحن الآن منغمسون فيه ، لأن الشر الذي سينبثق منها وينتشر ويستشري هو شر عام يصل إلى حد أنه يجحد جميع القيم الأخلاقية والدينية التي تعدها الإنسانية زينتها وحليتها .

وعنده ان العداء بين الخير والشر يظهر واضحا منذ فقد الفكر النظاري صلته بالروحي واتجه نحو تحمس الإنسان للانسان ونحو الإيمان بقوة العلم التي لا تقهر .

ويقول : بلا أرواح يكون مآل المجتمع الجديد إلى الفناء . وأنه مما لاريب فيه ان هذا الانهيار للمجتمعات المادية تعقبه نهضة القيم الإنسانيه والروحية وان هذا النور العظيم سيجيء من الشرق : لأن الإنسان الشرقي سيغزو المجتمع التكنولوجي وسيستولي على آلاته ويصير لها سيد لاعبدا ، كما هي الحالة الراهنة في الغرب ولن يقم لها الهيا كل والمعابد ، وان يسجد أمام شمس الكهرباء كما كان يصنع برابره العصور الغابره من عباد الشمس ولكنه سيحكم ويسود بالروح » .

وبينما يفهم هذا الأوربي تطور الفكر والحضارة على هذا النحو نرى كتابنا ما زالوا محجوبين عن الحقيقة ولا يزالوا غارقين في تيار التبعيه والعين تحت تاثير الماسونيه في صدورها الجديدة .

فنرى أحدهم يشير إلى أن وجه العالم تغير فى مفاهيم السياسة والدين والعلم والأخلاق فى السنوات الأخيرة بصورة مذهلة لم تكن معهودة فيما سبق ، سواء فى العلاقة بين المرأة والرجل أو سلطة الأب فى الأسرة أو علاقة الأبناء والبنات فى الأسرة أو مفهوم الأخلاق والدين أو المباح والمحرم أو المقبول والمرفوض ويتساءل الكاتب الغارق فى أحلام التلمودية الطامعة فى السيطرة على العالم .

فيقول : ماذا يكون شأن الثلاثين سنة القادمة .

ويجيب فيقول : سيزداد الإيمان بالعلم ويقل الاعتماد على الغيبيات ولو شاء لقال الأديان وستتساوى المرأة بالرجل مساواة تامة . وسيصبح للجنس والزواج والحب مفهوم جديد وهو فى هذا يريد أن يقدم البشرى التى تعد الصهيونية العالمية العالم بها والتى تجرى على ألسنة كل الكتاب العاملين لها فى مختلف مجالات البحث .

ونحن نقول هل استطاع العلم أن يقنع أحدا على نحو يقل فى الاعتماد على الدين اننا نرى فشل العلم وسقوط العلمانية ونرى عودة الناس مرة اخرى إلى التماس الإيمان من مصدر صحيح ، من الدين الحق الذى هو وحده الذى سيضيء للبشرية الطريق مرة أخرى وليس مخطط الصهيونية التى يبشر بها هؤلاء الكتاب ويطمعون فى قدوم فجره . أما مسألة المساواة بين المرأة والرجل فهل حقا اثبتت المراحل التى قطعتها انها خليقة بان تصل إلى مثل هـــذه الغاية الوهميه ، لقد كشفت الأبحاث العلمية والاحصائيات والتجارب الميدانية عن صدق ماجاءت به رسالات السماء من أن المرأة مخلوق له طابعه المفرد وتركيبه الخاص قد أعد لمهمة خاصة وان الزج به فى ميدان غير ميدانه خسارة على هذا الميدان نفسه (فقد ثبت تخلف إنتاج المرأة فى مختلف ميادين العمل وانخفاضه انخفاضا شديداً .

وهو فى نفس الوقت تدمير الأسره والبيت والاجيال القادمه وهو امل الصهيونية التلمودية التى تسعى إليه .

أما مفاهيم الجنس والحب والزواج الحديث التى يبشر بها هؤلاء الكتاب فهى ليست مجرد اوهام فإن النظره الإنسانية سوف تعرف بعد ان انكشف عنها

زيف العبارات الرنانة والكلمات الخاطفة ؛ انه ليس للحب والجنس والزواج غير مفهوم واحد . هو مفهوم الاصالة الحقه .

(٢)

لامراء فى ان هناك أزمة يطلق عليها أزمة الإنسان الحديث أو أزمة الحضارة والعصر وهى موضوعه فى صور مختلفه ، يطلق عليها البعض اسم الغربة أو التمزق والضياع أو اليأس وهى فى مظاهرها المتعددة تتسم بسمة واحدة هى : التناقض الداخلى وانفصام الشخصيه وتقوم على فقدان شىء والاحساس بغيبته والشعور العميق بالحنين اليه ، دون أن تكشف الأبحاث المختلفة هذا الشىء فى وضوح أو تضع النقطة الواحده على الحرف الواحد ، ذلك لأن صناع هذه الأزمه من الفها الى يائها هم الذين يمسكون بايديهم زمام تحريكها ونقلها من مرحلة إلى مرحلة وليس من غرضهم إيجاد حلول لها أو علاجها ، ولو بدا كذلك فى ظاهر الأمر ، ولكن الغرض هو اعطاء اجابات مزيفة تزيد فى الغموض والاضطراب حتى تنتقل الأزمة إلى تصعيد جديد . ولقد كشفت جميع الفلسفات والمذاهب التى قدمها فرويد ومدرسة العلوم الاجتماعية عن ظاهرة واضحة . هى آثارة الشبهات وعرض أوجه الصراع ثم الوقوف دون اجابة صريحة عن شىء ما . بل ولقد اتجهت العلوم فى مفاهيمهم إلى أنها تسجيل الظواهر دون الوصول إلى حلول .

ومن هنا فقد كان على الفكر الغربى والمجتمعات الغربية أن تبحث عن الضوء الكاشف عند غير هذه المدارس وأن تسمع الأصوات الخافتة التى تنبعث من هنا أو هناك ممن لازالوا يحملون الأمانة للفكر الغربى المسيحى الأصيل قد آن أن تزيفه التلمودية أو تحتويه ، وهناك كثيرون يستعرضون هذه الأزمة ولكن صوتهم يضيع تماماً خلف الضجيج العالى الذى تسيطر به مدارس النفس والعلوم الإجتماعية على آفاق الفكر كلها .

ولقد أكد كثير من المؤرخون والباحثون أن أزمة الإنسان الحديث وأزمة المجتمع الحديث وأزمة الحضارة هى أزمة عقيدة وأزمة إيمان وأنه لايمكن إنقاذها

إلا بالدين : « الدين الحق » وإن مصدر الخطر هو افتقاد الإنسان عناصر الرحمة والعدل والأخلاق وصفه « عزم الأمور » .

وقد أكدت جميع الدراسات على أن السرف في الترف والنعمة تهدم رجولة الرجال وتحطم المجتمعات وقال ارنولد توينبي للأوربيين أن أزمتهم هي أزمة الفقر الروحي ، والخواء الروحي وان المحرر لهم من ذلك التمزق هو الدين وقال أن الأوربيون يحجبون لأن ما عندهم من فلسفات وايدلوجيات لم تعطهم شيئاً بل هي التي دامتهم في مجاهل القلق والتمزق وان العطاء يأتي من مصدر واحد هو الدين.

وقال كثيرون مثل ما قال توينبي من ان الجوهر الأساسي هو تحرير الإنسان من كابوس المادة وان فصل الدين عن الحضارة والمجتمعات هو فناء محتوم لها وان الحضارة تندفع إلى طريق واحد هو الاسراف والتبرج : الاسراف في الترف الظاهري .

يعتقد الكثيرون ان محنة الشك والارتياب واللا أدرية هي اكبر محنة اصابت المجتمعات الغربية « ان روح الشك اليوم أصبحت تنخر في عظام المجتمع الغربي وهي روح هدامة قوامها النفي والسلب والانكار .

ويرى رجال التربية والنفس وغيرهم ان السبيل إلى وضع حد لهذه الظاهرة هو نشر جو من اليقين والايمان الذي هو وحده القادر على التغلب على اعراض القلق والحيرة .

ويرجع البعض ذلك إلى تلك الدعوة الملحة التي ظلت تتردد عن العلم وقدرته السحرية التي لاحد لها في حل مشاكل الناس والمجتمعات ثم ما ظهر من عجز العلم عن تقديم أي حلول للنفوس القلقة .

ثم كيف ادعى أصحاب الدعوات الهدامة أن نظريات الفلسفة وفرضيات مفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق إنما هي علم بالمعنى الحرفي للعلم بينما لا يدخل تحت إسم العلم غير العلوم التجريبية وحدها ، وأن العلوم الإنسانية لا يمكن

إخضاعها لمنهج العلم، بل تظل دائماً بمثابة تجارب وفرضيات قابلة للصحة والخطأ تختلف من نفس إلى نفس ، ومن بيئة إلى أخرى ، ومن عصر إلى آخر .

ولا ريب أن القضية لها تاريخ طويل ، وإن ما وصلت إليه المجتمعات لأن من يأس وتمزق إنما جاء نتيجة تحول خطير برز فيه عنصران عنصر الشك في الألوهية والأديان واليوم الآخر وقد اغذت الفلسفيات المادية هذا العنصر على نحو بالغ الخطر ، والعنصر الآخر هو إطلاق الرغبات البشرية على نحـــو يحطم كل الضوابط والحدود والمحرمات ، أما الشك فقد حطم النفس البشرية وأحدث فيها ذلك الخطر الذى حرمها نعمة السكينة والأمل والطمأنينة ، أما (الإباحية) فقد حطمت الجسد ودفعته إلى المهالك وفرضت عليه الأمراض المدمرة ، ومن ثم برزت ظاهرة الإنتحار التى تمثل شقوة الإنسان عند ما تصل إلى الحد الذى لا يحتمل .

ولا ريب أن اتجاه الإنسان نحو هذا التيار العاصف مخلفا وراءه طمأنينة الدين وكرامة الأخلاق هو المصدر الوحيد لليأس والتمزق . فقد ولدهما ذلك الخواء الروحى .

يقول واحد من الباحثين الغربيين : فى عام ١٩٢٠ حين كان (عصر الجاز) يوشك بالإزدهار « فى ذلك العام انطلق الشبان الانجليزى والأمريكى المتعلقان بالطراز والمودة إلى ما سماه فيتزجيرالد : أعظم وأضخم مرح فى التاريخ شعب برمته يؤمن بمبدأ اللذة ويقرر الاستمتاع واكتشف الكبار بأن الشراب الشـاب سيحل محل الدم الشاب وألقى الجميع بأنفسهم على الخمر فى قفزة واحدة » .

ويرى الباحثون ظاهرة موسيقى الجاز تـكشف عن تمزق الانسان الغربى داخلياً وتهافت علاقاته الاجتماعية خارجياً « فموسيقاه تخرج من القاعــدة الهارمونية بما تحدثه من ضربات سريعة على الطبول والآلات النحاسية وبما تخرجه الأبواق من ضربات مجنونة . ورقصات الجاز ليست سوى تعبير مجسد عن ذلك العذاب الذى يجد فى الحركات السريعة المجنونة ما ينفس عن ألمه » .

ولقد تزايدت الخطى بعد عام ١٩٢٠ إلى اليوم وتطورت إلى أسوأ فأسوأ ، وظهرت الموسيقى الزنجية والرومبا والسمبا وموسيقى الجرك .

وفى نفس الوقت روجت القوى الهدامة للادب الاباحى والقصة المكشوفة والأفلام الجنسية وتعالت الحملة ووصلت إلى قمة تدمير النفس الإنسانية لتقطع عليها طريق العودة .

ولم « تقف عند الشباب بل شملت الأطفال اصدرت دوائر معارف الجنس الناشئة والأطفال ومضت المؤامرة إلى نهايتها : إطلاق حرية الإجهاض ، الزواج الجماعى ، زواج الرجال الموطين وتخصصت عواصم معينة فى أوربا وأمريكا لتصدير أفلام الجنس التى تعرض عملية الإتصال وبلغ الدخل السنوى الناجم عن تجارة الجنس فى الدنمرك زهاء ملياري دولار سنويا أى بزيادة ٥٠٠ مليون دولار عن دخل الصادرات الزراعية .

وكان من شأن ذلك كله أن عمق الأزمة وزادها عنفا وخطراً وجاء بالنتائج القاسية التى رأينا .

(٣)

إن أخطار التحولات التى أحدثت أزمة الفكر الغربى هى الخطأ فى تفسير مفهوم الحياة ومدى مسئوليتها أو رسالتها ، ذلك أن الفكر المادى قد أعلن بكل جرأة أن وجود الإنسان على الأرض إنما هو من قبيل المصادفة وان الحياة لاهدف لها ولا غاية وان نهايتها الموت ، لا ريب ان هذا التفسير الذى فرضته المذاهب المادية من شانه أن يرتب كل هذه الأخطاء ويدفع إلى كل تلك التطلعات أخطار الضيق بحياة لا غاية لها ، وليس فيها إلا التطلع إلى اللذات والمتع .

ومن هنا جاء التمزق ، جاء نتيجة اليأس من الغاية : غاية البعث والخلود والإحساس بان الحياة عبث وصدفة وليس فيها ما يطالب به الإنسان من عمل أو مسئولية أو التزام أو جزاء .

إنه اليأس من المصير ، ذلك الذي فرض مرارة الأزمة التي عاشها ويعيشها الإنسان بعيداً عن عقيدة أو دين وعن إيمان أو معرفة بحقيقة أعماله ومصيره . إن من أشد الأخطار على كيان الإنسان أن تسيطر عليه فكرة الصدفة أو العبث على النحو الذي يطرحه فلاسفة الشك والضياع وفقدان الثقة بالنفس البشرية فإن هذه المذاهب الانهزامية تجد قبولا من أهواء الناس وتجد مكانا في عقولهم وقلوبهم إذا كانوا قد أفرغوا عقولهم وقلوبهم من إيمان أو عقيدة صحيحة ، وهي بالرغم من طابع الحرية والاحساس بالسعادة المادية لقبولها فإنها سرعان ما تلتقي بالفطرة الأصيلة في صراع عنيف ينتهي بالقلق واليأس والتشاؤم ويدفع إلى الإنتحار والتدمير الداخلي الذي نرى صورته واضحة صريحة في مختلف جوانب المجتمع الغربي اليوم .

ويرى الفيلسوف شبنجلر أن هذه الأزمة ليس من الأزمات المؤقتة التي قد تزول يوما وإنما هي مأساة هائلة سوف تصرع الحضارة الأوربية وربما الحضارة بعامة ودعا هكسلي إلى العودة إلى عالم الروحانيات وان على الغرب أن يتعلم الكثير من حكماء الشرق عن الدنيا وزهدهم في المادة وفهمهم العميق للتجربة الصوفية التي يتيح للإنسان أن يجد الله في قلبه » .

ولسوف يذهب الغرب إلى كل مكان في سبيل البحث عن الترياق ولن يجده إلا في الإسلام ذلك أن مفهوم الإيمان في الاسلام هو العقيدة الوحيدة التي تعصم الانسان من المرض النفسي وتحول دون الانقسام الداخلي ، وتشجب الصراع بين النقائض والاضداد على نحو يعيد الوئام والألفة بين الغايات والوسائل .

إن فقدان الثقة والقلق والتمزق إنما يصدر من النفس الانسانية حين يتوزع بين حياة الروح المهضومة وحياة الجسد الملاء ، أو العكس ، ولا تسترد ثقتها إلا بالموازنة والتكامل الذي يرسمه الاسلام .

« إننا مع الايمان بالاسلام نرى من الوجهة العلمية ان العقيدة هي التي تعصم الانسان من اكبر دواعي المرض النفساني الذي هو باتفاق المذاهب يرجع إلى علة واحدة محيطة بجميع العلل ، وهي علة الانقسام الداخلي او علة التصدع التي

توزع النفس شيعاً بين النقائض والاضداد ويفقدها الوسيلة التي ترأب بها صدوعها وتعيد بها الوئام والألفة بين مقاصدها ونزعاتها .

« ويتحقق الخطر على الطبع السليم عند الوقوف في مفترق الطريق بين النزعتين المتدابرتين كأنهما عدوان متقاتلان ينتصر احدهما بمقدار ما يصيب الآخر من الخذلان والهزيمة .

« وفي الاسلام عصمة من كل داء من ادواء هذا الفصام ، الذي يمزق طوية الفرد او يمزق صورة الوجود كله بين خصومات الفكر وخصومات العقيدة وخصومات المثل الأعلى في كل قبلة تتجه إليها .

« فليس في الاسلام عداء بين الروح والجسد ، وليس للجسد فيه محنة تمتحنه بالصراع بين الطيبات من متعة الروح او متعة الجسد .

(وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) فليس في العقيدة الاسلامية إنسان متضعضع يتوزع بين نوازع الروح ونوازع الجسد وليس فيه ضمير يتوزع بين الدنيا والآخرة .

« وفي عقيدته ما يعصم من كل خصام ؛ وليس في عقيدته منفذ لفصام تتسرب منه ادواء النفوس وكل ادواء النفوس فانما ترجع إلى الشقاق البعيد في ضمائر مرضى القلوب .

« وفي إسم الاسلام دليل على ما في العقيدة الاسلامية من دعائم الثقة واليقين .

« فالاسلام تسليم وسلام ومن تمكن في قلبه فهو امان وإيمان ، وصفوة القول ان دراسات العلماء تجمع الأدواء النفسية كلها في داء واحد : هو داء الضمير المدخول ، او الضمير المنقسم على نفسه ، وانها تجمع الطب النفساني كله في دواء واحد هو دواء اليقين والايمان ، وذلك دواء عند الدين وليس منه

عند العلم غير القليل ، لأن العلم سبيل ما يعرف ولا حاجة به إلى ثقة وتسليم ، وإنما يؤمن الإنسان ليعرف كيف يثق وكيف يعمر موئل الامان ثم يركن اليه ركون العارف الآمن ركون الإسلام والتسليم(١) » .

(٤)

إن الإنسان المعاصر حين انفصل عن الإيمان بالله بدت له الحياة موحشة ، بدا له كل ما فيها عبث ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تطور من النقيض إلى النقيض .

وهذا هو ما أطلق عليه وجود الإنسان وحده في الكون وأنه ليس ثمة في الكون إله غير الإنسان على النحو الذي اورده سارتر في قصة (الله والشيطان) فقد جرت المحاولة عكسية على الأثر . جرت محاولة القول بان الناس هم الذين خلقوا الله وليس الله هو الذي خلقهم ، وبذلك تزلزل إيمان الناس في أقدس مقدساتها ذلك أن إيماننا بالله سبحانه هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى .

بعض الباحثين يرد ذلك التطور الخطير « إلى ما عانته أوربا من تجارب وأحداث نتيجة لتأليه العلم وتقديسه وتسخيره في اشعال الحروب ، مما خلق شعورا بالقلق المبهم وكان من الطبيعي أن يصاحب هذا الخلق احساس بعبث الحياة وانعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح في عالم يباغته الدمار في كل لحظة » .

ويرد البعض الآخر هذا التحول إلى عجز الفكر الديني الأوربي عن اعطاء النفس الإنسانية طموحها وأملها مادام حمله لواء الفلسفات والمذاهب الاجتماعية إلى دعوة الناس إلى الانسلاخ مما أطلق عليه « ماضي القطيع البشري كله » .

ثم ان هناك دعوة إلى البحث عن يقين آخر :

لقد عمت الوجودية كل البحار فلم يعد هناك شيء صالح للبدأ به « وبعد

---

(١) عن عباس محمود العقاد في بحثه عن علم النفس والدين الاسلامي

السنوات التى حولت أوربا إلى وجوديين كما يقول سارتر لم يستطع الإنسان أن يعبر بحر الحياة المتلاطم فى سفينة هذا العصر التى ليس لها ربان ذلك لأن الوجودية قد خلفت وراءها جيلا من البشرية يبحث عن إيمانه بعد أن عجزت عن الاجابة على الأسئلة المطروحة حول الإيمان.

لقد بلغت الأمور غاية الاظلام والسوء حتى ارتفعت الصيحة بالقول « بان الانسان فى هذا العصر يبحث عن جدار فلسفى وفكرى يتقى به مخاوفه واحزانه وموته، هذا الجدار ليس بناءاً علميا ولكنه جدار إنسانى ».

وانى له ان يجد ذلك فى الفلسفات الاجتماعية التى تدعو كلها إلى الهروب من الواقع وإلى الرفض الشكلى الدائم.

ان النفس البشرية قد خربت ولم تعد تجد ضوءاً ما وهى تنتقل من ظلمات إلى ظلمات أشد قسوة، لقد خلقت المادية أساسا هذا الازدواج الداخلى فى كيان الانسان وسحقت ثقة الانسان بالبعث والخلود ومن هنا بدت الحياة وليس لها قيمة أو رسالة أو هدف على النحو الذى تصوره الوجودية.

ومن هنا بدأت حركة التمزق الداخلى والقلق واليأس.

لقد بدأت الفلسفة الوجودية من نقطة الخلاف مع الفكر الماركسى لمحاولة استنقاذ وجود الانسان من خطر سحقه كترس فى آلة كبرى، ولكنها بدأت من نفس منطلق الماركسيه الأساس وهو الماديه، ومن هنا عجزت عن ان تحقق شيئا أكثر من أنها خلقت تيارا جديداً فى داخل الانكار الأساسى لله والبعث والروح.

« انها تقف موقفا سلبيا من مشكلة وحدة الذات الانسانية » إذ أنها تهدف إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم المادية وبهذا تصيب الانسان بالتناقض الداخلى والازدواج النفسى.

ومن هنا فليست الوجودية إلا مرحلة جديدة فى الطريق الذى تتردى فيه

النفس الغربية، انها حطمت ما كان باقيا فى الفلسفات المثالية من روح الدين ، من اليقين والايمان والاعتصام بالله ومن ثم لقد انكشفت النفس البشرية فى ظل مفاهيم الوجودية أشد ما تكون قلقا وجزعا وعجزا عن مواجهة الأحداث وخاصة مواجهة الموت وبذلك كانت الوجودية محاوله فاشلة لانقاذ الفلسفات المثالية ولم تستطع ان تحقق دعواها العريقة الباطلة فى تحرير الانسان من القيود بل زادته تكبيلا بقيود جديدة .

ولا ريب أنه كلما ساد الظلام الفكرى فان الاسلام يصبح هو الأمل الوحيد الباقي للنفس الانسانية ليكشف الطريق ويضيء السبيل ، وميزة الاسلام هو أنه يعالج قضايا الانسان معالجة متوازنة فكرية ونفسية دونما طغيان لقيمة على قيمة أخرى ، لقد دعا الاسلام الانسان إلى ان يلتمس فطرته المتوازنة : لقد قدم العقيدة الأخيرة البشرية التى لا تتناقض مع طبيعتها الأصليه ودون تجاهل لرغباتها المادية ومطامحها الروحيه فى وقت واحد ان عنصر التوازن الأصيل فى الاسلام هو صمام الأمان للامم والحضارات والمجتمعات وللنفس الانسانيه دون ان تقع فى خطر التمزق والازدواج والتناقض .

(٥)

فى ظل هذا الانحراف الذى بعدت به النفس البشرية عن فطرتها واطارها الأصيل نشات تلك الأمراض التى أطلق عليها الغثيان والعبث والتمرد واللامعقول وصدرت كلها عن مصدر واحد هو ما أطلق عليه الباحثون (الغربة) .

ويصف كولن ولسن فى كتابه (اللامنتمى) الغربة بانها مرض متصل بتصدع الذات انشقاقها نتيجة لعدم توائمها وانسجامها مع المجتمع الذى تعيش فيه

ويقارن كولن ولسن بين الغربة القديمة والغربة الحديثه .

فيقول : كان الغريب فى فترة الفلسفات المثالية : برغم حيرته وشكه وذهابه كل مذهب فى سبيل العثور على الحقيقة ، لا يفقد الإيمان بهذه الحقيقة . ولا ييأس

من وجودها أما الغريب فى فترة الفلسفة المادية الآن ، فهو لا يفهم ما يعنيه الناس بالحقيقة ، أو قل إنه إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها فالعالم فى رأيه عالم مفتقد للحقيقة : عالم زائف قائم على اللا معقول والفوضى وهذان وحدهما فى نظره هى الحقيقة » .

ومعنى هذا أن الأمور زادت تعقيدا وان الظلام قد اتسع رواقه ، وان الحلقة ضاقت حول الإنسان المعاصر .

ويرد كولن ولسن هذا الخطر إلى مصادره الأولى منذ اضطربت مفاهيم الفكر الغربى بين تأليه العقل وبين عجز العقل عن الرؤية الصحيحة ويصل إلى تقرير الحقيقة التى وصل إليها حين يقول :

« إنها أزمة الإنسان العاقل الذى فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص » إنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان فاضعف العقل الصرف مركز الإشعاع العاطفى فى الإنسان : وهو العقيدة الدينية ،

غير أن كولن ولسن بعد أن صدقت أمامه الرؤيا تماما وعرف مصدر الخطر لم يستطع أن يهتدى إلى « الإيمان » ، فذهب يدعو إلى « الارادة » بدلا من « الايمان » ومع أنه اعترف بان أزمة الغريب هو أزمة فقدان الايمان ويظل فيها على حال من القلق والتململ والعذاب حتى يظفر بشىء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة ، فانه قد عجز تماما عن هداية الانسان إلى هذا الايمان .

ويقرر كولن ولسن أن الفكر العقلى المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب ، وأن ثمة إمكانيات أخرى فى الانسان لا بد من استغلالها وان هذه الامكانيات تنحصر فى قدرة الانسان على الاستفادة من قوى ثلاث هى : قوة الارادة ، قوة العقل ، قوة العاطفة .

وان إيجاد الوحدة بين هذه القوى هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسى ، أو التكامل النفسى عند الغريب .

وليت شعرى كيف يريد ولسون أن يبنى الارادة فى الانسان دون أن يكون له إيمان بالله يعصم هذه الارادة ويحميها من أهواء النفس .

يقول الدكتور زكى محمد العشماوى فى عرضه لفكرة كولن ولسن [1] .

« إن الغريب الذى ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلى الصرف الذى هو ظاهرة عامة فى حياتنا المعاصرة بحاجة ماسة إلى (بديل) ليشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندها الملاذ الذى يبحث عنه،غير ان الموقف الدينى الذى انتهى إليه (ولسون) ليس منبثقا من إيمانه بالله واليوم الآخر ، وبالثواب والعقاب ؛ وإنما هو يعتمد أولا على فكرة الخلاص على تحرير الانسان من معتقدات وهمية وعلى الأخص فكرة (الخطيئة الأولى) التى تسيطر على الانسان المسيحى والتى تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة » إن كولن ولسن يدعو إلى التخلص من فكرة الخطيئة الأولى . لأنها تحجب الفهم عن حقيقة روح الانسان ، كذلك يدعو إلى التحرر من معتقدات وهمية أخرى تسيطر على الانسان المسيحى وتقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة .

(٦)

يرى الباحثون فى الغرب عن أزمة الانسان المعاصر بدأت منذ إنفصل عن الدين ، لقد تركز الأمل بعد الدين فى الفلسفة فلما سقطت الفلسفة وضع أمله فى التاريخ .

ولكن الفلسفة والتاريخ بجميع فروعهما قد القتا السلاح بين قدمى العلم منذ منتصف القرن التاسع عشر ، غير أنه فى النصف الثانى من القرن العشرين (فى الستينات) القى العلم جميع إمكانياته ومقدراته معترفا بالعجز أمام الأسئلة

---

(1) ك : الادب وقيم الحياة المعاصرة .

الأبدية المطروحة وكان معنى هذا : إن العلم باعتباره آخر درع فى الانسان آخذ فى السقوط .

ويرى الباحثون إن الانسان المعاصر تحول إلى اة . إلى خادم للالة ، إلى رقم من الأرقام .

لقد اخترع الآلة لتخدمه ولكن أصبح اليوم أحد خدامها ، فالقوى التى خلقها بنفسه تزيد من أبعاده يوما بعد يوم ، وهكذا تنهار الانسانية كلما اتسعت فاعلية الالة لتؤكد انفصاله عن عصر العلم وليقذف فى تيه من الفكر .

ويقول أحدهم « ان الانفصال متغلغل فى الصداقة بين الانسان وعمله وبينه وبين نفسه ، فقد خلق عالما من الأشياء التى صنعها بنفسه ولم يكن لها وجود من قبل ، وأنشأ أداة جماعية معقدة تدير الآلة الفنية التى أوجدها ومع ذلك فان ما خلقه الانسان كله يرتفع ويبتعد عنه رغم انه لا يحس بنفسه خالقا ومركز لهذه المخلوقات بل خادما لوثن صغير صنعه بيده .

« إنه يواجه القوى الخارجية التى أوجدها بنفسه ثم فصلها عن نفسه وعليه فهو إنسان تملكه مخلوقاته ولا يملك نفسه »(١) .

وهذا هو ما يسمونه أزمة الحضارة . هذا الفصام بين ما يعيشه الانسان وما يريده ، بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع ، بين الوجدان والعقل ، بين الفكر والواقع .

إن أصواتا كثيرة بدأت تعلو وتردد كلة لها أهميتها .

« هى أن العلم لم يزل متجه إلى خدمة الظواهر الاجماعية فى حين أن عالم الانسان ، يزل سرأ » يقول الدكتور اليكسى كاريل « لقد عانى المجتمع العصرى منذ نشأ من خطأ عقلى ، وهو خطأ ما زال يتكرر باستمرار منذ عهد النهضة ،

---

(٢) راجع حسن صعب ونجيب صالح فى كتا بيهما عن الطلاب وثورة الطلاب

لقد كونت التكنولوجيا الانسان ليس تبعاً لروح العلم ولكن تبعاً لآراء ميتافيزيقا خاطئة . إن الغلطة المسئولة عما نعانيه جاءت من ترجمة فكرة جاليلو إلى فصل الصفات الأولية للاشياء التي يمكن قياسها بسهولة عن الصفات الأخرى وهما : (الشكل — اللون — الرائحة) التي لا يمكن قياسها . أي فصل الكم عن النوع ، ولقد كانت تجزئة الأشياء أمراً ضرورياً ولكن اهمال هذه الصفات لم يكن كذلك ، لقد دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك أدى الى فوز العلم وانحلال الانسان .

إن علينا أن نجدد الانسان مرة أخرى ، يجب أن نصحح الخطأ الذى جعله شبيه بالآلة ، يجب لكى نعيد للانسان ذاتيته أن نحطم هيكل الحضارة التكنولوجية نفسه » .

ويتساءل الباحثون . هل اتجه العلم نحو الانسان ليكون إنسانا .

هل طرح العلم أى جديد أمام قضايا العصر الميتافيزيقة التي تقلق الانسان . ويجيبون . ان لا . إن العلم نفسه أصبح أزمة من أزمات الانسان تضيف إلى ماساته أخطر حلقة ماساوية فى تاريخ البشرية .

ولقد حاول العلم أن يحل قضية الانسان فغرق وأغرقه معه » .

ويشير الباحثون إلى أن الفلسفة كانت منذ اعقاب الحرب الأولى وفترة ما بين الحربين أملا وقد أعلن عدد من المفكرين والأدباء إذ ذاك بحثهم عن قيادة فكرية جديدة للبشرية ظنوا أنهم وجدوها فى فرويد ومدرسته .

فلما فشلت ركزت الآمال فى (السريالية) حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فهدت النفوس لنبذها ، واعتناق (الوجودية) كحل لتسوية قضية الانسان إزاء نفسه وإزاء الطبيعة وباقى القصة معروفة فقد عجزت الوجودية وسقطت ثم جاء العلم وقد امتلأت النفوس به . وبسلطانه الذى يفوق كل سلطان ولكن العلم أثبت عجزه ومن هنا فان الإنسان المعاصر فى الغرب بعد أن قتل العلم الدين فى نفوس البشر — هذا الانسان يبحث عن إيمان جديد يوازى سطوة العلم .

وجاءت دعوة مهاريشي إلى تامل الانسان ذاته لـكي يتجه إلى ينابيع نفسه من الداخل وقد تحولت هذه الدعوة إلى تحقيق الحلم من خلال تعاطى العقاقير والمواد المخدرة . انها عملية الهروب من الواقع .

لقد عجزت الدعوات السلبية عن أن تقدم شيئاً إيجابيـا . لقد هدمت فى النفوس كل شيء ولـكنها لم تبن شيئاً،وتلك طريقة الدعوات التى تقدمها التلمودية الصهيونية فلما تعالت الصيحات جاءت دعوة الصوفية البوذية : إنها محاولة جديدة لتذويب النفس الإنسانية فى كاس من المرارة المذوبة ، وتقلها من الإباحة المفرطة إلى تعذيب النفس والزهد المفرط ،إنها محاولة تدمير الإنسان بالهزيمة الـكاملة، والإنسحاب الـكامل من المجتمع ، أما بالمخدرات والعقاقير أو بالزهد والتقشف وتعذيب النفس .

ويرى علماء الإجماع أن الخطر بدأ يزحف نحو الشرق، هذا صحيح ولـكن ليس إلى الإصالة بل إلى الزيف مرة أخرى،إلى سجن النفس وتدميرها بالعنف أو بالانسحاب ، إن فى الشرق فـكرة أصيلة تختلف عن هذه وتلك،هى التوازن التى قدمه الاسلام . وبعيداً عن السلبية وبعيداً عن العنف .

الفصل الثالث

الانسان والزينة

أعلن الإسلام تكامل الإنسان . روحه وجسده معا ودعاة إلى تحريرها من العبودية ، كما دعاة إلى تطهيرها وتنقيتها . وجعل النظافة رمزا ودلالة على طهارة البدن وإلى نقاء الثوب وربط بين نظافة البدن وطهارة الروح ، وبين نظافة الثياب وسلامة النفس ، ولم يقف الأمر عند السماح بالزينة بل لقد كرة للإنسان إلا يتخذها وربط ذلك بالوضوء والريح الطيبة واللباس النظيف وتنقيه الفم وجعل زينة الرجل فى مواقف الصلاة وفى لقاء الأصدقاء وفى داخل البيت المرأة أيضا وانكر اهمال الرجل لزينتة وربط بينهما وبين خطر تناقض المودة الزوجية . وتفورها ، ومن خلال ذلك وازن الإسلام بين ماديات الزينه وروحانياتها ، ووقف فى وجه الموجه الانسحابيه الزاهدة والموجه الاباحية المغرقة فى الترف والنحلال ، فانكر الاسراف فى الزينة ونوع الملبس حتى لا تخرج الشخصية الإنسانية المسلمة عن قاعدة السلامة ولا تجتاحها آفة الانحراف ، فقوة البدن ، مع الطهارة ، والزينة ، تحول دون مظهرين :

مظهر الخشونة المسرف ومظهر الميوعة المترف .

ولما كان الملبس والزينة علاقة بالأصول التى تقوم عليها الشخصية الإنسانية التى عمل الإسلام على بنائها . فقد كان له أن يحفظ هذه الشخصية من خطر الاسراف والجمود معا فى مجال الزينة كما حفظه فى مجال الطعام والشراب والجنس جميعا .

ذلك ان قاعده الإسلام الأساسية هى حماية رجولة الرجل وحماية أنوثه المرأة

من ان يختلطا على نحو يفسدها جميعاً ويحول دون أداء الرسالة الصحيحة الموزعة بينهما من خلال تكوينهما البيلوجي والنفسي والاجتماعي ، بل ان هذه الأجزاء من الجسم التي حرم الله كشفها هي مما يستهدف أساسا حفظ شخصية المرأة وشخصية الرجل في رفعة وسمو ، وفي حصانة ومنعة بعيداً عن أهواء المطامع ودوافع الشهوات .

ولما كانت النفس الإنسانية تتشكل باللباس ، فتزهو إذا لبست لباس الحرب وتعز إذا لبست لباس السيادة ، فانها أيضاً تشعر بالرخاوة والضعف إذا لبست لباس النوم أو لباس السرير . وهي أيضا تجد الاحساس المواجه لكل ملبس سواء أكان ملبسا خشنا أو ملبسا رقيقاً ، أو كان ملبس التمثيل ، أو الفروسية أو غير ذلك .

ومن هنا كان خطر تحكم القوى المدمرة في هذا المجال وفرض سلطانها عليه وآثارتها موجة من السيطرة بالتغيير والتبديل تحت اسم ما يطلق عليه « المودة » التي تتفشى في كل مكان ولا يسلم من الخضوع لها إلا القادرون على فهم خطر هذا السلطان في هز القيم النفسية للانسان .

والمسلمون أمة اختيرت لعزائم الأمور وبنى الإسلام فيها الادارة والرجولة والعزم ، ووقعت أرضها في موضع خطير هو مطمح كل طامع ، ولذلك فقد فرضت عليها أوضاعها الاجتماعية والسياسية والنفسية أن تكون من أمم العزم والشجاعة والمقاومة والمرابطة في الثغور فكان عليها أن تختار لباسها على النحو الذي يحول بينها وبين الجبن والتواكل والانحلال .

ولقد قال كثير من الاجتماعيين : ان القميص هو الرجل ، وقال لدوفيج إن الإنسان يختلف تفكيراً في ملابسه العسكرية عن ملابسه المدنية .

وان ثياب المرأة إذا ما استوفى طابعه الاسلامي كان موضع التكريم والحذر وعاملا من عوامل تقديرها ورد أصحاب الأهواء عنها . كذلك فإن ثياب المرأة حين يجاوز الأصول الاجتماعية يوحي بنفسية متمردة ويغرى بالاستهانة والجرأة عليها .

ولقد عرفت الأمم فى تاريخها كله طائفة لا تتقيد بالعرف العام ولا بشرائط القيم فى ملابسها ربما كانت طائفة العاملين فى مجال الغناء أو الرقص أو التشخيص من الرجال والنساء وهؤلاء لهم لباسهم الذى لم يكن يتجاوز بيئتهم ، لم تكن المرأة تتخذ منه أسوة لها بل كانت تحذر منه وتتجنبه وكذلك لا يتخذه الشباب والرجال ، كانت هناك هذه التفرقة الواضحة بين قيم الجماعة العامة وبين هذه الطوائف الوافدة على المجتمعات من النور أو الرجل ، وكان فى سقوط هذه الفوارق خطراً كبيراً بل لقد بدت مثل هذه الطوائف وكأنها هى صاحبة المثل الأعلى فى الملبس والزينة عند مافقدت المجتمعات إيمانها بالزى الخاص القائم من عقائدها ومزاجها النفسى وحين فرض على المسلمين والعرب ملابس الغرب وأزياؤهم وعجزوا عن المحافظة على ملابس يحتوى قيمهم وتحفظ لهم طابعهم النفسى ومزاجهم الاجتماعى .

ولقد كان لتقليد الملابس أيا كان نوعها أثره الواضح فى تحول الشخصية . سواء شخصية الرجل أو شخصية المرأة ، من حيث القوة أو الضعف ، التماسك أو التحلل ، السماحة أو العنف ، ومن هنا كانت الرابطة العميقة بين الملابس والأخلاق .

ومن هنا كانت قاعدة الإسلام الواضحة فى علاقة الإنسان بالزينة وأثرها فى السلوك والأخلاق وبناء الشخصية أو انهيارها .

يقول صاحب ملتقى الأبحر « ان الملابس تستعمل فى ستر العورة وفى اتقاء غائلة الحر وصولة البرد ، ولا يحرم التزين إذا كانت الغاية منه اظهار ، نعمة الله والآية التى من بها علينا ، ولكن يحرم إبداء الزينة إذا كانت الباعث على ادائها متعة الزهو والخيلاء والكبرياء ، وان التواضع فى هيئة اللباس هو فى غالب الأحيان يوحى به من قبل الحكماء . . الخ .

(٢)

ان مفهوم الزينة واللباس فى الإسلام هو مضمون الفطرة ونداؤها فالعرى ليس من فطرة الإنسان والزخرف ثقيل على النفس الإنسانية ، واللباس له وظيفة هى ستر العورة والحماية من تقلبات الجو فى اطار من الزينة والتقوى .

وكذلك يأتى شرع الله فى اللباس موافقا للفطرة ولما تتقبله النفس الإنسانية الصافية . (وانزلنا عليكم لباسا يوارى سواءتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير) .

وهى طريقة الإسلام دائما ، وطريقة القرآن أبدا ، الجامعة بين المظهر والمضمون ، وبين الروح والمادة وفى اطار مفهوم الإسلام لعلاقة الرجل والمرأة يتشكل مفهوم الإسلام للباس والزينة ، للرجال ملابس وللنساء ملابس ، للبيت ملابس وللشارع ملابس ، هناك أشياء محرمة على الرجال : الحرير والذهب وأشياء محرمة على المرأة . كشف ما سوى الوجه واليدين ، وكما يكون المجتمع الإسلامى ليس مجتمعا مختلطا فهو مجتمع ستر وارتفاع بالنفس البشرية إلى قيم أعلى من رؤية الاجساد العارية ، أو الخلط بين ملبس الرجل وملبس المرأة ، وفى حدود ذلك تتطور الأزياء مع روح العصر دون أن تخرج على الأصول العامة .

ولقد كانت المجتمعات الإسلامية دائما فى حاجة إلى تذكرة وتوجيه حتى تلتمس دائما ذوقها الأصيل ، وقيمها الحقه وذلك حفاظا على هذه الدعائم التى يقوم عليها كيان الأمة وفرديتها حتى لاتنهار .

ومن هنا فلا بد من مواجهة موجة العرى وموجة الانحراف والتحرر منهما وتجاوزها ، ولا ريب ان العرى الجسدى يصدر عن النفس إذا تجاوزت ضوابطها النفسية والاجتماعية أو هو يؤدى اليه إذا فرض على المجتمعات .

ولا بد أن انهيار قيم الزينة واللباس بالزيادة أو النقص ، للرجل أو المرأة ، هو علامة تحول خطيرة فى الخلق والمجتمع ، وقضية اللباس والزينة ليست منفصلة عن شرع الله ومنهج الإسلام ، وهى من أصول قضية الايمان لأنها لا تتصل بالعلم وحده ولكنها تتصل بالعمل والممارسة .

ولا ريب أن الاندفاع وراء موجه العرى والخروج عن ضوابط الزينة واللباس هى مقدمة لكل الاخطار المتوقعة فى مجال البناء النفسى والاجتماعى بما يفتح الطريق لتجاوز كل الحدود والضوابط التى وضعت لحماية كيان الانسان (رجلا أو امرأة) وحماية بنية الأسرة .

ولا ريب ان لعرى المرأة أثره في نفسيات المراهقين والشباب وآثاره الخطيرة في الكيان البشري للرجل ايا كان فقد دلت ابحاث الأطباء إلى أنه من مصادر العنة والضعف التناسلي .

ولذلك فإن ما أطلق عليه (ثورة الزى للمرأة) ليس في حقيقته الا تنفيذ لفقرة من مخطط التلمودية الصهيونية العالمية التي تستهدف تحطيم القيم الاجتماعية والنفسية للمجتمعات ولذلك فهي تسعى أساسا إلى هدم الفوارق العميقة بين شخصية الرجل وشخصية المراة بفرض الغلاميات على المرأة في زينة السفر وفي لبس الزى الافرنجي للرجل من قميص وجاكتة وبنطلون .

كذلك فهي تفرض إنماء شعر الرجل وتزيينه على نحو انثوى ، في نفس الوقت الذي يتلخص فيه المراة من شعرها وتلزم جانب الرجولة .

وهو في مجموعة جزء من مخطط دفع المراة إلى اخطر مراحل العبوديه ، وتحويلها الكامل من وضعها الطبيعي الفطري كام وزوجه وذات كيان اصيل ، وعماد الأسرة إلى صورة المراة التي عرفتها قصص الجنس القديمه : « الغانية التي التي تبيع اللذة » .

وهو القيد الذي حطمه الاسلام ورفعه عنه وكرمها حتى لا تكون مخطيه او اداة .

ان دعوة العرى واساليب الزينة والملابس التى تفرضها تلك القوى المسيطرة على الأزياء في الغرب والتى إتسع نطاق نفوذها حتى توشك ان تسيطر على العالم الإسلامي إنما هي مقدمه لهدم اصالة مفهوم المراة ووظيفتها ومكانتها .

ان هذا الاتجاه الخطير هو مقدمة لكل ما وراءه من فلسفة تحرر المراه من قيود الأسره وشرعيه الزواج ، والزى العارى المكشوف هو مصدر القضاء على حياء المراة ، وعلى احتقار المراه لأجزائها المكشوفة ، بل وتشوقها إلى كشفها للناس وملاحظة اعجاب الناس بها بينما هى لا تملك هذه الأجزاء ، وليس من حقها ان تعرضها على هذا النحو .

ان الاسلام حين حما المرأة من العري ودعاها إلى ستر العوره إنما دعاها

إلى بناء كيان نفسي ملىء بالحياء والتقوى والستر وصيانة السر وفق الفطرة الأصيلة وكان ذلك سدا منيعا امام الاخطار التي يفتحها العرى والتحلل . امام العلاقة السرية التي تمتهن فيها المراة ، حين يغريها الدعوة إلى التحرر من مواضعات العقد الشرعي ، ولقد كانت حماية الاسلام للمراه من العرى مع الزينه ، ابقاءاً على عامل نفسي خطير في اعماقها هو حياء المراه ، الذي هو جزء من انوثتها وكرامتها ، فإذا سقط هذا العامل تحت سنابك ازياء كرستيان ديور فقدت المرأه شخصيتها الحقيقه ، ولقد كان الأسلام مرتفعا بها حين جعلها تعتصم بحيائها وأنوثتها ، حتى يطلبها الرجل إلى الزواج ويقدم لها مهرا ، هو منحة وهدية ، كى يعبر عن طلبه اياها ورغبته في الزواج بها .

فالاسلام في مفهومه للزينه والزى إنما يبقى على أنوثة المرأه وحنانها وعاطفتها كما يبقى على رجوله الرجل وشهامته وسلامته وقدرته على المقاومه والبذل ، ولعل الآن قد وضحت ابعاد العلاقة بين الملابس والزينه من ناحية وبين الأخلاق من ناحيه أخرى مما يقصر عنه تفكير الذين يجتاحهم التفكير الانشطاري ولا يتعمقون تكامل مفهوم الانسان والمجتمع فيكونون بارائهم خدما للاهداف الصهيونيه البعيده المدى في اقرار العرى وحطم الفوارق بين الرجولة والأنوثه .

الفصل الرابع

الانسان والموت

للانسان من الموت موقفان : موقف المؤمن وموقف الملحد . أما المؤمن فان نظرته إلى الموت مستمدة من إيمانه بالله وبخلود الروح وبارتباط الحياتين الدنيا والآخره ببرزخ نعبر عليه هو الموت . فالموت عند المؤمنين ليس نهاية الحياة؛ ولكنه معبر على طريق الحياة إلى الحياة الدنيا الآخره : وهذا الإيمان يرتبط فى مفهومه بامرين : بالمسئوليه الفردية والمستمده من الإرادة الإنسانيه الحرة التى هى موضع الجزاء . وبالحقيقه التى لاتستكمل بنهاية الحياة الدنيا .

ومن هنا فالموت فى نظر المؤمن بالله ، حقيقه لاتزعج ولاتبعث على التشاؤم ولاتدعو إلى الخوف أو الاضطراب :

ولقد علم الاسلام المسلمين الايخافوا الموت ولايهابوه ، بل يقبلوا عليه ويطلبوه من أجل التمكين فى الدنيا ومن أجل حسن الجزاء فى الآخرى . فالمسلم يؤمن بالحرص على الموت لتوهب له الحياة .

وهناك موقف الملحد : الذى يعتقد أن الموت هو نهاية الحياة ، ومن هنافهو يخشى هذا الأمر الخطير الذى لم يستطع العلم الحديث أن يقضى عليه ، ويصاب بالهلع من أجل وقوعه ولفقدان الحياة .

ومصدر الهلع والخوف هوالإحساس بان الحياة مصادفه عمياء ،وأن الوجود بها ليس له هدف وأن نهايتها هى نهاية كل شىء ، ومن ثم فان ذلك كله يفرض الركض الشديد من أجل الاستمتاع بها واقتناص رغباتهاوالجرى وراء متعها ، فالحياة فى نظر غير المؤمنين متعه كبرى ، فهم يحبونها حبا شديدا ، ويعملون

على الاستمتاع بكل مافيها من وسائل الترف والنعيم واللذة ، واعتقاداً بأن العمر قصير ، واقتناصا للفرصة قبل أن تفوت ، ومن هنا يشتغل هؤلاء بإطالة الحياة والاندفاع وراء الرغبات : رغبات الطعام والشراب والذات الجنس والعبث ، لا يقيمون وزنا لشيء ، وظنا منهم أن هذه هي وظيفة الانسان في الحياة التي سوف ينزل عليها الستار إذا مامات الانسان .

ولقد تجرى فلسفة الموت في مفاهيم الوجودية والعدمية وغيرها من المذاهب ، حول سؤال يتردد : لماذا جئنا ، وإلى أين نذهب ، وماهي حكمة وجودنا ويذهب فلاسفة الوجودية والعدمية وغيرها إلى الاجابة على هذه الأسئلة اجابات متشائمة يقول كامو : مادمنا سنموت فليس لأى شيء معنى ، ويقول سارتر ان الحياة عبث .

وتتردد في هذا المجال كلمة الانتحار ، اذ ماهي قيمة الحياة وضرورتها : يقول البعض أن الأفضل الا تكون هناك حياة ويشبه سارتر الانسان بشخص محكوم عليه بالاعدام يتهيأ لساعة التنفيذ يحاول أن يكون رابط الجاش ساعة أن يصعد إلى المقصلة ، ولكنه يموت فجأة قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، ويرى غيره أن الموت سخيف مجرد من كل معنى ، ولاريب أن هذا المفهوم إنما يمثل القلق العميق الذى يملأ النفوس العاجزين عن ادراك ابعـــاد حكمة وجود الانسان الحياة ومفهوم رسالته .

وهذه المعاني كلها على هذه الصورة من الوساوس والاهواء ، إنما تمثل الحجاب الذى حال بين النفس الانسانية وإدراك حقيقتها .

إن السؤال الخالد الذى يتردد على كل لسان وفى اعماق كل نفس (من اين جئنا وإلى اين نذهب) قد اجابت عنه رسالات السماء ، وفى افق الاسلام اجاب القرآن عنه اجابة مستفيضة واضحة ، تقوم على اساس الفطرة وتتقبلها النفس الصافية الراغبة فى المعرفة الحقيقة .

والاديان السماوية التي عرفتها عوالم الشرق والغرب – حتى بعد أن اخطات

التفسيرات فى كثير من مفاهيمها ، ما تزال تحمل مفهوما صحيحا لفكرة الموت والبعث ، وترابط الجزاء الأخروى بالمسئولية الدنيوية .

وإذا كانت الفلسفات المختلفة قد حاولت أن تبحث عن اجابة لهذا السؤال بعيداً عن الوحى ، فانها فى حدود طاقتها ومقدرتها العقلية لقد أصابت قليلا وعجزت كثيرا . وكان أخطر عجزها حين تتصدى للبحث فى نطاق أدوات المادة والعقل واخضاع عالم الغيب للتجريب أو مقاييس المحسوسات والجماد .

وإذا كانت فكرة الموت قد شغلت الفلاسفة منذ أقدم العصور ، فان حقيقة الموت قائمة فى أعماق النفس الإنسانية دون حاجة كثيرة إلى كبير استقصاء أو بحث ولم يضل فى الوصول اليها إلا فئة واحدة هم أصحاب الفلسفة المادية الذين يقيسون الأمور على المحسوس والمنظور وحدها .

ولقد ارتفعت أصوات فلسفية فى العصر الأخير بانكار مابعد الموت وحاولت ان تصور الخلود والجزاء والحساب وكانها من أمور الدنيا ، تاويلا لبعض النصوص أو تخريجا لمعانى الكلمات غير ان أخطر ما هنالك هو الجزع من الموت ، وهو أمر يحطم النفس الإنسانيه ويهزها من الأعماق طالما تجاوزت اعتصامها بالله ، وحقيقة الفطرة .

ان النفس الإنسانية فى حاجة دائمة إلى سناد وقوة عليا تعتصم بها وتركن اليها وتعيش فى ظلها بالأمن والسكينة : هذه القوة هى الله وحده ، وليس هناك قوة أخرى تستطيع ان تمنح النفس الإنسانية هذا الأمن والسكينة ، فإذا زايل النفس إيمانها بالله ، عاشت فى رعب وفزع وخوف ورهبه وجزع لا ينتهى .

واخطر اخطاء هذا الرعب والفزع هو الموت : ذلك السيف المصلت على الرؤوس والنفوس ، وهو ما يصيب النفوس التى فقدت إيمانها بالله وحاولت ان تلتمس طريقها فى الحياة والفهم والتدبير فى ظل مفاهيم المادة الجافة .

وإذا كان الفلاسفة قد عجزوا عن أن يفهموا ما وراء هذا الجدار : جدار الموت ولذلك اسموه : المجهول الأكبر فان الوحى قد أرضى رغبة الإنسان فى المعرفة

وحرره من القلق المجهول ، وأراحه من عناء البحث الذي لا طائل تحته عن طريق العقل بأن كشف له الصورة بتمامها : الموت وما بعد الموت من حياة البرزخ وما يأتي به من قيام الساعة والبعث والخروج من القبر والحساب والجزاء بالجنة أو النار ، ولقد قدم الإسلام هذه الصورة في أدق مفاهيمها ومعاييتها ورسمها القرآن على نحو يرضى النفس ويملأها طمأنينة وسكينة ويدفع عنها كل قلق أو ريب .

بقي أن يقول أنه مصدر القلق هو عجز الإنسان عن فهم الأبعاد الحقيقية للمعرفة والوجود ، وتصوره عند منطلق واحد من منطلقاتها العديدة وهو العقل وما يتصل به من علم ، وتصوره أو اغفائه أو انصرافه عن منطلقات أخرى هي الوحي والوجدان والروح والبصيرة ، وهي منطلقات معطيه ومكملة ، خاصة هذه الجوانب التي يعجز عنها العلم التجريبي والعقل لأنها خارج دائرة المحسوس والملموس والمرئي ، والمشاهد .

ومهما تحاول الفلسفات المادية والوجودية في أمر الموت فهي سوف تخوض بحاراً مظلمة متلاطمة ، تخوضها وليس معها ضياء أو نور او اثارة من علم ، ولذلك فهي سوف تعجز عن ان تقول إلا كلمات الشك والوهم والسخرية والعبث وهي كلمات يسيرة على كل من يقولها ولكنها لاتشفى صدرا ولا تجيب على سؤال ولا ترضى نفساً ، ولا تبعث طمأنينة ، بل لعل أصحاب هذه الفلسفات إنما قصدوا إلى تعميق الشك وتذويب المر في حلوق الناس وتدمير النفوس .

« اما الإسلام فقد قرر فكرة البعث والجزاء كركن أساسي في عقيدته ووضعها على أسس منطقية ونفسية عميقة الجذور في كيان الإنسان بل أنه جعلها أساس السلوك الأخلاقي في الحياة الدنيا وبهذا قضى على اليأس من الفناء وأبعد شبح العدم عن مصير الإنسان .

إذ ليس ثمة عبث في الحياة ، وليس ثمة ضياع للجهد الإنساني اللذان يدفعان الإنسان إلى الاعتقاد بلا معقولية الحياة وبلا جدوى العطاء الانساني .

والايمان بحقيقة البعث والجزاء (لا يقضى على ياس الانسان وتخوله من

المصير المظلم فحسب) وإنما يمنحه قوة نفسية خارقة بها تستطيع أن يغزو الكون ويحقق المعجزات » .

ان ميزة المسلم أنه لا يطلب من الحياة إلا مفهومها الحقيقى فهو لاينسحب من الحياة و تفتزلها خوف أحزانها و الامها ، ولكنه يصابر احداثها ويؤدى دوره بالمجاهدة والعمل ، ويتملكها ويكون زاهدا فيها ، ولا يطلب الموت هربا منها أو كراهية لها ولكنه يقول . اللهم احيني ما كانت الحياة خيرا لى ، وامتنى ما كان الموت خيرا لى.

وليس فى حياة المسلم هلع من الموت ، لأنه يعلم ان الموت نهاية كل حى ، ويعلم ان هناك وحده أساسية بين الموت والحياة ، وبين الحياة الأولى والحياه الأخرى وبين العمل والجزاء ويؤمن بان الحياة إذا ماانتهت بالموت فقدت مضمونها الحقيقى لأن أعظم قضاياها مؤجل ليوم آخر للفصل فيه .

ان ترتيب البعث على الحياة والموت ليس أمراً مستحيلا ولا متناقضا عقليا بل إن شبهة القراض ان الموت نهاية الحياة هى التى تبعث الريبة والشك فى النفس فكيف ينتهى عالم لم يفصل فى أمره ، ولم تكشف حقائقه ، ولم يستمع أهله الاجابة عن الأسئلة المثارة فيه وعنه ولم يفصل بين المختلفين فيه ، من دعاه الحق والباطل ومن أهل الفكر الربانى والفكر البشرى ، من المؤمنين والملحدين ،من الذين قدموا كلمة الحق خالصه ومن الذين زيفوا كله افكوا واشاعوا الفاحشة وشرحوا الصدور بالكفر والزيغ .

كيف يمكن ان تنهى الحياه دون حياه أخرى تقدم للناس تفسيراً كاملا ، وجزاءا كاملا وتقضى فى عشرات من القضايا المعلقة بين حق المنهج الربانى وباطل المنهج البشرى .

ان مفهوم المسئولية الفردية يترتب عليه الحساب والجزاء فاقرار البعث لاريب مطابق للفطره ولا يشكل تناقضا عقليا .

« افحسبتم إنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »

الفصل الخامس

الانسان والعالم المواجه

ان اخطر ما يمثله الفن الغربى (رواية — قصة — مسرح — رسم الطبيعة) هو ما يعبر عنه بانه محاولة تمثلين الطبيعة وخلق عالم مواجه لعالم البشر من الصورة والكلمة والحوار وذلك حتى يتقرر فى النفس الإنسانيه ان هناك عالمان :

عالم يطلق عليه الحقيقة البشرية وعالم يطلق عليه الصورة الفنية ، اما عالم البشر فهو العالم الحقيقى الواقعى ، اما العالم المواجه فهو عالم موهوم لا يمكن ان يوصف بانه عالم حقيقة ، ذلك لأنه يقوم على تصور مرسوم فى لوحة أو مكتوب فى رواية أو مقروء على خشبة مسرح .

وان أبرز الاخطار التى تحيط بهذا العالم الخيالى الوهمى الذى صنعه الإنسان هو ان يصبح قوة كبرى لها مقدرتها على الحكم فى قضايا المجتمعات والانسان والحياه بينما هى لا تعتمد على أى أساس من الواقع الحى ، ولقد يبلغ من خطرها أن تتحكم فى ادارة وتوجيه عالم الحياه الحقيقية البشرية .

ومن ابرز عوامل هذا العالم المواجه ، انه يقوم أساسا على الاسطورة القديمة التى هى مجموعة من الخرافات والأوهام والصور الساذجة التى صاحبت البشرية فى فترات الوثنية والبدائية والجاهلية وتتسم هذه الصور التى يقدمها الفن الغربى بسمة واحدة هى أبرز السمات وبنبرة عالية هى أعلى النبرات تلك هى تصوير الجانب المظلم من النفس الإنسانية والجانب الاباحى المسف من طبائع البشر ، وتدور المسرحيات والقصص والروايات والفنون كلها حول هذا اللون ومن خلال طابع التشاؤم العميق والاحساس بالغربة والتمزق .

ويرجع هذا أساسا إلى ان المسرح اليونانى القديم قام على أساس فكرة

الصراع بين الانسان والآلهة وكانت ذروة المأساة فيه هي تحطيم القدر للبطل بعد مصارعته الاله . ثم اتسع نطاق الصراع إلى مجالات متعددة . فهو مع المجتمع او الأرواح الشريرة أو مع نفس الانسان .

وقد كان لمفهوم الخطيئة فى الفكر الغربى بعد سيطرة المسيحية أبعد الأثر فى عقدة القصة واطارها الفنى كله الذى ما زال مسيطراً عليها إلى اليوم .

ان مفهوم خطيئة آدم مازالت تفسر فى الفكر الغربى وتفرض أثرها على الفن والمسرح وعلى مختلف نظريات النفس والأخلاق والاجتماع ، تفسر على ان هذه الخطيئة هى خطيئة البشرية كلها وان آثارها ممتدة فى حياة كل إنسان.

فهى تستوعبه طوال حياته وتفرض شبحها المظلم على كل تصرفاته من ساعة ولادته إلى ساعة مماته ، وقد كانت مصدراً لنشوء كثير من المدارس الالحادية .

ومما يترتب على هذه النظرية انعدام المسئولية الفردية للانسان وما يترتب عليها من قصاص فى الدنيا أو عقوبة فى الآخرة ، بمعنى تلاشى الجزاء جملة ، من حيث ان الانسان لا ارادة له وأنه خاضع فى حياته كلها وحياة البشرية إلى خطيئة آدم ، ويتمثل هذا المعنى فى عقدة القصة والمسرحية ويلقى ظلاله الكثيف على مفهوم الفن والأدب جميعاً .

ويرجع خطر هذا العالم الوهمى المواجه للعالم الواقعى إلى أنه يقوم على فكرة الازدواجية التى تسيطر على النفس البشرية الغربية حيث يعيش الانسان مع الشيء أو ضده فى تعدد العوالم ، وتناقضها ، وحيث يواجه الانسان الحياة والقدر والارادة الالهية مواجهة الصراع الدائم المستمر الذى لا يتوقف .

ولا ريب ان هذه المفاهيم التى كان من شأنها إنشاء هذا العالم المواجه لا يعرفها الاسلام الذى يتلاقى فى طمأنينه ورضا مع الله والقدر والحياة .

فى هذا العالم المواجه « يحاول الانسان ان يكتشف نفسه ندا للالهة(١) »

---

(٢) دكتور محمد عزيزه — المسرح الاسلامى .

أو على الأقل يشكل « شخصية مستقلة تحيا وحدها تجاهه بمعنى ان هناك ارادتين ارادة هذا الانسان وارادة الله . وبالنسبة للاسلام فان مثل هذه الثنائية ليست غير موجودة فحسب بل انها غير متصورة على الاطلاق(٢) » .

(٣)

ان المصدر الأول والخطير للعالم المواجه هو : ما أطلق عليه نظرية المحاكاة أو التقليد ، وهي النظرية التي يرفضها الاسلام رفضاً باتا ، ذلك أن نظرية المحاكاة من شأنها أن تعطي الانسان ذلك المنطلق إلى إنشاء عالمه الوهمي المواجه ، وهو عالم في الأغلب يقوم على نقد وانتقاص العالم الحقيقي حيث يحاول الفنان ان يرسم صوراً تنافس خلق الله ، أو تشير إلى أنها تستكمل نقائص الطبيعة أو تخلق القصة والرواية عالما معارضا ، والمسلمون يؤمنون بانه ليس ثمة شيء يمكن أن يكمله الفنان أو نقص تصل اليه يد الانسان .

« ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

ولما كانت الطبيعة والإنسان من صنع الله وهما خاضعان لارادته وصناعته فان المسلم لا يجد صراعا حقيقيا بينه وبين الطبيعة أو بينه وبين القدر الذي هو من ارادة الله .

ومن هنا فان الفكر الغربي يؤمن بالازدواجية بينه عالم الواقع وعالم وهمي يصنعه من صور الفن او الرواية والقصة ، ثم هو يرنو دائماً إلى الانسحاب من عالم الواقع إلى العالم الوهمي المواجه .

يقول (ر . م . البيريس) من كبار نقاد الرواية الغربية :

إن الرواية هي مرض الانسان ، هذا الانسان الذي لا يكفيه ضميره ، بل ينبغي ان يقدم له اغراءه انتهاك ضمائر أخرى وتجعله يعيش حيوات أخرى كيما .

يعرف هل ثمة حياة ما يتوقف عندها ولو كانت خياليه .

ان كشف الأسرار في الرواية لا يتجه كل الاتجاه نحو طبيعة المشاعر والعواطف ولو كانت غامضة أو فاضحه ، وإنما الولوغ في قلب القلعه ، في الضمير ، في هذا

الفراغ المتوتر الذى يجده كل إنسان فى أعماق ذاته ، هذا الفيض الغامض المشاعر والأفكار ؟ هذا الشقاء ، هــذه الوحدة ، التى وصفها سارتر وصفا مشخصا فى رواية الغثيان ، ورغم الحياة التى عشناها فاننا جميعا فى غاية الفقر ، بين اننا نعتقد باننا إذ نلج فى ضمير جارنا فى الضمير المتخيل لأحد أبطال الرواية نجد عونا وكشفا .

وهذا ما يدفعنا إلى هذه الكتب التى سرعان ما نطرحها والتى ندعوها روايات .

« ان الروايه هى بديل الموت ، فهى تثبت مصيرا ما ، مهما كان نوعه إلا أنها تثبته فى نهاية المطاف ، لقد حلت الرواية محل فكره الأبدية .

ويقول (البيريس) أن تاريخ الرواية الحديثة هو تاريخ اطراح الحياء ، ذلك ان الفنون الأخرى تسمو ، باخفى خفايا الضمير الفردى أو الجماعى على نحو رمزى أو تزيينى . إلا الرواية كالنمنمة تنطوى على من الجزئيات ، ان القارىء دون وعى منه بهذا السحر الذى يستسلم له بمتعة يتبنى بيسر دور مصاص الدماء الذى يجعل من قراءه الروايات ماده سادية فاذا رفضنا هذه المتعة بدت الرواية باردة .

ويقول : إن الروائى الفضولى الجرىء السادى ، المستعد لأن يبلبل سطح الانقياد الإنسانى المادى لا يستطيع أن يحملنا إلى الأغوار الا كمية قليلة من الأخلاق » هذه صورة يسيرة لهذا العالم المواجه الخطير الذى تتردى فيه النفس الإنسانية الغربية : إنه التطلع الشره إلى مزيد من الشهوات بالخيال دون الا كتفاء بالعوالم الواقعية المفعمة بالشهوات ، ثم انها ذلك النقص الخطير فى النفس الإنسانية الذى يجعلها تحرص على متابعة عالم من الوهم وهى تعلم انه ليس إلا زيفا صنعه كاتب ما ، مهما كان مدى صلة ذلك بمشابهة واقع الحياة .

(٣)

إن مفهوم هذا العالم المواجه : عالم الفن والقصة ليس إلا البديل الخطير للواقع

الغربي المعقد ، إنه تلك الجريمة المخدرة المسمومة للتعويض عن مآسي الصراع النفسي وازمات القلق والإزدواجية ، حين عجزت المجتمعات الغربية ان تجد من أيدلوجياتها ما يعالج واقعها المرير جنحت إلى هذه الجرعات من الوهم والخيال .

إن هذه النزعة الخطيرة في معارضة عالم الواقع بعالم وهمي يقوم على أساس اللذات الجنسية وقضاء الوطر ، وتحقيق الذات بالوهم لا يقدم أكثر من جريمة سريعة ، ينكشف بعدها الوهم وتعود النفس مرة أخرى إلى عالمها الواقعي المنحرف ، دون أن تتمكن من تغيير شيء منه ، سوى ما أضافته هذه الجريمة من مزيد من التوتر . ومن هنا صدق تصوير الناقد الغربي (البيريس) من أن القصة مرض ، فهو بالحق مرض ذهني ونفسي « وأخطر ما في هذا المرض أنه يقدم للمحرومين العاجزين تعويضاً خيالياً وهميا عن جميع حاجاتهم الرئيسية فيقتل فيهم الحافز القوي ويميت فيهم الضمير الحي ويضللهم في مقاييس العقل ويرفع عنهم تكاليف الحياة »(١).

وفي الغرب حيث تسيطر الرأسمالية بنفوذها وسلطانها ترى أن القصة من أسباب التعويض الوهمي ، للجماعات التي تعاني واقعها المضطرب الملازم ، وان روح القصة الغربية ليكشف تلك القسوة البالغة وغلظة القلب ، حيث يتمثل في رواياتها الكبرى البؤساء لفيكتورهيجو ، ودافيد كوبرفيلد لتشارلزدكنز والنور يضيء الظلام لنوانسوي : والجوع لكنوت ها فرن ، صور هذا المجتمع الصاخب المليء بالظلم والقسوة : يسرق رغيفا ليعيش ، غلظة القلب ، قساوة زوج الأم ، ظلم الأغنياء ، إحتمال فوق الطاقة من الجوع ، الخلل العقلي الذي يتولد من الجوع المزمن ! الخ (١) .

فضلا عن تمجيد الأبطال الخرافيين ، ذلك إن « القصة بطبيعة التكلف في اختلاقها واتجاهها تعمل على تعقيد البسيط وتجفيف وطأة الواقع ، والايهام بوجودماليس موجوداًهذه القصة لايستطيع ان تعيش لحظة تحت شمس الصحراء

---

(١) صادق الحكيم : مجلة الانتصار .

الغربية إنها بمثابة حقل من حقول الألغام فى طريق الأدب العام ، وهى نوع من الاستهتار العقلى يحثه الروائيون فى نفوس الجماهير السهلة الانقياد فى قالب منمق ، يعطى فكرة إن الحياة لهو وغرور .

وهى إلى ذلك « قربت إلى الأذهان فكرة الاستهانة والتغلغل فى السقوط الأدبى والتمست للمستهترين والمنحلين أعذاراً .

« وليس هناك قصة واحدة إلا وهى صورة المجتمع شتى محروم، حتى الصور التى تبدو فيها المرح والتمجيد للابطال الخرافيين »(١) .

ولا ريب أن الأزدواج الفكرى والعقائدى الغربى ، والتضارب والصراع بين العقيدة التى تقوم على التقبل الكامل من الوجدان دون تدخل العقل .

والفكر الذى يقوم على أساس عقلى دون تقبل الوجدان ، وهى الظاهرة التى يحياها الفكر الغربى منذ قديم ، هى مصدر هذا التيار الغريب الذى خلق عالما مواجهاً بحيث يسمح للإنسان الغربى بتلك الثنائية المنفصلة المتصارعة بين العقل والقلب ؛ بين الدين والعلم ، بين الإيمان والإلحاد . ولا ريب أن قيام الفكر الغربى أساساً على مبدأ الفصل بين القيم فصلا تاما ، هو من العوامل الأساسية لهذه الظاهرة الخطيرة التى يرد إليها أساساً كل نتائج أزمة الإنسان المعاصر وأزمة الحضارة والمجتمع المعاصر .

ولما كانت العقيدة الغربية هى مزيج « جسور » على حد تعبير المؤرخ ارنولد توينبى من وثنية الإغريق ، وقانون الرومان ، ومفهوم المسيحية فى تفسيرها الذى يقوم على (التثليث والخطيئة والفداء) . فإن العقل البشرى منذ عصر النهضة أخذ يراجع هذا المفهوم ويعرض عنه، ويقيم بديلا جديداً معارضا تام المعارضة له يقوم فى أساسه على افتراض إرادة الإنسان الواحدة التى لا تعلوها

(١) نفس المصدر .

إرادة ومعارضة إرادة الله الشاملة الحقيقية . ومن هنا نشأ ذلك الصراع الذى استبطن فى النفس مفهوما موثوقاً ، واستظهر مفهوما ماديا وثنيا عقليا أحيا به الهلينية القديمة .

وجاء هذا العالم المواجه من الفن والقصة لتبرير ذاك التحول وإقراره وتجديده وتكراره فى النفس البشرية مرة بعد مرة ، وأصبح هذا العالم هو المرجع الذى يعالج الغربيون عن طريقة مشاكلهم ويعرضون واقعهم .

ولذلك فقد تركز هذا العالم على مفاهيم العشق والحقد والاغتصاب والشهوة والإباحة بوصفها المواد التى يتشكل منها هذا البناء : بناء القصة والمسرحية والدراما والمأساة (التراجيديا) .

ولذلك فان الأديب الألمانى واسرمان يقول (ما دام العنصر الشهوانى خفيا فلا وسيلة لتأليف القصة) ويقول محمد عبد الله عنان « إن المجتمع الإنسانى متى بقى تطوره وتقدمه محصوراً فى المبادىء الإسلامية أو فى التقاليد التى كانت أثراً لهذه المبادىء فلن يجد كتاب القصص يوما مادة واسعة او غزيرة كالتى يقدمها المجتمع الغربى إلى كتاب الغرب ، أو أن يغدو الأثر الذى يفسحه للمرأة ذات يوم وحيا للفن أو الخيال » .

ومن هنا تبدو « خصيصة » المجتمع الغربى لهذا الفن ، ولهذا العالم الآخر ، ويبدو مدى إختلاف المزاج النفسى بين المسلمين والغربيين فى هذا المجال ، حيث يقوم الفكر والمزاج الإسلاميين على أساس الواقع ومن خلال الحقائق ، ويجرى التحرك كله داخل إطار العالم البشرى الواقعى ؛ دون حاجة إلى الهروب منه .

« وليس من اللذة العقلية عند المسلمين أن تقرأوا فى القصص شروحا مفصلة تجريدية لحياة أهل الخلاعة وما يصنعه البغايا فى خلواتهم فهذه لذات مرضى النفوس من ذوى العقد الجنسية (١) » .

---

(١) مجلة الاعتصام ١٩٤٠ .

والفكر الاسلامى لا يواجه مثل هذه الأزمات والقضايا والمشاكل التى تعرضها القصة أو يعرضها الفن الغربى، حيث يكفل التكامل بين القيم والتوازن بين النفس والروح من خلال عقيدة محكمة جامعة تقوم على التوحيد الخالص وتربط الإنسان بربه برباط العبودية وتجعل إرادته الحرة المنطلقة تتحرك من داخل إرادة الله، إذ ليس فى هذا المجتمع أو هذا الفكر مايجعله فى حاجة إلى خلق هذا العالم المقابل للتعويض أو للهروب .

وحين قدم الإسلام المسلمين القصة قدم لهم الصدق ، وفى مختلف الصور التى رسمها القرآن نجد الحقيقة الأصيلة ، فى أسلوب مجمل ، حكيم ، يستهدف العبرة ولا يعنى بالتفاصيل لذاتها وبعيداً عن الخرافة والاسطورة والاهواء ، ومفهوم القصة فى اللغة العربية هو الإخبار بالواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة ، لقد عنى القرآن برواية الواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة الناصعة « ان هذا لهو القصص الحق » « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، « نحن نقص عليك أحسن القصص » .

أما القصة بمفهوم الجاهلية الممتد إلى الأدب الغربى الحديث على نحو (تأليف الحكايات وتلفيق الوقائع أو اصطناع الأخبار المكذوبة التى يلفظها الكبت والظلم ، فتسمى سمها لاخفاء عارها وكذبها » فان ذلك مما ترفضه العقلية العربيه الإسلاميه وتشيح بوجهها عنه وتنكره لأنه وهم وهى تعيش فى الواقع ، ولأنه تعويض لحرمان لا يوجد فى أفق الإسلام ، فالمسلمون يواجهون الحياة مواجهة صريحة واضحة ، ويقبلونها على أسسها الصحيحه ويمارسونها على نحو صريح متكامل لقد أعطاهم الإسلام الاعتراف بالرغبات ودعا إلى تحقيقها ووضع لها الضوابط والاطر الضابطة لذلك، دون اسراف ودون امتناع ، وربط بين الرغبات الماديه والاشواق الروحية .

ولم يجعل لعبادة الجسد ، أو للاسراف فى اللذات ، أو فى إستباحه الحلائل ، او الخمر ، أو الخنا ضرورة ، بل أنه أقام مجتمعه على أساس الفصل بين الرجل والمرأة ، وبذلك حمى النفس الإنسانية من الصراع والتضارب والازواجية

المصروعه التى تحاول ان تجد تعويضها فى عالم آخر وهمى ، هو عالم الفن والقصة .

وبذلك حمى الإسلام العقل والنفس من هذه الدوامة التى لا تشبع ولا تنتهى، التى لا تكتفى بالواقع الاباحى ، بل تنشده أيضاً فى عالم الخيال .

والإسلام بواقعه وفكره وشريعته يحول دون الانشطار ودون قيام عالم الوهم ، ويحول دون وجود الحرمان الحسى أو المادى الذى تعوض عنه القصة فان افساحه السبيل إلى تحقيق الرغبات الحسية بالزواج ، واقامة نظام الزكاة الذى يحقق العطاء لكل حى ، دون تخلف محروم واحد ؛ من شأنه أن يقضى أساسا على هذا التزاوج ويحول دون قيام العالم المواجه.

ولا يوجد فى مجتمع الإسلام مثل هذه النماذج التى نراها فى القصة الغربية .

لا يوجد مثلا (دافيد كوبر فيلد) الطفل الذى مات أبوه فتزوجت أمه من رجل غليظ القلب على نحو انى معه الطفل العنت نتيجة وحشيه هذا الزوج ، ثم ماتت أمه فلم يبق له إلا أن يعتمد على نفسه فلجأ إلى العمل صغيرا ولقى القسوة فى معامله الناس حتى اللصوص لم يشفقوا على طفولته فسرقوا ملابسه ونقوده »

هذه الصورة لا توجد فى المجتمع الإسلامى : فالرحمة تحل فى أى مكان ولا يمكن ان تتجمع القسوة بهذه الصورة فى كل مكان ما إلا فى المجتمع الغربى الذى يتميز بطابع «نيتشه» فى قتل المحرومين، وتدمير الفقراء ، والقضاء على المحتاجين .

أما المجتمع الإسلامى فى نهجه الإسلامى الربانى فانه يجعل لهولاء عالما كريما ويقرر لهم نصيبا مفروضا ، ليس هو صدقة ولا هو منحه ، ولكنه حق معلوم.

والنفس العربية الإسلامية مفطورة على الرحمة والاحسان ولذلك فان عشرات من هذه القصص لا يمكن ان تمثل إلا مجتمعها نفسه ، بما فطر عليه من قسوة وعنف .

كذلك فان الصورة الأخرى التى يمثلها القصة : صورة الاباحة الصارخة ، والخلاعة والترف البالغين ، التى تتمثـــل فى قصص تاييس وما نون ليسكو وغيرهما .

هذه الصور لا يوجد لها مدخل إلى النفس العربية الإسلامية التى تقوم فطرتها على أساس العفاف وكرامة العرض ، وسلامة الصلة بين الرجل والمرأة ، فضلا عن الحب الكريم ، والرفقة النبيلة ، وهذا ما أشار إليه الباحثون الذين كانوا يستبطئون ظهور القصة فى العربية ، عندما أشاروا إلى ان قيم الإسلام ومبادئه وتقاليده لا تمكن القصة (التى هى فى طابعها تقوم على اهواء العشق ، وفى عقدتها على تدمير العرض) من الظهور ، أما القصة التى ظهرت اليوم فهى لا تمثل مفهوم الإسلام ولا مجتمع الاسلام .

ولكنها تمثل مجتمعا مقهوراً فى ظل مفاهيم وقيم وأوضاع فرضت عليه فرضاً نتيجة تخليه عن مفهوم الإسلام وسيطرة القوى الخارجية عليه .

كذلك فان ما تقدمه القصة أو الفن من محاكاة للطبيعة أو لخلق الله ، أو معارضة أو جنوح إلى الالحاد أو الزيغ فى العقيدة فان ذلك كله بطبيعته يعارض الفطرة الاسلامية ولا يجد فيها صدى .

ولقد يكون من حق الغربيين ان يقيموا عالما مواجها للعالم الحقيقى ، يتخذونه أسلوبا من أساليب حل قضاياهم ومعضلاتهم ، لأنهم فى الأساس ليس لديهم منهج ربانى فى شئون المجتمعات وعلاقات الأفراد والناس ، أما المسلمون فليسوا فى حاجة إلى مثل هذا العالم المواجه لأنهم يجدون فى منهجهم كل ما يكفل لهم السلامة والأمن ويحول بينهم وبين التمزق والشك .

وإذا كان هذا العالم قد قام على الأساطير الوثنية القديمة وجددها ليجعل منها وسيلة إلى الوصول إلى فروض فى مجال النفس (كما فعل فرويد) أو فى مجال الوجودية (كما فعل سارتر) فان ذلك كله من شانه أن يؤكد ظاهرة الهروب من الواقع الحى المعاش ، وان اصطناع الدعوات الهدامة والمذاهب المختلفة القصة كاسلوب لاقناع الناس بها ، لن يزيدنا نحن المسلمين والعرب إلا ثقة بان العالم

المواجه هو عالم الوهم الزائف الذى يحاول ان يرد الناس إلى حياة الاباحة الجاهلية القديمة ، حيث لم يكن للعرض قيمة ولا للاخلاق التزام .

وحيث تبدو الحياة وكأنها سوق من أسواق الرقيق والبغاء وحيث نرى القصة تنبعث من نظرة الحيوان المجنون ، المتهافت على الأجساد والطعام المتدافع إلى الفجور والاثم .

ولا ريب ان القصة الغربية اليوم إنما تدفع إلى تحقيق نفس الأهداف التى حملت لها مذاهب العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ، أو هى التطبيق العملى لمذهب التحليل الفرويدى والتفسير المادى ونظريات نسبية الأخلاق والتحلل ، مجازه فى صورة الواقع ، لتحقق الهدف الكبير الضخم الذى تسعى إليه اليهودية التلمودية من تحطيم الأسرة وتدمير المجتمعات ونشر الاباحية وانكار البعث والجزاء وطى العقول والنفوس فى عوالم وهمية خادعة للسيطرة عليها وإذلالها وسحق كرامتها وإيمانها وهدم عقائدها .

* * *

الفصل السادس

الانسان والمسرح

إن موقف الإنسان المسلم من المسرح هو موقفه من عالم غريب قد يجد من الطريف أن يراه ولكنه لا يقتنع به ولا يحس بانه يغطى حاجة من نفسه أو مطمحا من فكره ، ذلك لأن الإنسان المسلم بطبيعته يجد ماينقصه دون حاجة إلى ما يقدمه له المسرح ، إذا كان من شان المسرح أن يقدم للانسان الغربى تفسيراً للكون أو للعقيدة أو تعويضاً عن نقص أو حرمان فى مجال الحيـاة الاجتماعية أو النفسية .

والإنسان المسلم بطبيعته من واقع اللغة العربية والقرآن ينظر إلى الكليات ولا يميل إلى التفاصيل الدقيقة ، ولا يجد نفسه فى صراع من الالهة أو القدر ، والطبيعة العربية واضحة صريحة مشرقة ، والكلمة فيها صريحة غير مبهمة فهو ليس فى حاجة إلى الرمز والإيماء أو الكلمة ذات الظلال أو المواربة .

لقد نشأ الإسلام المسلمين والعرب على فهم واضح صريح للعلاقات كلها بين الإنسان والله والإنسان والكون والإنسان والمجتمع والإنسان والحياة . فهم على فهم سوى صريح فى هذه المواقف كلها ،وليس فى حاجة إلى أن يبحث عن تفسير لها يستمده من المسرح أو من الرواية وهو ليس على صراع مع هذه القوى جميعاً بل هو على لقاء معها وتكامل . ومن هنا فالأمر واضح فى الخلاف بين موقف المسلمين من المسرح وموقف غير المسلمين .

يقول الدكتور محمد مندور فى هذا الشان : العقلية اليونانية قد تميزت

بشيء خطير هو الولع بالإنسان والإيمان به واتخاذه محوراً للحيــاة كلها بل وللالهة نفسها

حيث سميت الثقافة الإغريقية ولا تزال تسمى بحق بالإنسانيات وتتفرع عن هذه الحقيقة العامة حقيقة عامة أخرى تتعلق بتصور الإغريقي القديم لآلهته على شكل الإنسان وأثر ذلك في مجمل العقيدة الدينية عند الإغريق فالإله الإغريقي كانت له كافة خصائص الإنسان ومافيه من فضائل ورذائل، وعواطف ومشاعر، ونزعات خير وشر، حتى تراهم يقصون عنه أغرب القصص، أما معظم الشرقيين، ومنهم العرب لقد تصوروا آلهتهم كقوى خارجة عن مجال الحيــاة الإنسانية مسيطرة على تلك الحياة، ولذلك لم تتصف هذه الآلهة بصفة الإنسان الذي تتجمع فيه المتناقضات وتتصارع الفضائل والرزائل وتتعدد المغامرات، ولم يشتبك البشر مع الآلهـــة كما يشتبك الإنسان على نحو ما حدث عند اليونان » .

ويبقى هذا تماماً أن هذه الأمة التي نشأت فيها الاديان ونزلت رسالات السماء منذ إبراهيم عليه السلام إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومروراً بموسى وعيسى ، عليهما السلام لها مفهوم في العقائد يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم اليونان . ولقد انتقل الغرب بعد ذلك إلى المسيحية ولكنه ظل محتفظاً بقيمه الثقافية والفكرية وأدخلها إلى عقيدته الجديدة وصهرها فيها ومن ثم نشأت التراجيديا في الأدب الغربي إمتداداً للادب اليوناني وحملت مفهومه للمأساة والموت والبطولة لأنها لم تفصل مفهوم الألوهية عن مفهوم البشرية ، كما يفصل بينهما المسلمون .

ولذلك ظلت مفاهيم آلهة الإغريق وإنصاف الالهة والأبطال وعبــادة الأبطال قريبة جدا إلى مفهوم التجسد والربط بين البشرية والألوهية في تفسيرات المسيحية .

ومن هنا لقد تجاور المسلمون التراجيديا والقصة والمسرحية اليونانية تماما

أبان ترجمة العلوم فى القرن الرابع الهجرى مؤمنين بأنها لاتتصل بمزاجهم النفسى ولاتتفق مع مفهومهم فى التوحيد المعارضت عليهم بالترجمة بعد الاحتلال وحين أصبحت تصاريف أمور الترجمة لا تصدر عن إرادة حرة ، وقف العرب والمسلمون منها موقف الوجوم فلم يستجيبوا اليها لأنها لم تلمس أعماق أنفسهم ، ولم تتصل بروحهم أو مزاجهم من قريب أو من بعيد .

وقال أحد النقاد فى مواجهة بعض مترجمات الأساطير الاغريقية : إن الصعوبة الأساسية ليست فى الحاجة إلى الفهم ، فالفهم قد يكون ممكنا بالشرح على نحو من الأنحاء ، ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة فى الشعور بها فى أعماق الضمير ، إن الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه ، لهذا لم يكن ممكنا أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الاغريقية المستمدة من هذه الأساطير » ذلك إن الميثولوجيا الاغريقية مختلفة فى طبيعتها عن مفهوم العقيدة الاسلامية « الآلهة فى الميثولوجيا الاغريقية تدفعها حيوية عارمة إلى كل تصرفاتها ، حيوية لاتعرف العدل والحق والخلق والضمير لأنها حيوية غائلة شهوانية باطشة ، فليس لديها ما يمنع من صب كل هذه اللعنة على (أوديت) لمجرد شهوة حقد من (أبولون) كذلك صنعت مع هرقل ، كذلك صنعت مع (بروميثوس) وغيرها .

والإسلام ينبذ نهائيا فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله ، ولذلك فإن فكرة القدر فى الإسلام لا تتفق مع الفكرة الاغريقيه »(١) .

* * *

ولقد ابان الباحثون بايضاح شديد كيف ان الإنسان العربى المسلم بحكم وحدانيته التى لا تؤمن بالأوثان والأصنام والتى تؤمن بالله وحدة «لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر الالهة على نحو ما كان يتصوره اليونان الذين يؤمنون بأن الحرب من القدر وان كان آخرتها المؤدية المؤسيه فانها حرب تدل على التجبر » والصراع بين الآلهة لا يفهم أصلا مع التوحيد ، وصراع الإنسان مع الطبيعة الصخرية الجبليه .

---

(١) من بحث لكاتب مسلم ١٩٤٩ الرسالة .

كذلك يميل العربي المسلم إلى الوضوح ، بين الألوان ، وذلك يرجع إلى بيئته وطبيعة اقامته الواسعة الفسيحة التي تشرق فيها الشمس غير الطبيعة في الغرب المليئة بالضباب والغمام مما ينعكس على التعبير .

ويشير إلى هذا زكي طليمات حين يقول : ان الإسلام هو دين التوحيد فلا بدع ان يناهض الوثنية التي تعدد الأرباب ، فلا غرابة في ان يعمل على محو آثارها المادية المجسمة واستئصال جذورها المعنوية في نفوس العرب ذلك ان العقيدة الاسلامية في وثقها الأولى لمحاربة الوثنية أحدثت في الفنون التشكيلية حدثا ليس له مثيل ، إذ حولت مواضع الالهام فيها من الطبيعة وصورها إلى الذهن واخيلته.

وسبب أخر : ذلك ان العقيدة الإسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها ومنطق أحكامها ، عقيدة لا يشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلا في التفسير فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشك ، ليس هناك أرباب ولا انصاف أرباب ، كما هي الحال في الوثنية ، كذلك لا توجد عقدة يتعذر فهمها إذ لا يوجد أب ولا ابن ولا روح قدس ، كما هي الحال في العقيدة المسيحية ، وشعائر الإسلام تقوم على بساطة وتقشف فليست في حاجة إلى عازف يعزف على آلة موسيقية أو ينشد نداءات كهنوتية » .

(٢)

ان الذين تناولوا بالبحث الفوارق العميقة بين مفهوم الاسلام ومفهوم الفكر الغربي تجاه المسرح يبلورون القضية في ان المسرح — استمداداً من الفكر الغربي وعقائده ومفاهيمه ومواريثه اليونانية — يقوم على مفهوم الصراع الذي هو طبيعة العلاقة بين الانسان والقوى التي يتصل بها .

وهو صراع ذو أربع شعب :

صراع مع الارادة الألهية ، وصراع مع المجموعة والكيان الاجتماعي ،

وصراع مع القدر وصراع داخل معدات الانسان(١) .

على هذا الصراع فى اتجاهاته المختلفة التى يكون الانسان محورها يقوم المسرح وتقوم المأساة ويقوم العالم المواجه الخطير الذى يخضع له الانسان ويلجأ إليه هربا من عالم الواقع .

ويتساءل الدكتور محمد عزيزه فى بحثه عن الاسلام والمسرح : هل يستطيع المسلم حسب حضارته ودينه أن يحيا فى واحد من هذه الصراعات الأربع وأن يضع حريته الشخصية أمام إرادة الله أو أمام الكيان الاجتماعى لمدينته أو يواجه بها منطق التاريخ والقدر أو أن يكتشف أخيرا فى أعماق إنسانا آخر يصارعه .

هذا هو السؤال الذى يوجهه الدكتور عزيزه ويجيب عليه :

« ما دام الانسان يكتشف نفسه نداً للالهة كما فى التراجيديا اليونانية أو على الأقل يشكل نفسه شخصيته مستقلة تحيا وحدها تجاهه ، فاننا أمام إرادتين : إرادة هذا الانسان وإرادة الله ؛ وبالنسبة للدين الاسلامى فان هذه الثنائية غير موجودة فحسب ، بل أنها غير متصورة على الاطلاق .

ويستشهد الباحث بما أورده لويس ماسينون من أنه « ليس هناك دراما فى الاسلام » ، « لأن الدراما كما يعرفها التفكير الأوربى الشائع تدور فى قلب الانسان، إنها دراما حريتهم ولكن هذه الحرية بالنسبة للمسلمين مشروطة بالارادة الالهية وبالنسبة للمسلمين فان الله تبارك وتعالى هو مصدر وأساس كل شىء ، كل شىء يخرج منه وكل شىء يعود إليه ، إنه ينبوع كافة الأشياء » ويستشهد على ذلك بقول ابن طفيل (وكل موجود لا يوجد إلا بارادة الخالق) .

ويقول بان وعينا نفسه بما هو موجود لا يمكن أن يتم إلا بارادة الهية ، وتجاه القدرة الالهية المطلقة فان تصرف الانسان يتقلص إلى أدنى درجاته ،

---

(١) عن بحث للدكتور محمد عزيزه عن المسرح

إن إرادة الانسان هي جزء من إرادة الله الشاملة ، ومن هذه الزاوية لا يمكننا تصور نشوء صراع يتواجه فيه (الانسان مع الله)

— وبما أن إرادة الانسان هي جزء من إرادة الله ومادامت كذلك فلا يمكن إذن أن تنفصل عنها وبالتالي أن تواجهها ، وهذا ما يخلق التوافق ويحول دون القلق والتمزق . ويستشهد الدكتور عزيزه بقول لويس جارديه الذي يقول أن هذا العراك بين الانسان وقدره الذي يجده كتاب المسرح اليوناني لا يتناسب مع مفهوم الحياة ولا مع العلاقات التي تربط الانسان بخالقه في المجتمعات الاسلامية .

ويصل إلى هذا المعنى (جوستاف فون جرونيوم) حين يقول : إن الإسلام (السني) لم ينجح في خلق فن مسرحي رغم معرفته بالثقافة اليونانية والهندية وهذا لا يعود إلى سبب تاريخي بقدر ما يعود إلى مفهوم الإنسان في الإسلام .

(وهو مفهوم يمنع وقوع أي صراع درامي)

وكذلك قول بروميثوس : في أفق الفكر الاسلامي لم يتصور قيام صراع بين الانسان والارادة الآلهية .

ومن هنا فإن (قصة بروميثوس) لا تمثل الفكر الاسلامي :

وكذلك بالنسبة لصراع الانسان مع مجتمعه يؤكد الدكتور عزيزه استحالة ذلك (لأن الاسلام دين ودنيا وأنه قد نظم الأمور الدينية وقواعد الحياة بالنسبة لكل فرد وبالنسبة للمجموعة كلها — كما يلاحظ (لويس جارديه) — في كتابه المدنية الاسلامية ، فالمدنية الاسلامية (التقليدية) بكل ما فيها من طقوس عائلية واجتماعية وسياسية ودينية تنظمها التعاليم الجماعية والأمة الاسلامية تعيش في تشريع قانون إراده وسنه لها الله ، هو تؤكد عن طريق الممارسة الاجتماعية عقلية موحدة إجتماعية .

ومن هنا فان (ثورة إنتجونا) لا تمثل المجتمع الاسلامي :

« عكس هذا فى المدنية الاسلامية حيث نجد الرغبة لتحقيق الوحدة الجماعية شديدة العمق ، وحتى ترى تنفيذها عضويا تاما واساسيا

* * *

ويقول دكتور عزيزه بالنسبة للنقطة الثالثة : إن صراع الانسان مع القدر أى مع التاريخى الدرامى شىء يصعب تصوره أيضا فى إطار الاسلام (التقليدى) (١) .

وبالنسبة للاسلام فالتاريخ ليس دراميا وإنما دوريا فهناك أولا منذ زمن بعيد عقد الله فيه ميثاقا مع المؤمنين . (ألست بربكم قالوا بلى) .

ويقول هنرى كوربان . إن الفكر التاريخى للاسلام يتحرك حركتين متعادلتين : المبدأ والمعاد) . والمكتوب فى العالم الاسلامى يجب أن نراه من منظار حتمية متفائلة للتاريخ ، كل ما يحدث مكتوب ومقدر ، هذا المكتوب لم يكتب إلا بسبب عادل ، مهما كانت الأحداث تبدو لنا من الوهلة الأولى مخالفة للمصالح العامة ، فإن الفكر الاسلامى لا يشك لحظة واحدة فى تخطيط الله السرى الذى لا يمكن ان يؤدى إلا إلى الخير . ولو بعد زمن طويل ، ويصل الدكتور عزيزه إلى النتيجة . « وهكذا ملأ الفكر التقليدى التاريخ بتفسيرات تعود كلها إلى حتمية متفائلة تركز على انسجام نظام العالم وتجعل الانسان المسلم يتحرك فيه بعيدا عن التناقضات والصراع .

ويرد المسلم مفهوم الصراع على أساس « أن إرادة المسلم جزء من إرادة

---

(١) يكرر الدكتور عزيزه عبارة الاسلام التقليدى ويفصل بينها وبين الفكر الاسلامى الحديث ونحن ندهش لهذا ونرى أن كلمة الاسلام التقليدى انما تعنى (الاسلام العقائدى) الذى ليس هو الواقع التاريخى الممتد الذى اختلف مع أصول الاسلام ودعائمه وهذا الاسلام العقائدى سيظل ثابتا على مدى الدهور .

الله ، لذلك لا يمكن أن يواجهها ، وإلى الاتجاه المطلق من الانسان لمجموعته ، وبالتالى فان الصراعات النفسية والفردية تتجه نحو الذوبان فى بوتقة التصرفات الاجتماعية » وهكذا نصل إلى جوهر القضية كلها وينكشف عمق الخلاف العميق الجذرى بين مفهوم المسلمين ومفهوم الغرب للعلاقات الأربعة بين الانسان والله ، وبينه وبين المجتمع والقدر ، ونفسه .

ولا ريب أن كل ما يتطور إليه الاتجاه الدرامى والماساوى أو التراجيدى الآن إنما يصدر عن هذا المفهوم وقد حاول توفيق الحكيم الذى عمد إلى نقل هذه المفاهيم من الصراع إلى الأدب العربى عن طريق أهل الكهف وشهر زاد وغيرها حاول أن يفهم أخيراً هذا المعنى حين قال :

« وعيب أوربا فى هذا العصر أنها توهمت أن الانسان حر بلا حدود ، ولم تعبأ بالقوى الالهية ، والأدب الأوربى فى هذا العصر لا يريد أن يقف مع الانسان موقفا صريحا صادقا ، فالباس الانسان على هذه الصورة ثوبا مسرحيا من قدرة وحرية لا حد لهما ، ووضع هالة الألوهية هكذا فوق رأسه تبرق باشعتها الصناعية ، كل هذا الخداع شان أى خداع مهما يكن فان له من العواقب ما يهدد بصيرة الانسان » .

وقد أشار بعض الباحثين إلى ما ذكره الناقد التونسى جورج البير آستر فى مقام له عن مسرح توفيق الحكيم : أن « الدراما الحقة والتراجيديا على وجه الخصوص تبدو على جانب من التعارض مع روح العقيدة الاسلامية ، ذلك أنها تقتضى وجود مبدأ يؤدى على نحو من الانحاء ، كما أنها تبتعد عن العقيدة الدينية بعدا ما .

ويؤكد هذا الناقد على أن التراجيديا الحقة لا تزدهر إلا حين توضع المقدسات نفسها موضع الشك »(١) وهذا ما يتعارض مع مفهوم الاسلام فى

---

(١) مجلة الآداب (يوليو ١٩٥٧) .

جلته وما يزال الإنسان الغربي يخوض صراعا مع آلهته ومجتمعه وقدره ونفسه ، لا يتوقف حتى يتحطم ، وما تزال التراجيديا تقوم في أساسها على هذا المفهوم لا ريب ، أما الانسان المسلم فله موقفه من الله (لا من الآلهة لأنه لا يؤمن بآلهة معاً) وموقفه هو موقف الإيمان الكامل والثقة المطلقة بأنها الحق والخير والعمل في نطاق ارادته الخاصة على النحو الذى اعتنقه وهو أنه صاحب رسالة في الحياة من أجل العمران والبناء ومعارض الشر وباذل النفس قائم على التضحية بها في سبيل اعلاء كلمة الله .

ولقد تحاول المسرحية وأصحابها ان تعمل على استكشاف الانسان لنفسه وسط خصم الحياة الهائل ، وهى مغامرة محفوفة بالمخاطر ولن تستطيع أن تصل الى شيء ، لأنها لا تحمل معها إثارة من نور الله الذى أمد به الانسان عن طريق الوحى ورسالات السماء ودينه الحق وكتابه الخاتم .

ولا ريب ان الإنسان الغربي ضال أشد الضلال حين يرى أنه قد إنتزع لنفسه الحرية في أن يريد وأن يصنع دون أن يجهل لارادة علوية الحق في أن تشل يده ثم هو يرى ان ذلك كله زيف وان إختياره محدود ، وان ارادة الله محيطة به ، ويتحقق بذلك ان ما وصل إليه الإنسان المسلم كان خيرا في ذاته ، وكان مصدراً للطمأنينة والسكينة والثقة ، وكان عاملا هاما في الطريق الصحيح

(٣)

ان أخطر ما تمثله التراجيديا أو المساة من مثل هى تقديس الفرد وعبادة الانسان ووضع البطل بازاء الآلهة او القدر ، وهذا مفهوم تجرى المحاولات لفرضه على أفق الفكر الاسلامى والأدب العربى مع التعارض الشديد والاختلاف العميق عن مفهوم الاسلام للايمان بالله والاقتناع بالقدر قوة دافعة .

حيث لا يوجد في مفهوم الاسلام :

(أولا) عقيدة الخطيئة .

(ثانيا) معارضة القدر اوالنظر إليه نظرة عدائية كمصدر لتمزيق الانسان .

(ثالثا) حيث لا تقدس الأشخاص ولا يؤله الأبطال :

لقد حرر الاسلام الروح الانسانية من هذه المفاهيم الوثنية الجاهلية ، بل لقد دحض الاسلام نظرية الخطيئه التي حاولت الأساطير أن تربطها ببعض الأديان أو بعض الأنبياء ، ذلك لأن خطيئة أدم إنما كانت خطيئة ذاتية تتعلق به وحده وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فى افاضة ووضوح وقرر ان آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وأنه لا تزروا وازرة وزر اخرى وأنه لا صلة مطلقا بين خطيئه ادم وبين البشرية وان الفكر الاسلامى لا يؤمن بانسحاق الانسان بل يؤمن بكرامته وسيادته تحت حكم الله ولا يقر مفهوم الصراع الذى ينتهى بضياع البطل .

وقد أشار الدكتور شكرى عياد إلى هذا المعنى حين قال : نرى ان هناك أسبابا أساسيه فى نظرتنا إلى الحياة تجعل شخصية البطل التراجيدى كما يعرفها الأدب التمثيلى الغربى بعيدة عن احساسنا الأصيل بحيث اننا قد نستمتع بمشاهدتها ولكن لا نستطيع ان نخلقها فى أدبنا خلقا » .

ويبدو واضحاً الخطا فى مفهوم العدالة الالهية والظن بانها تمزق البطل الخاطىء .

وكذلك الخطا فى فهم القدر نفسه والقول بانه يتحكم فى البشر والآلهة جميعا أو قولهم ان الناس ليسوا مجرد مجرمين أو خطاه يجب ارسالهم الى الجحيم بل هم صرعى الفكر .

والاسلام واضح فى مواجهة هذه الأخطاء .

أولا : بمفهوم الرحمن الرحيم الذى يشمل الكائنات جميعا ، والذى يغفر الذنوب جميعاً للتائبين ، وباقرار مفهوم الجزاء الذى يقوم على المسئولية التى هى نتيجة أصيلة للارادة الفردية اما غير ذلك مما تتواتره بعض النحل من الغاء

مفهوم العقوبة الدنيوية او الجزاء الأخروى أو اعتباره عقابا معنويا فذلك كله ليس من الاسلام فى شىء .

اذن : فلا الاسلام يقدس الأبطال ويرفعهم إلى مقام الألوهية أو النبوة ولا يقر بان خطيئته اناس مهما كانوا منسحبه على البشر جميعا ، كذلك لا يقر هذا الخطا فى فهم العدل الالهى ، كما لا يقر الصراع بين البشر والآلهة لأنه ينكر وجود الهة (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا).

* * *

الفصل السابع

الانسان والسينما

إن أثر السينما فى الإنسان المعاصر أشد عمقا من أثر المسرح، ذلك أن الحدث فى المسرح يقدم على الكلمة بالدرجة الأولى أما فى السينما فالوسيلة الأساسية للتعبير هى الصورة، والتعبير بالصورة ينقل المشاهد إلى عالم الحياة نفسه: ذلك العالم الآخر، وبهذا تمثل السينما أقوى المراحل فى بناء العالم الآخر وأشدها تأثيراً على النفس الإنسانية وبها أمكن القول بأن حياة جديدة موازية للحياة البشرية الواقعية قد قامت فعلا، يقضى فيها الإنسان المعاصر موقف المشاهد لا موقف المشارك فى محاولة لتجاوز الزمان والمكان واختراق حدودهما وأبعادهما، ولا ريب أن ذلك له أبعد الأثر فى النفس الانسانية من حيث تقبل واعتناق ما يعرض حيث يختار ويقدم ويعرض مايشاء القائمون عليها دون أن يسألنا رأيا مسبقا أو تمهل لنا الخيار أو الاعتراض أو ابداء وجهة النظر أو الحوار.

فالمشاهد رجل صامت ليس له دور فيما يعرض أمامه وليس له رأى أو وجهة نظر، وعليه أن يتقبل كل ما يعرض عليه ؛ فإذا لم يقبله تماماً فانه بالقطع سيكون بالغ الأثر فى أطواء النفس بما يدخل عليها من فكر ومفهوم واتجاه متمثلا فى صورة الواقع والتطبيق بما يهيء النفس الانسانية الراغبة فى تجاوز واقعها أفاقا جديدة ومن هنا خطورة السينما ومدى تأثيرها على الانسان المعاصر من حيث أنها تحاول أن تقنعه بما يختلف مع مفاهيمه وعقائده على نحو محسوس شديد الخطر مخالفة لأثر الكتاب أو الصحيفة، وهو فى نفس الوقت ليس فيه مجال للاخذ والرد والرفض والقبول.

وقد صدق أحمد الباحثين حين قال : ان السينما حينما تجعلنا نرى عملية اختراق الإنسان العالم ، فانها تجعلنا ايضا نحس ونرى عملية اختراق العالم للانسان » .

ولما كانت السينما أداة نفسية بالدرجة الأولى علمنا إلى أي حد يكون أثر مايعرض فيها على الإنسان فهى قادرة على أن تجتاح كل قيمه التى تعلمها وقرأها وأمن بها ، بذلك الطراز البديل من الفكر والنظرة ووجهه النظر المغايرة .

ولما كانت السينما فى أساسها منشاة اقتصادية لها قوانينها واحكامها ، ولما كانت هناك قوى خطيرة تسيطر عليها وتوجهها عرفنا إلى أى مدى يكون أثرها على الإنسان المعاصر وعلى المجتمعات وعلى الأطفال والشباب والفتيات .

فالجمهور خاضع خضوعا تاما للسينما ، يسمع ولا يتكلم ولا ينافس ، والسينما وهى وسيله اقتصاديه تريد ان تقدم ما يربح وما يروج وهى تجد ذلك أساسا فى نوعين من القصة : الجريمة والجنس وفى محاولة إعطاء الإنسان المعاصر مايريد من حيث اللذة والمتعة والاهواء والرغبات فهى تقيم له عالما منهوكا محطما ، هو عالم غير موجود حقيقة ، ولا يمكن ان يكون موجودا فى الطبيعة .

ومن هنا يتشكل ذلك الأثر الخطير الذى يغمر النفس البشرية بتقبل فكر وطابع خياة جماعة من الاباحيين الذين يتصورون الحياه كلها سوقا للرقيق ومباءة للدعارة وقد توصف هذه الأفلام بانها ترفيهية ، وقد تعالج قضايا اجتماعية خطيرة فيما يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة والرجل والخليلة والزوجة وصديق العائلة على نحو مغاير للحياة نفسها وتقدم من خلال ذلك مبادىء جديدة ومصطلحات وشعارات لا تلبث أن تستشرى فى المجتمع الواقعى فتؤثر فيه أخطر الآثار .

ولا ريب ان السينما تستغل لحساب الدعوات والمذاهب الاجتماعيه والسياسية ولكنها تستغل أيضاً لهدف أبعد من ذلك هو تطوير المجتمعات لتكون مهيئة لتحقيق المخططات التلموديه الصهيونية التى حوتها بروتوكولات صهيون .

يقول جاستون راجو من كبار الباحثين فى أثر السينما فى المجتمعات المعاصرة: لقد أصبح الإنسان تحت رحمة مخترعاته بل عبداً لها ، لتنظر إلى التغيير المدهش الذى طرأ على وجود الإنسان وما صحب ذلك من آثار فى النفس والعقل .

ذلك ان الآلة تحول عقل الإنسان إلى آلة مثلها ، وفى السينما تحدق ببصرك وأنت غارق فى مقعدك حيث يهبط نشاطك العقلى إلى أدنى درجاته (ذلك لأنك لا تكلف نفسك الا استعمال واحدة من حواسك (وهذه أخطر حالات اليقظة) وليس هناك ما يدعو إلى شىء من التفكير لأن كل شىء مرئى . ولأمر ما ان هذا النوع من اللهو ، له تأثيره العميق ليس فى أذواقنا وعاداتنا فحسب ، بل فى مجموع نشاطنا العقلى والفنى وفى احلامنا كذلك » .

ونحن حين ننظر فلا نجد إلا تلك الصور التى تحملها أفلام الجنس الرخيصة أو أفلام الحب المريض أو أفلام المغامرات والرعب ، نرى ان الحياة لم تعد إلا ذلك ، ولا ريب ان كل هذه الكلمات والصور تترسب قليلا قليلا فى كياننا وذاتنا وواعيتنا الخفية ويكون لها بعد ذلك أبعد الأثر فى توجيه سلوكنا واخلاقنا وحياتنا .

ولقد ظهرت اثار ذلك واضحه فى العالم الغربى وكشفت الأبحاث عن اثار بعيدة المدى ، ذلك ان السينما وهى وسيلة صالحه للتربية والتعليم والتوجيه لم تستعمل كذلك وإنما وجهت إلى فرض أسلوب غريب من أساليب الفكر والحياة .

وبذلك أحدثت إثاراً سيئة بعيدة المدى ، ذلك ان الفيلم يبرز السلوك الانحرافى ويؤدى إلى الاضطراب فى القيمة الأخلاقية بل ان البعض يذهب إلى ان السينما نفسها ذات أثر مباشر الانحراف عن طريق التقليد والها كاة الافلام البوليسية والمغامرات التى تمجد الجريمة ومخالفة القانون .

وقد جرت مناقشات عديدة فى الصحف الأمريكية حول التقرير العلمى(١) الذى وضعته لجنة من كبار علماء النفس والاجتماع وتعرضت فيه بالدراسه لتاثير أفلام الجنس المثير على نفسية المراهقين والأطفال بل تاثيرها على نفسيه البالغين والشباب والكهول (وقد استغرق اعداد هذا التقرير ثلاثة شهور وبلغت تكاليفه مليون دولار) وقد هاجم العلماء بشدة أفلام الجنس والرعب واعلنوا ان انتشار افلام الجنس الفاضح والقسوة والرعب يهدد سلام النفس البشرية بل المجتمعات الحديثة .

وهم يحذرون بشدة من تاثير هذه الأفلام سواء كانت معروضة على شاشة السينما او مقدمة على شاشة التلفزيون الصغيرة ومما يذكر ان القاضى تريفليان قد ترك منصبه كرتيس لمجلس رقابة الأفلام فى لندن . واعلن أن افلام الرعب اخطر على المجتمع البريطانى من افلام الحب الفاضح والجنس المثير .

ومما يذكر ان عالم الغرب يجتاحه موجه خطيرة من افلام العنف والجنس ، وان هناك دور خاصه لعرض نماذج خطيرة جدا منها وان دولا كثيرة رأت مدى امر هذا الخطر فعملت على مصادرة هذه الأفلام ويمارس بعض اساتذة الجامعات والهيئات الدينية مهمه الضغط الأدبى والأخلاق ضد هذه الأفلام حفاظا على القيم الفكرية الروحيه .

غير ان اصحاب المطامع يدفعون هذا التيار إلى نهايته ويقفون وراء التبشير بضرر منعه باساليب مضللة كاذبة كقولهم ان اباحة الأفلام الجنسيه إلى حد كبير يجعل الناس يتقززون منها ويكرهونها .

ولا ريب ان الباحثين الاجتماعين والنفسيين قد اكدوا بان هذه الأفلام

---

(١) جريدة الاخبار ١٩٧٢/٣/١٠

حين تقدم نماذج جاهزة من السلوك المنحرف إنما تعزل قطاعات واسعة من الشباب والمراهقين ليكون سببا فى زيادة السلوك المخالف للقيم التى استقر عليها المجتمع .

أما فى العالم الإسلامى المستورد لمثل هذه الأفلام كأسواق للاستهلاك ، فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدقة والحذر .

والفكر الإسلامى له منهجه وأسلوبه فى معالجة القضايا الإجتماعية والنفسية وهو لا يقر هذا الأسلوب الغربى فى أن ذكر المسائل وتبريرها هو وجه من وجوه حلها ولكنه يعمد أساسا إلى الإنسانية فيدفعها إلى أصالتها ومقوماتها الأساسية ويرفع أمامها الضوابط والحدود والمسئولية الفردية والجزاء ، ولما كان المجتمع الإسلامى بطبيعة : مجتمع حياء وخلق ، فإن هذه الموجة التى تحاول أن تسيطر عليه من عرى وكشف وإباحة والكشف عما يدور فى غرف النوم ، كل ذلك إنما وجد ذاتيا فى غفلة من إرادة الممارسة الحقيقة للأسلوب الإسلامى الحقيقى ولاريب أن الفكر الإسلامى يحمى المجتمع الإسلامى من عرض الشهوات والآثام ويقاوم كل الوسائل المؤدية إلى كشفها أو إعلانها أو تبريرها ، إيمانا منه بأن هذا العرض الذى تقدمه السينما إنما يثير الرغبات إلى إجراء التجربة والتطبيق مما يكون بعيد الأثر فى نفوس الشباب فى خلق جو الصراع أو الشعور الغامض بالانفعال .

ولا ريب أن الآثار الخطيرة التى ترتبت على هذا الأسلوب الغربى قد كشفت عن فساد هذا الأسلوب وأن المجتمع الغربى — وخاصة الأمريكى — الذى قدم للعالم أفلام الجنس « هو الذى كان أول من أشتوى من نارها لقد أخذت تنحدر فيه الأزمات الخلقية تتوسطها الإباحية الجنسية وفقدان القيم الإنسانية بممارسة الهروب من الحياة وإدمان المخدرات وخاصة عقار الهلوسة والتشبه بالحيوان فى الإباحة الجنسية والذهاب فى الضراوة والوحشية إلى ارتكاب أبشع جرائم القتل » .

ولكن الغرب يتحرك الآن في هذا الاتجاه تحت تأثير ضاغط عنيف تفرضه القوى التلمودية الصهيونية ، من ناحية الفلسفة والفكر والمذاهب التي تبرره وتدافع عنه يوما بعد يوم وتهاجم كل من يحاول معارضته وتنفى دعايه ، كما أنها هي صاحبة النفوذ الأساسي في مؤسسات السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون ماليا وعمليا . ومن هنا كان الغرب لا ينفلت ساقطا بين براثن هذا الخطر حتى يهلك ، أما في عالم الاسلام فان له من قيمه ومفاهيمه ومذاهبه ما يدفع عنه هذه الموجة الخطيرة ويمكنه من التحرر منها بعد أن ثبت فشل فلسفات الاباحية والعرى في بلادها ، وبعد أن وصلت اليه أنباء النتائج الخطيرة لجمعيات الرعب والتحلل في أمريكا وشمال أوربا وغيرها .

* * *

الفصل الثامن

الانسان والفن

قدم الاسلام للفن مفهوما موازيا للفطرة الانسانية متلاقيا مع مختلف القيم التي يرتبط بها الانسان على النحو الذي يجعله متصلا بها وفق أسلوب دقيق من التوازن بحيث لا تطغى فيه الروح على المادة أو تستعلى ، رغائب الجسم على أشواق الروح. وقد عارض الانسان المسلم مفهوم المحاكاة وتجميل الطبيعة على النحو الذي عرفته المذاهب البشرية الوثنية واعتبر الفن متفاعلا مع الحياة لا متقابلا معها ، وعبر الفنان المسلم عن إحساسه بالطبيعة دون أن يحاول نقلها أو محاكاتها وفق أسلوب التجريد وقد جرى على قاعدة تحرير الأشكال الأدبية والحيوانية تجنبا لتقليدها تقليدا مباشرا يمثل صورتها الطبيعية وبذلك خلا الفن الاسلامي من الرمز ومن الميتافيزيقا .

كذلك حرص الفن الإسلامي على التحرر من الوثنية في حركتها الواسعة متجاوزا ما يخدش الكرامة أو يعارض الأخلاق ، أو يكون عاملا لاثارة الشهوة أو الجنس ، في اطار ما أحاط الاسلام القيم المختلفة به من ضوابط وحدود وهو كما وصفه الباحثون (فن لا يصور اللحظة الجنسية الثائرة الفائرة التي تسلب الانسان انسانيته وقيمه) ، فالفنان يعبر عن الحب في اطاره الواسع ولكنه لا يثير الطاقة الغريزية الكامنة في طواياها الانسانية .

ومن هنا كان موقف الاسلام من مفهوم الفن الغربي الوافد الذي يركز على الجوانب الاباحية والوثنية من الحياة سواء في مجال النحت أو الغناء أو الموسيقى والشعر أو القصة مستهدفا اشعال الغرائز الجنسية ، وابتكار الألحان المثيرة والرقصات الخليعة وكتابة القصة المكشوفة واتخاذ الفنون

والآداب مطية لهو واللذة حيث يفهم الإسلام مهمة الأدب والفن ، فهما متميزا ، يرمى إلى السمو إلى آفاق النفس واسعاد الإنسان بتحريره من اهوائه وغرائزه .

ولقد وضع الإسلام « البيان » على رأس قائمة الفنون : وكشف عن أنها أداة الفن الأصيلة النفس البشرية ، وللنفس المسلمة (ن والقلم وما يسطرون) وكانت معجزة الإسلام هي القرآن وهي معجزة بيان وقلم والتماع بالتعبير والمضمون .

وأبدل الإسلام الرسم من محاكاة الطبيعة إلى خدمة الأدب والتعبير عن المعاني فاوجد أنواعا جديدة من الخطوط ودفع الفنان المسلم إلى أساليب جديدة من فن التعبير ، والفنان المسلم يعلم حق العلم ان الفن ليس تقليداً للطبيعة كما زعم ارسطو ولا هو تسلية ولهو محض ، ولكنه جزء من رسالة الإيمان بالله .

ولما كان الفن في مفهوم الإسلام ليس تمثلا للواقع ولا تقليداً للطبيعة فقد كان خلقا لعلامات جديدة من عناصر مستمدة من الحياة والمجتمع والطبيعة ؛ تتشكل في رؤية إنسانية أو مضمونا اجتماعيا .

وقد تمثل في الفن مفهوم الإسلام للحياة : فهي حياة لها غاية واضحة للانسان فيها رسالة ومسئولية وجزاء ، هذه الرسالة « تمنع الإنسان من أن يعيش حيثما اتفق ، بل ليعيش كما يجب » .

كما تمثلت طبيعة المثل الأعلى المنبثق من الواقع دون ان تتخذ موقفا سلبيا وهذه النظرة السوية المتكاملة للفن في إطار الإسلام ، تتعارض تماما مع مفهوم الفن الحديث في إطار الحضارة الغربية وهو فن جاء وليد أزمة الإنسان أمام تحديات الحياة والحضارة (١) على النحو الذي عرفته من احتقار الطبيعة ومناهضة العلم والقانون وهدم الآثار القديمة والتحف الثمينة وحيث انهدمت الحدود بين الأشكال والقيم على النحو الذي قدمه جوجان وبيكاسو .

---

(١) دكتور عفيف بهنسي .

ولقد اشار الباحثون إلى اثر التحديات التى تواجه الفن المعاصر فى أفق الغرب وكيف كان العوامل القلق والتمزق أثرها فى ذلك التعبير النزق السريع غير الواضح أو المفهوم . القائم على التداعى المطلق والمفوية بما يتعارض مع مفهوم الفن الأصيل : الذى يرتفع بمستوى الانســان من الناحية الوجدانية والروحية .



ويتمثل مفهوم الفن الجميل الاسلامى فى مضمون نفسى واضح هو :

« كل شيء هالك إلا وجهه »

هذا هو السر النفسانى الذى تقوم عليه الزخرفة الاسلامية المعروفة باسم (الأرابسك) » ذلك لأن المسلمين جميعاً يعتقدون بأن البقاء لله وحده وان العالم بما فيه ومن فيه صائر إلى الزوال ، وقد انعكست هذه العقيدة فى فنوم الجميل باوضح صورة ، إذ كان الفنان المسلم يرى أنه ليس من اللائق ان يخلد بفنه شيئاً فى هذا العالم الذى كتب الله عليه الفناء فليست به حاجة إلى تخليد جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلا صحيحاً مادامت صائرة إلى الزوال ، لذلك كان ياخذ من عناصر الطبيعة ما يريد ثم يهذب منها باشارات له ميوله ومواهبه ثم يكون من هـــذه العناصر المهذبة زخرفه لا تمت إلى الطبيعة بصلة قوامها اغصان نباتيه متشابكة يتفرع بعضها من بعض وأوراق شجرة مختلفه يخرج بعضها من بعض .

وذلك وفق عقيدة مؤداها ان الثبات وعدم التغير من صفات الحق وحده دون مخلوقاته التى من شانها التغير » وقد اتجه الفنان المسلم إلى الزخرفة الهندسية فبعث فيها روحا بدت فى ثوب من الجمال اشبت لم يكن لها قبل الإسلام ، وابتــكر وطرائق جديدة أرضى بها الفن الجميل ووقف بها عند حدود الدين .

(1) من بحث للفنان المسلم محمد عبد العزيز رزوق الهلال م ٤٩ .

وأشار الباحثون الغربيون امثال (جون سكويت) وغيره إلى ان الفن الاسلامى الذى جاء على أثر الفن الاغريقى والفن الساسانى ، عنى بالدرجة الأولى بالأشكال المسطحة المزخرفة ولم يعن بالنحت المجسم وهذا هو الفارق العميق بينه وبين الفنون الوثنيه فهو يصور الأشكال والنباتات والأشكال الهندسيه المعقدة المتداخلة التى تعرف بالارابيسك أكثر مما يعنى بالتصاوير الصورية ، كما أشار المؤرخون والباحثون فى تاريخ الفن الغربى إلى ما كان للاسلام من أثر فى قضية تحطيم الصور والايقونات فى الكنائس ، كما أشاروا إلى زحف الفن الاسلامى إلى أوربا وإلى أثر الفن الاسلامى فى كنيسة قصر روجر الثانى فى صقليه وفى قبة كنيسه مونتى سانت انجيلو الايطالية ولا سيما فى الجسور التى يرتكز عليها الفن ، وفى زخرفة كنيسه سان ليوناردى دى سيبوتنو ، فضلا عن أثر الخط الكوفى فى تزيين المخطوطات الفرنسية وفى صناعة الميناء ، أما فن العماره فان أعظم مكان يظهر فيه أثر الفن الاسلامى هو كنيسة القديس ميخائيل داغوتى فى مدينه لوبوى .

ويرى الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق : ان المسلمون غزو بالتصوير جميع فروع الفن الاسلامى من مخطوطات واخشاب وعماره وزجاج ومعادن وعاج وزخرف ومنسوجات وانهم اقاموا فن « تشريف الخط » القائم على الزخارف النباتية والهندسيه فقد خلق الفنان المسلم من الحروف العربية ذات الأشكال النباتية والأوضاع المختلفه طرازا زخرفياً تبدو فيه صور الجمال والقوة » .

* * *

ويرد الباحثون (اسلاميه الفن) العربى إلى عمق الخصائص التى تمثلت فى هذه الأمة العريقه منذ اكثر من ثلاثة الاف سنه بين رسالة ابراهيم الحنيفية ورسالة محمد الخاتمة ومن خلال القيم والمفاهيم التى قامت على أساس التوحيد فى هذه المنطقه والذى خلق هذا المزاج النفسى الذى يقوم على الإيمان بالله والنظر فى الكون والتماس الفكر والعبرة لعظمه الخالق من خلال التامل فى خلق السموات والأرض والجبال والأزهار والثمار والأنهار كل هذا شكل طابعا إسلامياً مفرداً فى الفن العربى عرف بعد الاسلام .

ويقول دكتور بشير فارس أن أبرز مفاهيم الرقش العربي (الأرابسك) أنها انعتقت من الواقعية المادية وخلصت من الصلابة الفارسية فلا مبتدأ لها ولا منتهى وما يجوز لها أن تطمع في أحد منها لأنها تسمو وراء الله : الله الذي هو الأول والآخر ، منه تبدأ الأسباب وإليه ينتهي الحساب وكذلك فإن الرقش (الإسلامي) يمتد بلا نهاية ساعيا وراء الصورة المثلى مؤكدا على بساطة الوجود داعيا بإلحاح إلى الله .

وأشار بشير فارس إلى طابع (التسامي) في الفن الإسلامي وهو الذي يعني إرتباط الإنسان بقيم مطلقة وأبدية حيث أن الله (سبحانه) هو المثل الأعلى لمفاهيم الخير والحق والجمال وإليه اتجهت قلوب المؤمنين لترتفع إلى مستوى هذا المثل الأعلى عن طريق العمل الصالح .

ويشير بشير فارس إلى ما ذكره ليبون وبرجسون ، وجيب ، وماركو إلى أن الفن العربي يحمل شخصية مستقلة متماسكة جديرة بالإعجاب .

ويرد ذلك التميز إلى الإسلام ، « فالدين الإسلامي جاء على مبدأ التوحيد ولذلك فهو يرفض كل شريك لله في قدرته الخالقة وأن الدين الاسلامي الذي يؤكد دائما على الفرق بين الخالق والمخلوق ، وعلى أن المخلوق هو عبد غير قادر على الوصول إلى مرتبة الخالق . »

(٢)

إن الإنسان المسلم حين يقف على مفهوم الفن في الإسلام يجد عالما واضحا صريحا ، قائما على أفراد الله بالوحدانية ، وأنكار تعدد العوالم ، وأنكار قدرة الانسان على أن يخلق عالما مماثلا أو عالما أكثر جمالا كما يخيل للنزعة الوثنية التي تقوم على معارضة الطبيعة أو الخلق بالتقليد .

ولقد قرر الاسلام وأكد التحريم القاطع للنقل المباشر عن الطبيعة ، وذلك النقل الفج الذي يعيد نسخ المخلوقات الحية على سطوح الجدران والمعابد واللوحات » كذلك رفض الاسلام نظرية المحاكاة أو التقليد ، « وقد جاء هذا التحريم لنقل صور الخلائق والوثنيات نقلا مباشرا ساذجا من الطبيعة إلى عالم الفن دون أي قدر من التجريد أو إعادة الصياغة ، في أمة على أعتاب عصر

حضارى — كان يعنى أن المسلم سيفتح ابوابا وابوابا للتعبير عن طاقاته الفنية بما ينسجم وتصوره الجديد . »

ولقد رفض الفن الاسلامى النقل المباشر من الطبيعة وفتح الطريق امام التجريد وإعادة الصياغة .

« والفنان المسلم يحمل موقفا عادلا ومزدوجا تجاه قضية الفن والطبيعة ، يحمل رفضا للنزعة الشيئية المباشرة التى عبرت عن نفسها بالمذاهب الواقعية والطبيعية لأنها تقوده إلى التقليد والنسخ وتقضى على الابداع والابتكار ولأنها تخضع عنق الانسان لقوى الأرض وطينها وتمنعه من التطلع إلى السماء إلى الآفاق البعيدة ، إلى ما وراء الملموس والمنظور ، لأنها تحيله إلى إلة رصد وتسجيل وتصده عن تفجير إرادته وإبداعه لصياغة مادة الأرض وفق ما يطمح.

« كما أن هذه النزعة تقوده بالضرورة إلى الاذعان لفكرة أن التخبط فى الوحل والتمرغ فى القمامة والركض وراء نداءات الجنس والطعام هى القضايا الأساسية وربما الوحيدة التى يجب أن يدلى الفن بدلوه فيها »(١)

* * *

ولقد حذر الفنان المسلم دائما من فكرة مسيطرة فى الفن الغربى : وعمل دائما على أن يتحاشى خطر الاتجاه إلى « منافسة خالق الله أو السعى إلى ما يسمونه إكمال النقائص التى لم تكملها الآلهة ، كما توهم بعض الغربيين ومن هنا فقد ارتفعت الأصوات الاسلامية دائما بتنبيه الفنان المسلم إلى ان يحذر ان يتجاوز طريقه المستقيم فى محاولة لرفض الطبيعة ، او عدائها ، او محاولة التفوق عليها وعلى شانئها او سواء إعجاب بها يتجاوز لحظات الاستغراق والتامل إلى الاجلال والتقديس والعبادة (١)

وهنا تبدو تلك المحاذير الخطيرة التى وقع ويقع فيها اصحاب التبعيه الغربية فى افق الفن الاسلامى حين يظنون ان ذلك حقهم فى التجاوز جريا وراء وثنية الفنان الغربى ، إلى نزعة التغلب على الطبيعة او ما يسمونه التفوق عليها

---

(١) من بحث ممتع للدكتور عماد الدين خليل

أو قهرها أو حتى عبادتها بالاعجاب الوثنى ، ذلك انه ليس ثمة عجز يمكن أن يكمله الإنسان المخلوق لله خالق الطبيعة ، فضلا عن أنه ليس هناك صراع أو كراهية أو حقد بين الإنسان والطبيعة ، بل تجاوب وطمأنينة إلى خالق الله الذى سخره للانسان .

ان هذا الفهم الخاطىء الذى يقول بان الطبيعة عجزت وان الإنسان أكمل ما عجزت عنه ، ليس من مفهوم الفكر الإسلامى « إذ ليس فى تصور المسلم نمط نمائى تقوم به الطبيعة فى ذاتها ولذاتها كما يقولون ، إذ ليست الطبيعة بكل أشكالها سوى صور من خلق الله وقدرته الفذة المعجزة ومن ثم فان القول بان الطبيعة قد عجزت من الكمال قد توحى بان الطبيعة مستقلة بذاتها عن أى توجيه خلاق خارج نطاق العالم ، أوان الانسان قد يتفوق أحيانا على الآلهة التى خلقت طبيعة ناقصة لم تستطع إتمامها فجاء الإنسان لكى يتمها » .

تلك هى المحاذير التى يدركها المفهوم الإسلامى للفن فيرفض عبارة أرسطو الوثنية المضللة « ان من شان الفن أن يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه » ويؤمن بان صانع الطبيعة جل وعلا سبحانه عن أن تطرف عين خلق ولو بمجرد لمحه من تفاوت بل يرتد البصر خاسئا وهو حسير .

(٣)

وفى فن النحت يكون موقف الإسلام واضحا صريحا إلى جانب التوحيد ، ومن ثم فان نظرية الخلود التى يفترضها الفن الغربى لا تجد فى تقدير المسلم ذرة من إيمان أو يقين .

وكيف تخلد اعمال الفنان فى عالم فان تزول فيه الإنسان والأشياء وكيف يمكن انمثال يبقى ألف عام أن يزاحم عوالم الله التى امتدت بملايين السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد كان دائماً الاسلام مفهومة الواضح في معارضة تجسيد البطولة ، والمسلمون لا يؤمنون بتقديس المادة ولا بتحويل مفهوم العمل إلى حجر منحوت وإنما يخلد المسلمون الفكرة .

ويبقى الفكر الإسلامي فطرته وجوهرة وذاته ومزاجه إذا أقر فكرة الاحجار في تقدير البطولة فبطولة الإسلام بطولة فكر وليست بطولة تماثيل .

ولذلك يخطئ كثير من باحثينا عندما ينساقون وراء مفهوم البطولة على النحو المادي الغربي وإنما يلتمس المسلمون من التخليد مفهوم الفكر وقيمة العمل نفسه فالبطولة قيمة من القيم الفكرية والنفسية والروحية .

وبذلك يحرر الإسلام فكره ومجتمعه من أسلوب الوثنية حين رفع الاغريق ابطالهم إلى مجال التالية وإلى مصاف الالهة وانصاف الآلهة .

(٤)

يقف الإسلام موقفاً واضحاً إزاء علاقة الفن بالأخلاق والجمال على نحو حاسم ، فالأخلاقية قبل الجمالية ، ويصدر الإسلام في هذا الموقف من أساس طبيعي هو مبدأ الالتزام الأخلاقي الذي يفرض طابعه على كل مقررات الفكر والحياة فضلا عن مفهوم التكامل الجامع بين القيم الذي يحول دون ان تطغى قيمة من القيم او تستعلى على نحو ما .

أما في الفكر الغربي حيث يقوم طابع الانشطارية وانعزال القيم بعضها عن بعض فقد استغلت الدعوة إلى تحرير الفن من القيم الأخلاقية وسيطرة مفهوم الجمال المجرد وهو ما يفتح الطريق واسعا أمام اطلاق الجوانب الاباحية والشهوانية إلى أبعد مدى .

والجمال في الفن الإسلامي ليس جمالا ماديا ولكنه جمال متكامل : يرتبط فيه الظاهر بالمضمون وليس مرتبطاً لذاته بالغريزة الجنسية أو بالتحليل أو الرذيلة ولا ريب ان الفن الغربي انطلاقا من نظرته المادية الصرفة ، ومفهومه القائم على ان القيم منفصلة ، وان الحياة لا هدف لها وليس فيها مسئولية فردية أو جزاء

الجروى من شانها ان تنطلق إلى غير غاية ، حيث لا يوجد المثل الأعلى الواضح أو القيمة الأساسية الثابته العليا التى ترد إليها الأمور كلها .

ولما كان مفهوم الأخلاق فى الفكر الغربى هو مفهوم نسبى فإنه لا يعرف الأصول الثابتة ، وإنما يجرى مجرى الظواهر المتغيرة وبذلك فإنه لا يستطيع أن يواجه الفن باحكام مقررة .

ولقد ثبت ان الفن الذى غايته الفن ، إنما يرمى إلى تمجيد الجسد وتعظيم الأهواء ، أما الإسلام فهو يؤمن بحركة الفن داخل اطار القيم الجامع ، ودون ان تؤدى حركته إلى مصادمة القيم الأخلاقية الثابتة .

ومن الحق ان يقال ان شعوبا احتاحتها الرياح السود ففقدت ذاتها لأنها اطلقت الفن من قيد الأخلاق وفى مقدمة ذلك الأمة اليونانية فإنها عند مافصلت الفن عن الدين والأخلاق تسرب إليها الانحطاط ودبت فى جسمها عوامل الفناء .

ولقد ذهب الفلاسفة فى دراسة علم الجمال فى الغرب مذاهب شىء ، كل منها يتصل بمنهج من مناهج الفكر ، سواء اكان مثاليا أم ماديا او نفسيا ام اجتماعياً .

ومضى كل باحث فى طريقه ، ووقف الفكر الإسلامى حين طرحت فى أفقه هذه المفاهيم موقفا مضطربا ، ذلك أن القاعدة التى تقوم عليها الفكر الغربى فى فهم الجمال هى قاعدة مادية صرفه ، وهى تقوم على الذوق والأدراك الحسى ،

ومن هنا فلا سبيل لاعتناق رأى فيها ، وإنما يجب نقل القضيه كلها إلى افق الاسلام نفسه والتماس مفهوم أصيل يقوم على أساس طابع أمه ومزاجها وذوقها وعقيدتها .

والنظرة إلى الجمال فى اطار الاسلام تقوم على أساس التوحيد وعلى أساس

المفهوم الجامع للجمال حسيا وماديا وعلى جمال الطبيعة والإنسان ، وعلى رد الجمال إلى صانعه الأكبر وعلى الحكمة الأساسية فيه .

والجمال أداة من أدوات المعرفة والايمان فإنه يكشف للانسان عظمة الخالق؛ والجمال فى المفهوم الاسلامى هو جمال المضمون لا المظهر ، والفن هو المصدر الأكبر للتسامى والاعلاء فى مجال الغرائز والرغبات وليس هو الحرص على الاباحة والأهواء .

والمسلمون يرون أنه ليست هناك قضية اخضاع الفن للاخلاق (واخضاع الأخلاق للفن) وإنما هى قضية تحرك شامل متوازن فى اطار التوحيد .

« والتصور الاسلامى للفن يبدأ من الله إلى الوجود فى كل صوره واشكاله وكائناته وموجوداته ويعنى عناية خاصة بالانسان خليفة الله فى الأرض ثم يعود إلى الحقيقة الالهية التى صدر عنها فيكون تصوراً سليما كاملا شاملا ، فى خضوع لله وتقوى ومراقبة لله وفيه حبة والتطلع إليه والاطمئنان إلى قدره على حين تحث اوربا على الموروث الاغريقى الذى يصور الآلهة فى صراع مع البشر أو صراع فيما بينها ، والإنسان فى صراع مع الكون جماده ونباته وحيوانه بينما صلة الانسان المسلم بالكائنات صلة القربى والمودة والتعاطف . والتعاون فى ناموس الله الأكبر . فالانسان قبضة من طين ونفخة من روح الله غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر فى أية لحظة من اللحظات لا هو حيوان الدارونية ولا هو ملاك الهندوكية والبوذية(١) » .

ولقد يتصور الفكر الغربى تنافراً بين الفن والفطرة أو بين الفن والدين ؟

(١) من كتاب الفن الاسلامى .

يقرر الاسلام استحالة التناقض « فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة :

دين الاسلام فى شىء فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها وعاقت الانسان ان يعمل بالفضائل التى جاء الاسلام بإيجابها على الانسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا او فى شىء غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق » (١) .

---

(١) من بحث للدكتور محمد احمد الغمراوى

الباب الرابع

الانسان

وعلم الانسان

أولا : بناء الانسان

ثانيا : الى اى مدى تصدق النظريات المطروحة فى مجال الاجتماع والنفس والاخلاق

الفصـــل الأول

بناء الانسان

منذ أن انطلق العقل البشرى فى العصر الحديث للبحث فى مجالات العلوم والمجتمعات والحضارة والطبيعة والحيوان لم يتوقف ساعة أمام الإنسان لدراسته بينما هو أعظم الكائنات والمؤهل منذ وجوده لكى تكون منجزات العلوم والحضارات فى خدمته والذى سخرت له كل القوى الكونية والطبيعية لتحقيق رسالته فى الأرض .

ولقد ذهبت دراسات العلوم إلى كل مجال وتغلغلت فى كل بحث ولكنها وقفت امام الإنسان دون أن تفهمه ، لقد عجز الإنسان أن يفهم نفسه وحاول أن يفهم الحياة والكون والعلوم ثم عاد فى السنوات الأخيرة ليفتح صفحة من صفحات البحث أسماها علم الإنسان وأجرى دراسات حول النفس والأخلاق والاجتماع وجرى شوطا وراء دراسات العنصرية ، والأجناس البشرية وهو فى كل ذلك يلتمس طريقا عسيراً ومنهجا شاقا ، فلا يواجه الإنسان مواجهة صريحة ، ولكنه يعود ليلتمسه من خلال الأحافير الحيوانية المتحجرة ، والمجتمعات البدائية المطمورة ، والديانات الفتشية والطوطمية والشامانية والتابو ومن خلال تراث قديم بائد يتمثل فى الفراعنة والفينيقين والأشوريين والبابلين ومن خلال لغات توارت واندثرت كالإرامية والكلدانية والاشورية .

ثم يذهب هؤلاء الباحثون للبحث عن الإنسان فى الكهوف والصخور ويحاولون من هذه الملاحظات التى تتجمع لهم أن يدرسوا الإنسان ، ليصلوا

إلى فروض ونظريات يقيمون بها مكتشفات تصل إلى كنة الإنسان بينما الإنسان نفسه قائم وحي ومتحرك في المجتمعات الحديثة وما تزال طبائعه وأخلاقه وقامته وشكله وحركته وكلامه لم تتغير منذ خلقه الله ولم تتطور — إلا من حيث المضمون الذي تغير مع ارتقاء البشرية وتحضرها ، أما من حيث الطابع والشكل والصورة فما زال الإنسان هو الإنسان . (سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا)
ولو أردنا أن نصل إلى دراسة صادقة للانسان فان ما يقدمه لنا القرآن الكريم في هذا يكشف التطابق العجيب بين الصورة التي رسمها الإسلام للانسان منذ أربعة عشر قرنا وبين صورته الحالية ، حركة وتصرفا وخلقا ومواجهة للاحداث وفطرة وهي تكشف عنه فرديا واجتماعيا ومؤمنا وضالا وطامحا وأنانيا ومنفقا وبخيلا .

وهذه هي دراسة الإنسان التي تصدق مع كل المقررات العلمية ، وتصدق مع كل العصور ، وهي الحقائق الثابتة التي لا تختلف .

أما أساليب علم الأنثروبولوجيا فانها لن تستطيع أن تصل إلى شيء ، إلا ما هو مقرر أساسا في عقول باحثيها ، وما افترضوه قبل البحث ، وما ذهبوا للحصول على أدلة عنه إلى تلك المفاوز والكهوف جريا وراء صورة الإنسان البدائي منذ عشرة آلاف سنة ولا ريب أن المحاولات التي تصل الآن بالإنسان : تاريخه وأديانه ونفسيته وأخلاقه إنما تستهدف أحياء التراث الوثني القديم كله وتعيد صياغته من جديد من أجل أن تصل إلى إبراز مفاهيم التلمود وقيم التوراة التي كتبها عزرا إبان السبي البابلي والتي استوعبت تراث أشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة ، مما تحفل به إسفار العهد القديم ، وقد كشفت كل الدراسات الأصلية عن أن الأصول العامة لعلوم النفس والأخلاق والاجتماع والأنثروبولوجيا ومقارنات الأديان والعنصرية كلها تستمد أصولها من هذا التراث اليهودي التلمودي الصهيوني الطامح إلى أن يتجدد في مزاحمة الفكر الرباني الذي جاءت به رسالات السماء وخاتمها الإسلام.

ويختلف الإتجاه فى كلا المنهجين : منهج القرآن الإسلامى فى علم الإنسان ومنهج العلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا فالأول يستهدف بناء الإنسان بالكشف له عن حقيقة جوهره وأبعاده وقواه ورسالته وتحريره من أهوائه وتحدياته حتى يكون صالحا للمهمة الموكولة إليه .

أما منهج العلوم الإجتماعية والتحليل النفسى والانثروبولوجيا فهو يستهدف تضليل الإنسان عن حقيقة ، ودفعه إلى الطريق الذى ينتهى به إلى الانحلال والتحطم . وحين يضع له الإسلام (أو الدين الحق بصفة عامة) الضوابط والحدود ويدفعه إلى التماسها بالترغيب والترهيب يفتح المنهج الغربى أمام الإنسان الطريق إلى تحطيم كل الحواجز ، ومعارضة كل الضوابط ، والسخرية بالمحرمات ، ويقول له بلسان الوجودية : أفعل كل شىء ، أفعلوا ولو أدى إلى الخطاء الزواج نظام عتيق ، حطموا قوامة الرجل ، اسقطوا الدين كلية من حساب الحياة . لا تتساقوا وراء أحلام البراءة والبكارة والطهارة ، لتحيا حرية الصداقة ، لا تتقيد بشخص مهما كان عزيزاً ، لا تتقيد بوطن ، لا تتقيد بفضيلة ، وكن طليقا من كل قيد ، لا وصاية على الشباب . الأب اسوأ الناس ، . .

أن مثل هذه الصيحات قد تعجب السذج والإغرار من الشباب لأنها تلتقى مع الغرائز الراغبة إلى الإنطلاق دون أن يتبين أصحابها فى وضوح تلك الهوة التى يترددون فيها أو الخطر الذى يواجهونه .

ولكن التجارب كشفت أنها ليست صيحة الحق وأنها صيحة التدافع الى تدمير كيان الانسان وتحطيمه .

ولقد يقول ديل كارينجى : ابتسم ، لا تشغل بالك بالهم ، واجه حياتك بالضحك وازماتك بالمرح . ويظن الناس أن الفيلسوف الأمريكى قد وضع حلا لمشاكل الانسان .

ومن اين يجد الانسان الابتسام وكيف يواجه أزماته بالرضى إذا لم يكن مؤمنا بالله ، واثقا به ، راضيا بقضائه ، متجها إلى محاولة جديدة فى صبر وجلود .

كيف يتم ذلك دون إيمان من اعماق القلب يقوم على أساس الثقه بالله .

لا يستطيع (ديل كارنجى) أن يقدم للانسان هذا الدواء فهو لا يوجد إلا فى صيدليه واحدة هى صيدلية (الدين) .

اننا فى أفق الفكر الاسلامى نفهم الأمور فى يسر ، لأن لدينا ناصح مصدق لا يكذبنا أبدا ولا يخدعنا ، ذلك هو الدين .

إن الدين هو الحصن الأخير الذى يلوذ به الانسان من أزمات الحياة ، وهو الذى يجد فيه الشباب أمنهم وطمأنينتهم من الصراعات والتوترات العصبية التى يواجهونها فى عالم ملىء بالمتناقضات .

ولقد أكد كل خبراء الدين والطب والنفس أن الإيمان بالله هو وحده وليس غيره طريق النجاة — ولا أقول الخلاص — الذى لا يشفى الشباب من الأزمات التى يعايشونها نتيجة إخطار النظريات الاجتماعية الوافدة ، وأثار الأفلام والقصص وما يقدمه الشارع من نماذج مغايرة للاخلاق أو مثيرة الغرائز .

أن الدين هو الذى يحقق السلام الداخلى للنفس الانسانية وينسق الروابط بين الجسم والروح والعقل وذلك بتربية القوة الموجهة القادرة على معرفة الحلال والحرام :

(ألاوإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) .

إن الاسلام يدعو إلى بناء الانسان المسلم فى مواجهة مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والاخلاق الوافدة التى تستهدف تدمير الانسان ، الاسلام يدعو إلى بناء الانسان الربانى القادر على مواجهة الأحداث والخطوب فى مواجهة موجة التحلل من القيم الدينية والخلقيه .

لقد دعا الاسلام الى تكريم الانسان المستخلف فى الأرض والنظر إليه من

خلال طبيعته الأصلية الجامعة بين الروح والجسم بوصفه كيانا متكاملا وجعل سعيه فى الحياة مرتبطا بالمسئولية والجزاء .

وتتمثل دعوة الاسلام لتحقيق الرغبات الحسية عن الطريق المشروع الزواج ، وتحريم الزنا ، لا ينبعث عن كراهية الجنس بل عن احترام له وتنزيهه عن العبث ، وارتفاع بالمرأة عن أن تكون إداة يلعب بها الرجل .

والخطيئة فى الاسلام ليست غولا يطارد الناس .

ويعطى الاسلام اهمية كبرى للانسان كفرد فيؤكد له ذاته ، ثم يدفعه إلى العمل فى محيط المجتمع ويقرر أن كل فرد فى المجتمع يستحق الاحترام والطاعة قدر ما يحمل من المسئولية ويتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق .

ولا يفرق الاسلام بين الناس على أساس العنصر أو العرق ويقر التفاضل على أساس العمل والسلوك .

وقد أقام الاسلام مجتمعه على أساس التكوين الفردى واعتبره أساس التقدم وقرر أن الرقابة لا تاتى من شخص على شخص ، ولا من هيئة على هيئة وإنما هى رقابة الإنسان لربه .

وقرر الاسلام حاجة الانسان إلى التقدم المستمر ولذلك دعا إلى تحرير طاقاته جميعا فكرية وخلقية وجمالية ، دون أن يسمح لعائق الطبقة أن يحول دون تقدمه .

وعارض الاسلام مفهوم الانتخاب الطبيعى والدعوة إلى إبادة الضعفاء وتعقيم الفقراء فى نفس الوقت الذى عارض فيه استعلاء الانسان وتأليهه وعبادته كما عارض فى نفس الوقت وصف الأنسان بانه حيوان تحكمه غرائزه ، وبذلك وضع الانسان فى مكانه الطبيعى وفى حجمه الصحيح .

وكذلك ألغى الوساطة بين الله والانسان ، وفصل بين الألوهية والبشرية وأنكر سقوط التكاليف الشرعية عن أى إنسان مهما بلغ قدره من الإيمان

وألغى الاسلام الفكرة القديمة التى كانت تقول بان هناك صراعا بين الجسم والروح ، واعلن أن الروح والجسم متكاملان .

وربط الاسلام بين العلم والعمل ، وقرر أن العلم إنما يطلب من أجل العمل به وكشف عن أن الطبيعة البشرية مذورة بقدرتين : قدرة على التحصيل وقدره على الممارسة العملية .

ولا يرى الاسلام فى الايمان مفهوما مضاداً لمفهوم المعرفة ،ويرفض الاقتصار على مفهوم المعرفة القائمه على الحس والتجربة . ويرى أن الوحى مصدر آكد للمعرفة وحرر الاسلام الانسان المسلم من دوامه البحث فيما وراء الطبيعة وعالم الغيب وحيره الاجابة على السؤال : « لماذا خلقنا » وقدم له مفهوما كاملا مرضيا فى هذا المجال حتى يفرغ لمهمته فى بناء الحياة وتعميرها .

(٣)

أن أكبر سعى الاسلام هو بناء الانسان المسلم ليكون سيد الكون المستخلف باذن الله فى الأرض بالحق ، وأن قاعده البناء إنما تقوم على أساس القوة المجاهدة لا على أساس الترف والرفاهيه . ومن هنا فقد بنى الاسلام أهله على أسلوب المعارضة الدائمه لا هواء النفس وردها عن مطامعها .

ويكشف الاسلام عن قدرات الانسان الكامنة فى مواجهة الأخطار والتحديات ، وعن قدرته فى معايشه العزم والمجاهدة،وأبان كيف أنها تمده بالقوة على الصمود فى وجه الأحداث : أحداث حياته وأحداث مجتمعه وأمته ، فيكون بها حفيا قادراً على الفداء والبذل لا تثقله الأهواء والشهوات وقد شاء الله أن يكون الانسان قوة مريدة فعالة فى هذا الكون ولذلك دعاه إلى بناء الارادة وإقامة الضوابط لأنها مناط المسئولية الفردية ،فالأرادة تكبح جماح النفس وتلجم عنان الشهوات .

ولقد أعطى الله الانسان ميزة الارادة الحرة .ولم يشا إجبار الانسان وسلبه ميزة الاختيار – والارادة الحرة تقوم على الأخلاقية وهى أساس نجاح أى مفهوم عن علاقة الانسان بالحياة .

وفى هذا معارضة الداروينية التى تنكر الإرادة الحرة ولذلك أيدها اليهود لفرض طابع الجبرية على الدعوات والمذاهب التى طرحوها فى المجتمع .

ومن منطلق الإرادة الحرة ، ذات المسئولية ، أرسل الله الرسل بالآيات البينات ، ومن هنا يعارض الإسلام مفهوم الجبرية المادية والتاريخية أو الاجتماعية التى تقول أن الإنسان ليست له إرادة وإنما الوسائل المادية هى التى تحكم التطور وأن الانسان فى اطارها مراقب فقط .

وفى إطار هذا الفهم الإسلامى الأصيل يظهر مفهوم الصبر والكظام والتوكل على الله ، أما الصبر فهو قوة إيجابية ، وملكة فى النفس يتيسر معها احتمال المشاق والرضا بالمكروه فى سبيل الحق وما أوتيت أمة إلا من ثغرة العجز عن الصبر ، وما من أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها إلا انهارت وفقدت كل شىء ،

والكظام هو قمة الدين ، وهو معارضة صريحة للفرويدية ، ولقد أثبتت عشرات الأبحاث التى قامت بها المؤسسات العلمية خطأ افتراضات فرويد وأكدت مفهوم الإسلام الذى يعنى إن المجاهدة بالسير ضد تيار الأهواء والمطامع والرغبات المذلة لا تزيد النفس الإنسانية إلا قوة .

والتوكل على الله قوة نفسية لها فاعليتها ، فهى تدفع المسلم فى غير ما تردد لتنفيذ ما يصمم على تحقيقه ، ولا يكون التوكل فعالا إلا إذا صدر عن إيمان وعزيمة .

ويقرر الإسلام بناء الإنسان على المشقة والمجاهدة (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) كما تقرر أن الإنسان ثابت الجوهر متغير الصورة . وأن الإيمان بالله قوة دائمة تعطى الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة وتدعو إلى المعاودة فى حالة الإخفاق .

(٤)

لا ريب ان عجز الانسان عن فهم ارادة الله حق الفهم هو الذى دفعه إلى مواجهة العجز بإطلاق كلمة الحتمية : ان الله سبحانه هو خالق قوانين الطبيعة وقوانين المجتمعات .

وهو القادر على خرقها ، وحتمية قوانين الطبيعة لا تتعارض مع قدرة الله على المعجزات .

أما المذهب المادى وأهله فانهم يعجزون عن هذا الفهم فهم ينظرون إلى الظواهر أو القوانين ثم ينسون خالقها ومحركها ، القادر على نقضها متى شاء .

وإرادة الانسان حرة – فى كل ما يتصل به وبحركته الخاصة – وليست مقيدة ؛ ولكنها تتحرك فى اطار عالم واسع : يمثل إرادة الله . والانسان ينجح إذا استعمل سنن الله ويفشل إذا لم يحسن استعمالها أو التصرف عليها ، ولكن هناك أشياء لاخيار له فيها وتخرج عن طاقته ، وكل ما يفعله هو ان يتبع أسباب الوقاية منها لا منع وقوعها (كالامراض والموت) .

وهناك أمور أودع فيها للانسان ميزة الاختيار فى حياته باستعمال حواسه وارادة الانسان يتحرك داخل ارادة الله فهو ليس مجبور ولا محكوم عليه « والإرادة الالهية حرة مطلقة تستطيع خرق السنن ، أو إحراز النتائج دون حدوث أسبابها المقدرة لها ، وقد لا تحصل النتائج بالرغم من حدوث أسبابها » .

وثبات السنن الالهية على مدى الزمان لا يعنى تقييد إرادة الله تبارك وتعالى

ويصل بنا هذا كله إلى ان الحياة ليست مصادفة فى هذا الكون ، أو ان الانسان موجود بلا غاية بل هناك قصد وغاية وقضية كبرى .

ولذلك فلن تكون قضية الانسان :

قضية طعام كما تقول الماركسية أو جنس كما تقول الفرويدية ، أو ان عمله فى هذه الحياة هو المتعة واللذة وحدها .

بل مسئولية ورسالة وجزاء ولا ريب ان هذا يكشف عن هدف المذاهب الفلسفة الحديثة فى الأخلاق والنفس والاجتماع فى محاولة تدمير الانسان وتحطيم اصالته وقدرته على ممارسة دوره بصدق .

ويدعونا الاسلام إلى ان يحافظ الانسان على مفهومه الصحيح ، مفهوم حرية الارادة ليصح التكليف خروجا من الجبرية وإيمانا بارادة الله تعالى وقدرته التى لاحد لسلطانها .

(٥)

ولعل أخطر ما يواجه الانسان المعاصر هو ان يقف اصحاب كل علم ليدرسوا جانبا منه دون ان يلتقوا عليه التقاءاً جامعا ، أو يحاولوا تقييمه فى صورة متكاملة فيذهب عالم النفس به إلى مفهوم جزئى يحاول أن يفرضه كاساس وحيد ويذهب عالم الاقتصاد إلى ان مسائل العيش هى التى تحكم وجوده كله ويذهب به عالم الاجتماع وجهه أخرى ويذهب به عالم الأنثروبولوجيا وجهه رابعه وخامسة وهكذا .

أما النظرة الإسلامية فتقوم على مستوى التكامل والفهم ، والالتقاء ومعرفة ابعاد كل جانب فى التأثير على الصورة الكاملة والحد من استعلاء أى مفهوم .

أما فى الفكر الغربى فإن رجل المجتمع لا يسأل عن مسئولية رجل الأخلاق ورجل الأدب لا يسأل عن مدى خطر مايدعو إليه بالنسبة للتربية ، او الأخلاق وهكذا تتمزق الاختصاصات ولا تلتقى فى منظور متكامل .

ويقرر الاسلام ان حركة الفكر والعلم كلها إنما تقوم من أجل بناء الانسان وبناء مجتمعه ولذلك فهى لابد ان تتكامل ، تكامل الانسان نفسه من حيث كونه روحا وجسدا ، ولقد يكون جسم موضوع العلوم الطبيعه وروحه موضوع علوم الأخلاق ونفسه موضوع علوم العقائد ولكن ذلك كله لا ينفصل بل يتلاءم ويتوازن ويلتقى فى منظور كامل واطار جامع يستهدف بناء هذا الانسان

وعاينه من الأخطار ووضع الضوابط التي تجعل حركة صحيحة ودقيقة وبعيدة عن الانحراف او الاصطدام او التحطم او التدمير .

(٦)

ان اهم مايقدمه الاسلام للإنسان :

الإيمان بالله ، ذلك أن الايمان بالله هو السند الحقيقي للإنسان فهو الذي بيده كل شيء ، والناس من دونه لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضراً ولايملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً .

ولما كانت النفس البشرية معرضة لموجات متوالية من الشك والطمع والأهواء فقد كانت دعوة الاسلام الملحة المتصلة ترمي إلى تزكية النفس وتطهيرها الدائم وتحريرها والارتفاع بها . والكشف عن طابع الفطرة الذي يختفي وراء الأغشية المختلفة وإبرازه وصقله واتاحة الفرصة له حتى يطهر القلب من الزيغ وتنقى النفس من الانحراف والايمان بالله حق وضرورة ، وهى المزية الوحيدة التي تتميز بها الانسان عن الحيوانات كلها .

وهو الذي يهدى إلى مكارم الأخلاق ويبنى الضمير السليم فالايمان سند الشدائد وبلسم المصائب وعزاء القلوب وعلاج اخطار الحياة وعندما يفقد الانسان إيمانه بالله لا يستطيع الصمود أمام الأخطار التي تجتاحه من كل مكان .

ولقد تدعو بعض الفلسفات المثالية إلى مواجهة الحياة في صبر أو تدعو إلى الثقة بالنفس أو تدعو إلى التفاؤل دون ان تهدى الانسان إلى مفتاح ذلك كله .

كيف يمكن ان يكون الأنسان قادراً على مواجهة شدائد الحياة في شجاعة وصبر وقوة دون أن يكون مستنداً إلى جدار عريض :

هو الأيمان .

كيف يمكن ان يثق بنفسه ، دون ان يكون ملتمساً عوناً عظيماً هو الله تبارك وتعالى

كيف يمكن ان يضحك الإنسان ويسر ويتفائل دون أن يستمد القوة من الذى اضحك وابكى والذى امات واحيا .

ان ابرز معطيات الإسلام هو « الإيجابية » المتفائلة برحمة الله ، فلا يقر الإسلام طابع الانهزامية أو اليأس أو الضعف . وليس فى الإسلام : عقيدته وأدبه وفكره ظاهرة التشاؤم التى تضفى على الحياة الغربية طابع المرارة ويقدم الإسلام فكرة البذل والتضحية والانفاق والتقوى على قيم الرفاهية والترف فتجيش النفس الإنسانية بالطمانينة ولا يدمرها الانحلال والشح والأنانية .

ان تمثل الله تبارك وتعالى فى النفس الإنسانية بوصفه الخالق المدبر هو الذى يثير فيها الطمانينة والسكينة بما يقع فى حياة الانسان فلا يستسلم لليأس بل يتجدد أمله فى الحياة مرة بعد مرة ، فإذا عرف ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا قوى أمله المتجدد وعظم كفاحه ونجح سعيه .

ومن هنا نعلم ان الالحاد طارىء على النفس البشرية وليس من طبيعتها ولا هو متاصل فيها ، وقد وجه الله الانسان إلى آفاق عدة للخروج من ظلماته فى مقدمتها « التفكر » فى خلق السموات والأرض .

ان التفكر فى خلق الله (لا فى ذات الله) فريضة إسلامية يعاقب من يتجاوزها إلى الغفلة ومتابعة الأهواء بغير دليل ، إنما ينبعث الألحاد من العقائد التى تصادم الفطرة وتعارض العقل وتقوم على الخوارق .

(٧)

وان من أبرز مفاهيم الاسلام فى بناء الانسان التناصح بالحق والخير والتواصى على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والانسان فى خسر إلا الذين آمنوا وتواصوا بالحق والصبر ، ومسئوليه التناصح من أكبر معالم الاسلام بين أهله وفى مجتمعه .

ومنهج التربية فى الاسلام منهج متكامل يعنى بتربيه الجسم والروح والعقل

فى إطار متكامل حتى لا تطغى ناحية من النواحى على الأخرى وبذلك ينشأ المسلم سويا قوى الصلة بالله محققا رسالته فى الحياة.

والقدرة والمنهاج هما طريق بناء الانسان ، ولا فائدة من منهاج بلا قدوة ، والقدوة تبدأ من الأب والأم أولا ثم تمتد إلى المربى والمعلم وقدوة الآباء هى مصدر الخير كله فلا بد ان يطبع الآباء أبناءهم على الايمان .

وتربيه الارادة والخلق وان يكونوا بتصرفاتهم مثلا عاليا يستمد أصوله من النموذج الأكمل والأسوه الحسنة : رسول الله ﷺ .

ولا بد من قيام الالتزام فى الأسرة ، على الترغيب والترغيب ويقوم الالزام بوازع العقل والوجدان والسلطان جميعا ولا بد من بناء الضمير (الذى هو الرقيب الداخلى) والذوق فى إطار الاسلام ، فى موازنة بين رغبات الروح وأشواق الجسم ومسايرة الفطرة والعقل وتأكيد المسئولية الفردية والجزاء الأخروى ، والاعتراف بالرغبات وتحقيقها فى اطار الضوابط والتخفيف ورفع الحرج على أن يكون التكليف الملزم فى حدود الطاقات الممكنه وتوجيه الأعمال كلها لله وخلق روح المجاهدة والتكظم بالصبر والاصطبار وسد الذرائع ومجافاة الترف والهوى وإدارة ذلك كله فى جو من الحرية الحقه :

وهى الحرية فى إطار الأخلاق حيث لا حرية بدون ضوابط وقيود .

وفى هذه المعانى يقول الامام ابن الجوزى :

« ان الصبى امانة عند والديه ، وقلبه جوهرة ساذجة وهى قابلة لكل نقش فانه عود الخير نشأ عليه وان عود الشر نشأ عليه .

والولد أمانة فى عنق وليه فينبغى ان يصونه ويؤديه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعوده التنعم المترف . ولا يحبب إليه الرفاهية الرخوة فيضيع عمره فى طلبها ، إذا كبر ، بل ينبغى ان يراقبه من أول عمره فيعوده الأخلاق الطيبه وهى مبشر بكمال العقل عند البلوغ ، وهذا يستعان به على تاديته بحياته.

«ان ولدك جزء منك ، فاختر لجزئك ما تشاء ، الولد نعمه وعار ، او نقمة وعار ، الخيار لك ما دام زمامه بيديك فعليك ان تربيه ويفهمه الأخلاق من الثالثة من عمره حتى العاشرة وتصونه من قرناء السوء حتى العشرين و بعدها تتركه حراً » .

والمسلمون يعلمون ان للإسلام مفاهيم أساسية فى مختلف القضايا : المجتمع والأسرة والمرأة والتعليم والتربية والملابس والزينة والفن والنفس والشباب فليلتمسوها وليعرفوا أنه بينما تعالج المذاهب الهدامه الغريزة الجنسيه بوسائل اشعالها (بالسينما والقصة المكشوفه والغناء المريض والصورة العارية ، والكلمه الأباحيــة والكتب الجنسية) فإن الاسلام يعــالج الغريزة بوسائل تبريدها وتلطيفها و باعلاءها وتاجيل الممارسة مع الاعتراف بحق الأنسان فيها على النحو الذى شرعه الله .

ولقد كشف الأسلام عن خطأ النظرة التى تقول بأن الأنسان قد أصبح قادراً على مواجهة الحياة دون حاجة إلى توجيه الله ورسالة السماء ووحى الأديان ، وانه فى حاجة مستمرة إلى هذا العون ، وإلى هذا الضياء ، وإلى هذا الجدار الصامد ، وأنه متى تجاوزه تقاذفته الأمواج والأهواء والمطامع .

ولقد أقام الأسلام قيم الأيمان والأخلاق ثوابت شوامخ ، حتى تكون أعمدة النجاة ونقطة البدأ انطلاقا ونقطة الموافاة عودة .

«ليس غير الايمان بلسم للجراح وشفاء للصدور أو ترياق لأمراض القلق والحيرة والشك والارتياب .

(٨)

«ان الانسان المسلم لن يجد ذاته الضائعة إلا فى المفاهيم الأصيلة التى قدمها له منهجه الربانى المصدر الانسانى الطابع ، وسوف تعجز المفاهيم البشرية عن ان تهديه ، وان كانت تستطيع ان تضلة ، لقد طرحت فى افاق المجتمع الاسلامى مذاهب ونظريات جرت مع الأهواء والرغبات فبدت فى نظر الشباب الذى لا يستطيع ان يتعمق الأشياء ، بدت ذات بريق واغراء ، ولكنها ليست فى حقيقتها إلا مخدر وقتى يرتد منه الانسان بعد ان يفيق أكثر تمزقا وضياعا .

وأن يستطيع الانسان المسلم ان يجد نفسه إلا إذا تحررت تماما من هذه الدعوات وقدفهمها وعرف اخطارها وأسرارها، وعرف ما وراءها من أغراض وكشف عن خلفياتها المضللة ، وغاياتها المدمرة .

لقد بنى الاسلام الانسان المسلم العربي منذ أربعة عشر قرنا على نحو خاص وأسلوب نادر ، بناه بالحق ، وأقامه على الطريق المستقيم ، وحذره من الطرق التى لا نهاية لها .

(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) .

هذا الطريق هو مصدر سكينة النفس ، وسلامة القلب ، وصفاء العقل ، لأنه يستمد منهجه من عند الله خالق النفس وبادىء القلب وصانع العقل ، ولن يجد الباحثون وراء أزمة الفراغ العقائدى غير الاسلام ولن يجد الباحثون حول الصراع الفكرى غير القرآن ، أنه وحدة الفكر الأساسية الجامعة التى تحول دون التمزق والتفرق وترد المسلم إلى فهم أصيل عميق ، يدفعه إلى الأمام من أجل بناء نفسه وبناء مجتمعه وبناء أمته .

أن ميزة الاسلام أنه صنع (وحدة الفكر) الأساسية الجامعة التى تحول دون الصراع الفكرى ، وهو الذى صنع مفهوم (الايمان) التى يحول دون التمزق النفسى ، وهو الذى قدم مفهوم (التوحيد) الذى يحول دون الفراغ العقائدى .

أن أخطر ما حذرنا منه الاسلام هو التقليد ، والمتابعة بغير دليل ولا رأى منير ، وأن أسوأ ما عاملتنا المناهج الوافدة أن حالت بيننا وبين جوهر فكرنا وصورته لنا بصورة القديم أو الجمود .

لقد دعا الاسلام معتنقيه إلى معارضة التقليد للاجنبى ، وقدر ذلك رسول الله فقال :

من تشبه بقوم فهو منهم ، وليس معنى هذا أن يصم المسلمون آذانهم عن كل صوت يأتى من الخارج بل أن يكونوا قادرين على ابعاد العناصر التى تدمر شخصيتهم وقيمهم ويقبلون مايزيدهم قوة .

وان المسلمين اليوم حين ينظروا إلى حضارة الغرب يجب ان يفهموا من أمرها على اى درجة هى من القوة او الضعف ويلتمسوا ذلك اراء اصحابها ، قال ارنولد توينبى فى كتابه الحضارة والغرب وفى كتابه الغرب فى محنة :

« إن الحضارة الغربية تمر الآن فى طور من التدهور والانحلال التى مرت به الحضارات من قبل ، من اجل هذا كانت فنون الصناعة والاقتصاد وغيرها من المعارف علوما غير كافية لتوفير اسباب الاستقرار والسعادة للمجتمع الانسانى حيث ان الروابط الروحية هى العمد التى يتماسك بها بناء المجتمع » .

فكيف يمكن لمجتمع ناهض يريد ان ينطلق من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة ان يلتمس فكر حضارة فى محنة ، او مجتمع فى ازمة ، لقد ذهب إلى غير رجعة قول القائلين بان نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، وهو قول لم يكن حكيما لأنه يتعارض مع الفطرة الانسانية ، ومع القيم الاساسية لمجتمع صاغة الاسلام منذ اربعة عشر قرنا .

لقد اعلن الاسلام حربا لأهواده فيها على التقليد وعلى التشبه ودعا إلى إعلان التميز بين الأمم فى ضروب الحياة واساليبها المختلفة .

ولا ريب ان النظريات الوافدة هى استجابة لتحديات مجتمع بعينه له مشاكله وازماته وقيمه وعقائده . وقد جاءت هذه النظريات الحديثة التى قدمتها مدرسة العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى مرحلة ضعف هذا المجتمع وانحلاله ووقوعه فى براثن القوى الغازية التى احتوت فكره .

فهو بالحق يمر الآن بازمة الاحتواء الصهيونى التلمودى للفكر الغربى المسيحى وعلى المسلمين والعرب أن يتنبهوا لهذه المخاطر التى تواجه فكرهم وان

يايقظوا المذاهب الهدامة التى تصاغ فى نظريات براقة وتحاول ان تدمر العقيدة الالهية والنفس البشرية .

إن هناك محاولة لحمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخروج من إطار فكرهم ، ودخول منطقة الاحتواء الخطيرة التى تذوب فيها عقائد الأمم ومعتقداتهم وقيمهم ، حتى يستسلموا للمنهج التلمودى الصهيونى .

ولقد سقط الفكر الغربى فى هذا الفخ ،وهو يحاول التخلص الآن ولكن بعد فوات الوقت ، اما الفكر الاسلامى فانه يواجه الخطر ، ولكنه لن يستسلم لأن له من اصوله ومقوماته ما يحول بينه وبين ان يحتويه أى فكر آخر ، وهو اليوم احوج ما يكون إلى يقظة اهله ؛ لتحريره وتصحيح مفاهيمه وكشف الزيوف التى تحاول ان تختلط به او تسيطر عليه .

* * *

الفصل الثانى

الى اى مدى تصدق
النظريات المطروحة فى مجال الاجتماع والنفس والاخلاق

طرح الفكر الغربى عديدا من النظريات فى مجال العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق تتمثل فى مدارس متعددة أبرزها نظريات ماركس فرويد وليفى بريل وسارتر ودوركايم كولن واسن ، وماركوز وكلها تحاول أن تواجه الإنسان بمفهوم مادى خالص ، وترسم له طريقا معارضا للفطرة وللقيم الأساسية التى قدمتها الأديان قبل تحريفها أو تفسيرها على نحو أو آخر وتهدف هذه المذاهب إلى نفى القداسة عن الدين والأخلاق وإنكار أصالة الأسرة ومعارضة فطريتها والدعوة إلى التحرر منها أو انكار ثبات الأخلاق والدعوة إلى نسبيتها وربطها بالحضارات والمجتمعات المتغيرة . أو التماس وجهة الانسان وغاياته كلها فى الجنس أو التماس هذه الوجهة فى لقمة العيش .

وتستمد هذه النظريات جميعا من مصدر واحد أو مصدرين (أولا) فكرة التطور الدائم التى تلغى فكرة الثبات (ثانيا) فكرة القهر الخارجى والحتمية التاريخية أو الاجتماعية التى يبدو فيها الإنسان مسلوب الإرادة، وكانه حشرة (ثالثا) إعادة تطبيق التجارب التى اجريت على الحيوان وعلى الانسان دون تقدير للفروق الدقيقة بينهما وحول هذه المعانى ترددت فرضيات فرويد وماركس ودوركايم :

فماركس يعلن أنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الأخلاقية وإنما هى تتطور بتطور الانتاج ودوركايم يعلن أن الأخلاق تتطور بتطور حالة المجتمع وفرويد يعلن أن الأخلاق كبت ضار بكيان الإنسان .

وكانوا يجمعون على تحطيم الدين لأنه فقد يعوق التطور ولأنه ليس فطرة إنسانية (دوركايم) أو لأنه كبت جنسى منفر (فرويد) .

* * *

(٢)

اما علم النفس فيرى « ان الانسان مسير أمام جملة من العوامل التى لا يحكمها العقل ، وانما هو واقع تحت تأثير الرغبة والعاطفة والمزاج ، ومن قبل كانت فلسفة الأخلاق « تؤمن بان لكل فكرة مسيرا يلتزمها ، فهى لا تنتهى عند مجرد التفكير وانما تمتد إلى العمل والتطبيق . فالفكرة لها شطران : تعقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلقى حتى تتحول إلى هذا السلوك ، ولكن علم النفس حل محل علم الأخلاق فباعد بين شطرى الفكرة وعالج الاحساس الضئيل مجرداً عن العمل وباعد ما بين العقيدة والسلوك ، وقد أدى ذلك إلى التناكر الذى نشهده اليوم بين ظهرانينا » ، لقد فرق علم النفس بين العقل الواعى والعقل الباطن ، ففرق بين الفكرة والتطبيق ، وتطرق الشك إلى النفوس فى قيمة الفكرة وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذى كان لها فيما مضى ، بل لقد ذهبت الفكرة من علماء النفس إلى القول بان الفكرة شىء والعمل شىء آخر ، وبذلك جرت المحاولة لتحطيم أكبر ركيزة من ركائز الإيمان بالله ودعامات الدين الحق وهى الارتباط الجذرى بين الايمان والعمل ، أو بين العقيدة والتطبيق .

كذلك فان علم النفس على هذا النحو قد عجز ان يخلق للإنسان مثلا أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قيم الاشياء ، ذلك لأنه علم وضعى يسير فى نطاق ضيق من من التجارب التى تختلف على عقل الانسان وحسه ولأنه علم تجريبى فقد عالج حالات (شاذة أو غير شاذه) من غير أن يقيم معايير يستطيع المرأ أن يتخذها لنفسه غايه أو سبيلا » .

ومن حيث أن مناهج علم النفس والعلوم الاجتماعية تجعل من الفرد شاهدا

وليس فاعلا وتلغى ارادته الحرة وتكبله بقيود من الحريات فتحطم وجوده الحقيقي وتلغى مسئولية الفرد التي هي كفاء الجزاء (من مثوبة وعقاب) فان الفرد أصبح يرى نفسه ، خارج الحلبة ، لا مسئولية عليه وليس هو الملوم ، فان الجماعة هي المسئولة ، والجبرية الاجتماعية أو التاريخية هي المتصرفة في الأمر .

وليس علم النفس أو علم الاجتماع وحده هو الذي استثمرت هذه الموجة من الشك في إقامتها بل أن التاريخ « تنكر لفلسفة الخلق وجافى فكرة البطولة وازور عن تقدير الفرد ، وحاول أن يقيم قواعد يستمد سلطانها من الجماعة »

« كذلك فان علم الاجتماع ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها في ارادة الجماعة » وهكذا نجد الصورة واضحة ، أن هدف هذه المذاهب كلها هو تدمير الانسان فهذه العلوم الاجتماعية : علوم تجريبية لاخير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها مثلا أعلى فهي لن تزيد إيماننا في سمو الفكرة ولا عقيدتنا في سيطرة العقل على العمل ، وكلما أمعنا في دراستها زادتنا شكا في أصول الخلق وفي فلسفة الحياة فهي تعالج ظواهر نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية ولكنها لاتأتي بجديد في قيم الأشياء ولا تخلق ميزانا عادلا لحقائق الخلق » .

ولقد تلاشت فلسفة (الاخلاق) في علم النفس كما تلاشت الفلسفة السياسية في علم الاقتصاد ، ذلك بأن العالم قد أعجبته اقتصادياته عن المثل العليا التي أقامها الفلاسفة الحكماء وأسرف في اتخاذ مبادىء الاقتصاد الجيلا يكاد لايؤمن الا به فكما أن الفرد يرى في أصول علم النفس أن ارضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحز في النفس من ألم ممض ، كذلك نرى الجماعات أن في ارضاء رغباتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشقاء .

والاقتصاد كما هو الآن — علم المنافسة الحادة على احتكار المادة والتطاحن على الكماليات ، وليس يخفف من حدته أي قوة دافعة إلى المثل الأعلى ، وقد كان الاقتصاد نفسه معينا يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس مايرونه من القضايا ليشككوا في قيم الخلق العام » .

وهكذا نصل الى غاية أساسية للعلوم الاجتماعية هي انكار قوة الأخلاق

فى الفرد ، وانكار قوة الأخلاق فى الجماعة « مما ادى الى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يعانى منها الغرب ما يعانى اليوم » .

ويصل الباحثون الى أن « تنشئه الفرد » « وبناء الانسان » هو أول ماينبغى فى بناء الأمم ، لقد أنكرت هذه العلوم ما للفرد من وزن فى حياة الجماعة .

وهذا هو أخطر ماتواجهه المجتمعات فى الغرب الآن .

(٣)

ولما كانت هذه النظريات قد كشفت بعد سنوات قليلة عن فسادها واضطرابها فقد حاول اصحابها احياءها من جديد فهناك مدرسة جديدة الآن تحاول ان تجدد فرويد وتغير فيه وتبنى ما تهدم بعد ان كشفت زيوف كثيرة فى اعماقه ، كذلك نرى هولاء الذين يحاولون تجديد الماركسية والتفسير المادى للتاريخ ، امثال روجيه جارودى ومكسيم رودنسون .

ونرى كولن ولسن يحاول أن يجدد (الوجودية) ونرى ماركيوز يسعى الى الربط بين الفرويديه والماركسية كما جرت المحاولات للربط بين الوجوديه والماركسية من قبل .

ويحاول ماركيوز فى كتابه (ايروس والحضارة) التوفيق بين الماركسية ونظرية فرويد فهو يعلن ان الحضارة مصابة بالمرض وان هؤلاء الأشخاص الحاقدين الذين يعتريهم القلق من حب ولما هم الثمرة الأولية لفوضى عامة وان معالجه هذه الفوضى العامة هى وحدها التى تحمل الشفاء لكل فرد بدوره .

إن هدف ماركيوز تجديد الفرويديه والماركسية معا وذلك بإقامة جسرين : هما الجنس ولقمة العيش :

وهناك ابحاث اخرى حول الأساطير وعلم السلالات اصول الأجناس تحاول

كامها إخضاع الانسان للتحليل والتجربة على نفس الطريق الذى تطورت إليه الفلسفة المادية ان الفكر التلمودى اليهودى الذى يحتوى الان الفكر الغربى بحقيه ويسيطر عليه قد حال دون تمكين الفكر الغربى المسيحى من ان يتحرر من نفوذه ، وما تلك الصيحات التى تعلو بين حين وآخر الا صرخات الاحتضار .

ان النقاد الغربيين يعلنون ان الجديد فى الفكر الغربى يدور حول ازمة الانسان المعاصر ، وان كل المذاهب تدور حول هذا المحور ولكنها مع الأسف عاجزة عن ان ترى الطريق الصحيح امامها لأنها مصرة على خط واحد هو الفلسفة المادية .

يقول أحد الباحثين فى تبرير هذه الدراسات التى تدور حول أزمة الإنسان المعاصر :

« ذلك أن الإنسان المعاصر قد أصيب اليوم وفى كل مكان بازمة حادة وخطيرة تهدد بغروب شمس الانسان على الأرض واختفاء الانسان من الوجود فان الرأسمالية والشيوعية كلتاهما فى أزمة وترجع هذه الأزمة إلى تخلخل مكانة الايدلوجيات المختلفة وعدم حلول مفاهيم جديدة ومفهومات جديدة محل المناهج والمفهومات التى تخطتها الوقائع والأحداث » .

ونحن نعرف هذا الكلام ونفهمه جيدا فى ضوء فكرنا ذى الأصول الأصيلة الثابته ونعرف أن الفكر البشرى سوف يدور ويدور ثم لا يجد بعد شيئا جديدا ، أن آخر الصيحات اليوم هى الاحصاء والعقول الالكترونية ولن تجدى شيئا أمام الاعصار الخطير ، إعصار الانهيار الماحق الذى يتعرض له الفكر الغربى والحضارة الغربية أيضا ونعجب كيف ان بقى قومنا لازالوا على عماية من رؤية الخطر ، وعلى عجز عن مقايسة الأخطار .

أن المؤامرة العالمية تحيك خيوطها على النحو الذى كشف عنه بروتوكولات صهيون . أنجول رومان فى كتابه المسالة رقم واحد يقول : إن الغرب فى دمار وينهار وهو ينهار نظرا لفقدان ايدلوجية ثابتة .

ان كولن ولش يرى فشل الوجودية فيذهب إلى دعوة جديدة هى اللامنتمى ، ولكنه لا يستطيع أن يخرج عن الفصل بين الفكر والحياة والتصور والواقع والعقل والروح والسماء والأرض وتقف الثنائية ويقف اللاهوت النظرى سداً فى وجه محاولاته الجديدة .

ان التصور الاسلامى للالوهية ، للوجود الكونى ، الحياة ، للانسان : هو وحده القادر على اسعاد البشرية ، ولكن البشرية تعجز عن أن ترى الطريق أو تسمع الصوت .

ان الخطر الذى تمارسه المجتمعات الغربية من خلال هذه الفلسفات والمناهج قد دفعها إلى أبعد مدى ، ان هذه المدارس قد بلغت بالانسان والبشرية مرحلة جد خطيرة هى : توجيه السلوك الانسانى لا على أساس العقل كما كانت الفلسفات المثالية تعمل بعد أن حطمت أوربا عقائدها ، ولكن : على أساس الغريزة والانطلاق النفسانى كما بشر به فرويد وأتباعه وكما صورته الوجودية ثم الهيبية ، وكما رسمه دعاة التلمودية حين قالوا :

(ان الجنس هو المتعة الأولى فى الحياة) .

تقول البروتوكولات « لكى نطمئن إلى الرأى العام يجب باديء ذى بدء أن نربكه تماما ، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل أراء متناقضة لدرجة يضل معها الطرفين فيدركون حينئذ أن أقوم سبيل هو أن لا يكون لهم رأى » .

ونحن نعتقد أن ثمرة هذا الاتجاه قد تحققت فعلا ، وأن تصارع النظريات المتعارضة بين وجودية وماركسية وبين فرويدية ودوركايميه ومركوزيه قد أعطى النفس البشرية احساسا بالتضارب والتلفيق وكان من نتيجته أن برزت روح اللامبالاة والعزلة والانفصال فى الأجيال الجديدة فتعمقت روح الشك واستعلى احتقار القيم مع السخرية منها .

(٤)

ان نوعية الفروض التي قدمها علم النفس والعلوم الاجتماعية هي محصلة دراسات أجريت في بيئات معينة وتدخلات فيها توجيهات معينه ولم تخلص من ذاتية الباحث ومزاجه وأهوائه وتحدياته وأغلبها (دوكايم وفرويد وليفى بريل وماركس) من عنصر واحد له أيدلوجية ومخطط وله هدف في السيطرة على البشرية ، وهي كلها مذاهب تثير الشكوك من غير الوصول إلى اليقين ، وتطارح الشبهات وتتركها ، وتنتقل بالانسان من المعلوم إلى المجهول ، ومن الصريح إلى الغامض ، ومن الفطرة إلى الجبرية والقسر ، وقد استطاعت بالسيطرة على الفكر الغربي في حالة السيطرة الاستعمارية أن تطارح هذه المذاهب في أفق الفكر الاسلامي وأن يتاح لها البقاء لفترة طويلة لأنها لم تجد معارضة صريحة إلا منذ وقت قريب .

(٥)

شهادتان للعلوم الاجتماعية الأولى من الدكتور عاطف غيث أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة الاسكندرية :

ان معظم علم الاجتماع الذي نعتمد على نظرياته في جامعاتنا هو العالم اليهودي الفرنسي أميل دوركايم — وهو وجماعته انما يستهدفون أن يطمسوا فعالية « الانسان » ويجعلوه عند المصير مجهول ، وحاولوا — كذلك — أن يميعوا حركة التاريخ ويبعدوا الأحداث التاريخية عن مضمون الواقع المعاصر حتى لا يتعرف الباحث على حقيقة مسيرة التاريخ نحو هدفه الذي لابد منه وهو تحرير المجتمع الانساني من القيود التي كبلته قرونا عديدة » ، ان علم الاجتماع لايزال متناقضا وانهزاميا ويعتمد على خليط متناقض من النظريات الرأسمالية ، ان هذا العلم قد وضع أسسه على يهود كرسوا حياتهم وعلمهم لخدمة الاستعمار فحاولوا أن يجعلوا هذا العلم عاجزا عن فهم حقيقة التغيرات في المجتمعات

وتمييع حركة الشعوب وعلى هذا فإن علم الاجتماع بوضعه الحالى ثمرة من ثمار الرأسمالية وسلاحا فى نفد الامبريالية لمساندة ايدلوجية معينة وان نقله دون تغيير فى حز ـئنا اداه انهزامية » .

أما الشهادة الأخرى فهى شهادة الدكتور محمد مندور :

كنت أتحدث مع احد الفرنسيين فى امر الأخلاق والمجتمع فسكنت عما اقول : ان مبادىء الأخلاق ان هى الا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون ان يكون لهم دخل فى بنائها او فضل فى الإيمان بها .

ان إرادة الانسان الحرة التى يعتز بها ليست الا وهما لا الفرد لا يملك لنفسه شيئا وانما هو مسير بغرائز وقوى .

قال الرجل : من قال لك ذلك

قلت : هذه ياسيدى الأراء التى سمعتها من أساتذة السربون فى علم الإجتماع وعلم النفس قال الرجل الفرنسى : أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصبح نظريات أو يكشف عنها التفكير المجرد ، ان التفكير الفرنسى لا يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الإنسان عندما زعم كبيرهم دور كايم ومن خلفه : ليفى بريل وموس وفوكونية ومن تبعهم : ان الإنسان حكمه حكم المادة . إن هناك مايسميه هؤلاء وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيج من العناصر ، احذر يابنى ان تؤمن بما يقولون ، فليس صحيحا ان الرجل المهذب لا يستطيع ان يصل إلى قيادة شخصية يهتدى بها إلى مواضع الخير والشر والبطولة والخيبة بنفسه . كما تهتدى الطيور إلى أوكارها .

وليس صحيحا ان قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لا نستطيع

فى علاجها شيئاً وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قواعد عامة ، هذا يا بنى وهم بل خداع مبطلين « انا الهم أن نكشف عن قوانين المادة لنسيطر عليها و نسخرها فى مرافق حياتنا .

ولكن الإنسان ما شأنه بالقوانين ، من قال ان الإنسان مادة فحسب ، وهب أنه مادة وان الروح لم يكن لها وجود ، وانها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات ويتحطم الناس ، أليس من الخير بل من الواجب على الإنسانية أن نرفض علما كهذا ان ينتهى إلا بتحطيم حياتنا وشل ارادتنا .

ان ما رواه دور كايم وتلاميذه من أن لكل شعب عقلية تتكيف بتاريخ ونوع نشاطه الاقتصادى فى محاولة منه لخلق العقل الجمعى هو باطل وزيف ، لا يا بنى ليس هناك عقل جمعى كما زعم لك دور كايم وإنما هناك عقل فردى وإرادة حرة ، إرادة يجب ان تستيقظ فى قلوب أمثالك تهدم العجز ، ليس هناك جبر تمليه قوانين مزعومة وإنما هناك نشاط حر ، نشاط لا يعرف اليأس » .

ويعلق دكتور مندور فيقول :

إن العلوم المادية خطت خطوات كبيرة نحو اكتشاف القوانين العامة التى تسيطر على المادة فتمكن الإنسان من استخدامها ، ونظر الباحثون فى الإنسان فإذا بهم لا يكادون يجدون لظواهره قوانين فتطلع طموحهم الساذج إلى ان يصلوا فى معارفهم إلى ما وصل إليه علماء المادة فقالوا :

ان الإنسان ما هو إلا ظاهرة من الظواهر العامة وهو لا بد خاضع فى حياته الفردية وفى حياته الاجتماعية إلى قوانين لا مفر من سلطانها .

ومن هنا اتجهت الأبحاث النفسيه والاجتماعية هـــذه الوجهة الشكلية » .
ونحن نقول ان الدكتور مندور لم يدرس أبعاد القضايا والتحديات .

إن الذين اكتشفوا القوانين الطبيعية هم أهل أوربا المسيحيون الذين ورثوا المنهج العلمى التجريبى الاسلامى .

ثم جاء اليهود يسيطرون على الحضارة ويحشوون فكرها فالتمسوا السيطرة على الإنسان من خلال طرحه فى مجال الفلسفة المادية وتطبيق مفاهيم التلمود عليه ومحاكمته وفق بروتوكولات صهيون : أى تدميره .

ومن هنا سيطر التلموديون اليهود على العلوم الاجتماعية والأخلاق والنفس وبرز هؤلاء العتاة الجبابرة مذودين بمنهج واضح فى محاولة للسيطرة على الفكر البشرى ، وبعد ان تم لهم احتواء الفكر الغربى طرحوا شبهاتهم فى أفق الفكر الاسلامى من أجل تمزيق العقيدة الجامعة للأمة وإسقاط إرادة الفرد وهدم معنوياته وإسقاط الأسرة بالدعوة إلى الأفكار الحرة .

إن الهدف هو نقل المجتمعات من وحدة فكر عامة إلى فكر فردى يمزق كيان الأمة ، ان الحلول التى وضعوها للنفس الانسانية ترمى إلى سحقها وتدميرها لا إلى بنائها ودعمها ، ان الدعوة إلى دفع النفس الانسانية إلى الملذات وتبرير ذلك ان يجعلها ترتوى بل سيحطمها تماما . ان علاج الحرمان بخلق هذا العالم الوهمى من رواية وسينما وتراجيديا إنما هو المخدر الذى لن يحل أزمة القلق والتمزق بل يزيدها اشتعالا .

إن أخطر ما يدعو إليه الفكر الذى تحمله مدارس العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق هو القضاء على وحـــدة الفكر وعلى كيان الانسان وعلى دعامة الأسرة .

إن ميزة الاسلام هى أنه وضع وحـــدة الفكر الأساسية التى تحول دون الصراع الفكرى أو التمزق الاجتماعى ، لقد أعلن الأسلام حربا لاهوادة فيها على تقليد المسلمين لغيرهم ، ودعا إلى الحرص الشديد على تميز الشخصية المسلمة عن غيرها ، وحذر من داء التشبه بالأمم والتبعية لها . وكانت دعوته إلى المحافظة على الشخصية الإسلامية ، فى ظل التوحيد والأخلاق .

واليوم والعالم كله مضطرب بالتحلل والتمزق والأنهيار فانما يبرز الأسلام كالضوء الكاشف ليقدم للبشرية هداها وضياءها ، سكينة القلب ونور العقل جميعاً .

و « كلما ساد الصراع الفكرى يلتمع الأسلام دائماً باعجازه ليجدد للانسان معالم الطريق ، ذلك ان الأسلام أنزل وتكامل ليكون العقيدة الأخيرة للبشرية

ودونما تناقض مع طبيعتها الأصلية من جهة ودونما تجاهل لعناصرها الطبيعية من رغبات الجسم وأشوق الروح(١) .

وفى كلمة واحدة أخيره : لم يفهم حقيقة الأنسان غير الأسلام .

أنور الجندى

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة : ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت : ٣١٧٤٨

(١) من بحث ممتع رائع للدكتور عماد الدين

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠١٠ — ١٩٧٨

الترقيم الدولى ٧ — ٨٧ — ٧٠٥٣ — ١٩٧٨

هذا الكتاب

ان اخطر ما طرحته الايديولوجيات الوافدة فى افق الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى تلك المفاهيم المادية الوثنية والاباحية الداخلة فى مجالات النفس والاخلاق والاسرة وعلاقات الرجل والمرأة وفى بناء الطفل والشاب والفتاة وقد سرت هذه المفاهيم مسرى النار فى الهشيم فدمرت وحطمت وتركت ركاما من الضحايا والاثار المريرة فكان من حق الاسلام علينا ان نكشف زيف هذه النظريات والمفاهيم وان نقدم لشبابنا وامتنا الاصل الاصيل لمفاهيم الاسلام فى النفس والاجتماع والاخلاق ، صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ، فى ضوء الحق وعلى طريق الخير وهى مفاهيم تختلف عن المفاهيم الوافدة التى لم تصلح لبيئتها فكيف تصلح لبيئتنا ، اما هذه فهى صالحة لنا بينما لا تصلح غيرها لنا مهما كان صالحا لمجتمعه ولما كانت مفاهيم العلوم الاجتماعية والتحليل النفسى قد اعتورها اضطراب كبير وكشفت التجارب عن اخطاءها العميقة كما ابرزت التحاليل عن ان اغلبها فروض فاسدة اعتمدت على اساطير قديمة او حالات مرضية ولم تعتمد على الفطرة او العلم او التجربة وقد رأى قومها انها لم تحقق لهم شيئا فالاولى بنا وقد تجاوزها قومها ان نتجاوزها ولا نسرف فى الثقة وان نلتمس منابعنا الاصيلة .

دار الاعتصام

١٠٠ قرش